RE

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

حياتي

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٠

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

حياتي

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٠

893.7Am54
R4

مقدمة

لم أتهيب شيئاً من تأليف ما تهيبت من إخراج هـذا الـكتاب ، فإن كل ما أخرجته كان غيرى المعروض وأنا العارض أو غيرى الموصوف وأنا الواصف ، أما فى هـذا الـكتاب فأنا العارض والمعروض والواصف والموصوف ، والعين لا ترى نفسها إلا بمرآة ، والشيء إذا زاد قربه صعبت رؤيته ، والنفس لا ترى شخصها إلا من قول عدو أو صـديق ، أو بمحاولة للتجريد ، وتوزيعها على شخصيتين : ناظرة ومنظورة ، وحاكمة ومحكومة وما أشق ذلك وأضناه .

ومع هذا فـكيف يكون الإنصاف ؟ إن النفس إما أن تغلو فى تقدير ذاتها فتنسب إليها ما ليس لها ، أو تبالغ فى تقدير ما صدر عنها ، أو تبرر ما ساء من تصرفها ، و إما أن تغمطها حقها و يحملها حب العدالة على تهوين شأنها فتسلبها ما لهـا ، أو تقلل من قيمة أعمالها ، أو تنظر بمنظار أسود لـكل ما يأتى منها ، أما أن تقف من نفسها موقف القاضى العادل ، والحـكم النزيه ، فمطلب عز حتى على الفلاسفة والحـكماء .

ثم إن للنفس أعماقاً كأعماق البحار ، وغموضاً كغموض الليل ، فالوعى واللاوعى ، والعقل الباطن والظاهر ، والشعور البسيط والمركب ، والباعث السطحى والعميق ، والغرض القريب والبعيد — كل هذا وأمثاله يجعل تحليلها صعب المنال ، وفهمها أقرب إلى المحال .

وقد يخدع الإنسان الإنسان فيكون من السهل اكتشاف الخديعة والوقوف على حقيقتها ، وتبيُّن أمرها ، وتفهم بواعثها ومراميها ، أما أن يخدع الإنسان نفسه فأمر غارق فى الأعماق مغلف بألف حجاب وحجاب .

من أجل هذا كان قول سقراط : «اعرف نفسك بنفسك» تكليفاً شططاً وأمرا يفوق الطاقة .

ولكن على المرء أن يبذل جهده فى تعرف الحق ، وتحرى الصدق ، ليبرئ نفسه ويريح ضميره ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

على ذلك وضعت هذا الكتاب ، لم أذكر فيه كل الحق ، ولكنى لم أذكر فيه أيضاً إلا الحق ، فمن الحق ما يرذل قوله وتنبو الأذن عن سماعه ، وإذا كنا لا نستسيغ عُرْى كل الجسم فكيف نستسيغ عرى كل النفس ؟ -- إلى أحداث تافهة حدثت

لى أو لغيرى معى ، لا نفع فى ذكرها ، والإطالة فى عرضها .

ثم إن حديث الإنسان عن نفسه — عادة — بغيض ثقيل ، لأن حب الإنسان نفسه كثيراً ما يدعوه أن يشوب حديثه بالمديح ، ولو عن طريق التواضع أو الإيماء أو التلويح ، وفى هذا المديح دلالة على التسامى والتعالى من القائل ، ومدعاة للاشمئزاز والنفور من القارئ والسامع ، ولذلك لا يستساغ الحديث عن النفس إلا بضروب من اللباقة ، وأفانين من اللياقة .

* * *

وترددت — أيضاً — فى نشره : ما للناس و « حياتى » ؟ لست بالسياسى العظيم ، ولا ذى المنصب الخطير ، الذى إذا نشر مذكراته ، أو ترجم لحياته ، أبان عن غوامض لم تعرف ، أو مخبآت لم تظهر ، فجلَّى الحق وأكمل التاريخ ، ولا أنا بالمغامر الذى استكشف مجهولا من حقائق العالم ، فحاول وصفه وأضاف ثروة إلى العلم ، أو مجهولاً من العواطف — كالحب والبطولة أو نحوهما فجلاها ، وزاد بعمله فى ثروة الأدب وتاريخ الفن — ولا أنا بالزعيم المصلح المجاهد ، ناضل وحارب ، وانتصر وانهزم ، وقاوم الكبراء والأمراء ، أو الشعوب والجماهير ، فرضوا عنه أحياناً ، وغضبوا عليه أحياناً ، وسعد وشقى ، وعُذب وكُرم ، فهو يروى أحداثه لتكون عبرة ، وينشر مذكراته لتكون درساً .

لست بشىء من ذلك ولا قريب من ذلك ، ففيم أنشر « حياتى » ؟ .

ولكن سرعان ما أجيب بأن عصر الارستقراطية كاد يزول من غير رجعة ، وينقضى من غير عودة ، وأزهرت الديمقراطية فحلت محلها ، ونشرت سلطانها ، وتغلغلت حتى فى الفن والأدب ؛ كان الشعر فى الشرق لا يعيش إلا فى قصور الخلفاء والأمراء فعاش فى الناس بعيدا عن القصور ، وكانت أهم موضوعاته المديح وخير أساليبه المزوق المطرز ، فصارت مواضيعه كل شىء إلا المديح وأسلوبه كل شىء إلا الإفراط فى الزينة ؛ وكانت الروايات التمثيلية فى الغرب لا تتخذ موضوعها إلا من حياة الملوك والأمراء ، ولا تعرج على شىء من حياة الفقراء ، إلا لإضحاك الأغنياء ، ثم دار الزمن دورته ، فصار كل شىء موضوعا للرواية . كوخ الفقير وقصر الأمير ، وعيشة المترف الناعم وعيشة المجهد البائس ، والفلاّحة فى الحقل والأميرة فى القصر — وقد كان المؤرخ إنما يؤرخ للخلفاء وأعمالهم ، ومبانيهم وحروبهم وإقطاعهم ، ومن اتصل بهم ، وما صدر عنهم من فعل وما روى لهم من قول ، ولا شىء غير ذلك ؛ ثم صار المؤرخ يؤرخ للشعب كما يؤرخ للسلطان ، ويؤرخ الفقر كما يؤرخ الغنى ، ويؤرخ الزراعة كما يؤرخ الإمارة — فحياة المغمورين هامة كحياة المشهورين .

فلماذا — إذن — لا أؤرخ « حياتى » لعلها تصور جانبا من جوانب جيلنا ، وتصف نمطا من أنماط حياتنا ، ولعلها تفيد اليوم قارئا ، وتعين غدا مؤرخا ، فقد عنيت أن أصف ما حولى مؤثرا فى نفسى ، ونفسى متأثرةً بما حولى .

***

نبتت عندى فكرة تاريخ حياتى ، منذ أول عهد شبابى ، فقد رأيتنى أدوّن مذكرات يومية عن رحلاتى ، وعن حياتى فى الأسرة أيام زواجى ، ووجدتنى أسجل فى المفكرات السنوية أهم أحداث السنة ، وما يسوء منها ومايسر ، ولكن لم يكن كل ذلك عملا منظما متواصلا ، بل كان يحدث فى فترات متقطعة — ثم نمت الفكرة وشغلت بالى فى العام الماضى ، فكنت أعصر ذاكرتى لأستقطر منها ما اختزَنَتْه منذ أيام طفولتى إلى شيخوختى ، وكلما ذكرت حادثة دونتها فى إيجاز ومن غير ترتيب — فلما فرغت من ذلك ضممته إلى مذكراتى اليومية ، ثم عمدت — فى الأشهر القريبة — إلى ترتيبه وكتابته من جديد على النحو الذى يراه القارئ ، من غير تصنع ولا تأنق .

والله هو الموفق .

الجيزة ٢٦ مارس سنة ١٩٥٠ — أحمد أمين

(١)

ما أنا إلا نتيجة حتمية لكل ما مرّ علىّ وعلى آبائى من أحداث ، فالمادة لا تنعدم وكذلك المعانى ، قد يموت الطير وتموت الحشرات والهوام ، ولكنها تتحلل فى تراب الأرض فتغذى النبات والأشجار ، وقد يتحول النبات والأشجار إلى فحم ، ويتحول الفحم إلى نار ، وتتحول النار إلى غاز ، ولكن لا شىء من ذلك ينعدم ، حتى أشعة الشمس التى تكوّن الغابات وتنمّى الأشجار تُختزَن فى الظلام ، فإذا سلطت عليها النار تحولت إلى ضوء وحرارة وعادت سيرتها الأولى .

كذلك الشأن فى العواطف والمشاعر والأفكار والأخيلة ، تبقى أبداً ، وتعمل عملها أبداً ، فكل ما يلقاه الإنسان من يوم ولادته ، بل من يوم أن كان عَلَقة ، بل من يوم أن كان فى دم آبائه ، وكل ما يلقاه أثناء حياته ، يستقر فى قرارة نفسه ، ويسكن فى أعماق حسه ، سواء فى ذلك ما وعى وما لم يع ، وما ذكر وما نسى ، وما لذ وما آلم ، فنبحة الكلب يسمعها ، وشعلة النار يراها ، وزجرة الأب أو الأم يتلقاها ، وأحداث السرور والألم تتعاقب عليه — كل ذلك يتراكم ويتجمع ويختلط ويمتزج ويتفاعل ، ثم

يكون هذا المزيج وهذا التفاعل أساساً لكل ما يصدر عن الإنسان من أعمال نبيلة وخسيسة — وكل ذلك أيضاً هو السبب فى أن يصير الرجل عظيما أو حقيراً ، قيما أو تافهاً — فكل ما لقينا من أحداث فى الحياة ، وكل خبرتنا وتجاربنا ، وكل ما تلقته حواسنا أو دار فى خَلَدنا هو العامل الأكبر فى تكوين شخصيتنا — فإن رأيت مكتئباً بالحياة ساخطا عليها متبرماً بها ، أو مبتهجاً بالحياة راضياً عنها متفتحاً قلبه لها ، أو رأيت شجاعاً مغامراً كبير القلب واسع النفس ، أو جباناً ذليلا خاملا وضيعاً ضيق النفس أو نحو ذلك ، فابحث عن سلسلة حياته من يوم أن تكوّن فى ظهور آبائه — بل قد تحدث الحادثة لا يأبه الإنسان بها وتمر أمام عينه مر البرق ، أو يسمع الكلمة العابرة لا يقف عندها طويلاً ، أو يقرأ جملة فى كتاب قراءة خاطفة ، فتسكن هذه كلها فى نفسه وتختبئ فى عالمه اللاشعورى ، ثم تتحرك فى لحظة من اللحظات لسبب من الأسباب فتكون باعثاً على عمل كبير أو مصدراً لعمل خطير . وكل إنسان — إلى حد كبير — نتيجة لجميع ما ورثه عن آبائه ، وما اكتسبه من بيئته التى أحاطت به .

ولو ورث إنسان ما ورثْتُ ، وعاش فى بيئة كالتى عشت لكان أياى أو ما يقرب منى جدّا .

لقد عمل فى تكوينى إلى حد كبير ما ورثت عن آبائى ، والحياة الاقتصادية التى كانت تسود بيتنا ، والدين الذى يسيطر علينا ، واللغة التى نتكلم بها ، وأدبنا الشعبى الذى كان يروى لنا ونوع التربية الذى كان مرسوماً فى ذهن أبوَىَّ ونو لم يستطيعا التعبير عنه ورسم حدوده ونحو ذلك ؛ فأنا لم أصنع نفسى ولكن صنعها الله عن طريق ما سنه من قوانين الوراثة والبيئة .

عجيب هذا العالم ، إن نظرت إليه من زاوية رأيته كلا متشابهاً ، يتجانس فى تكوين ذرّاته ، وفى بناء أجزائه ، وفى خضوعه لقوانين واحدة ؛ وإن نظرت إليه من زاوية أخرى رأيت كل جزئية منه تنفرد عن غيرها بميزات خاصة بها ، لا يشركها فيها غيرها ، حتى شجرة الوردة نفسها تكاد تتميز كل ورقة فيها عن مثيلاتها ، فمن الناحية الأولى نستطيع أن نقول ما أشبه الإنسان بالإنسان ! ومن الناحية الثانية نقول ما أوسع الفرق بين الإنسان والإنسان !

وعلى هذه النظرة الثانية فأنا عالمَ وحدى ، كما أن كل إنسان عالمَ وحده ، تقع الأحداث على أعصابى ، فأنفعل لها انفعالا خاصا بى ، وأقوّمها تقويماً يختلف — قليلا أو كثيراً — عن تقويم كل مخلوق آخر غيرى ، فالحادثة الواحدة يبكى منها

إنسان ، ويضحك منها آخر ؛ ولا يبكى ولا يضحك منها ثالث ، كأوتار العود الواحد ، يوقّع عليها كل فنّان توقيعاً منفرداً متميزاً لا يساويه فيه أى فنان آخر .

فأنا أروى من الأحداث ما تأثرت به نفسى ، وأحكيها كما رأت عينى ، وأترجمها بمقدار ما انفعل بها شعورى وفكرى .

(٢)

نظر مرة إلى رأسى أستاذ جامعى فى علم الجغرافيا وحدّق فيه ثم قال : هل أنت مصرى صميم ؟ قلت : فيما أعتقد ، ولم هذا السؤال ؟ قال إن رأسك — كما يدل عليه علم السلالات — رأس كردى .

ولست أعلم من أين أتتنى هذه الكردية ، فأسرة أبى من بلدة « سُمُخْراط » من أعمال البحيرة ، أسرة فلّاحة مصرية صميمة ، كانت كسائر الفلاحين تعيش على الزرع ، وحدثنى أبى أنهم كانوا يملكون فى بلدهم نحو اثنى عشر فدانا ، ولكن توالى عليهم ظلم « السُّخْرة » وظلم تحصيل الضرائب فهجروها .

وكانت السخرة أشكالاً وألواناً ، فسخرة للمصالح العامة كالمحافظة على جسور النيل أيام الفيضان ؛ فعمدة البلدة يسخر

الفلاحين ليحافظوا على الجسور حتى لا يطغى النيل فيغرق البلد فإذا تخلف أحد ممن عين لهذه الحراسة عذب وضرب ، وهو يعمل هذا العمل من غير أجر ؛ وسخرة للمصالح الخاصة ، فالغنى الكبير والعمدة ونحوهما لهم الحق أن يحشدوا من شاءوا من الفلاحين المساكين ليعملوا فى أرضهم الأيام والليالى من غير أجر — ولما أبطل رياض باشا السخرة والضرب بالكرباج فى عهد الخديو توفيق نَقَمَ عليه الوجوه والأعيان صنعه ، وعدُّوا ذلك من عيوبه ، وقالوا إنه أفسد علينا الفلاحين . وهكذا كان فى كل ناحية من نواحى القطر عدد قليل من الوجوه والأعيان هم السادة ، وسواد الناس لهم عبيد ، بل هؤلاء الوجوه والأعيان سادة على الفلاحين وعبيد للحكام .

وأما الضرائب فلم تكن منظمة ولا عادلة ، فأحياناً يستطيع أن يهرب الغنى الكبير من دفعها أو يدفع القليل مما يجب عليه منها ويتخلص من الباقى بالرشوة أو التقرب إلى الحكام . ثم يُطالَبُ الفقراء المساكين بأكثر مما يحتملون ، فإن لم يدفعوا بيعت بهائمهم الهزيلة وأثاث بيوتهم الحقيرة ثم ضربوا بالكرباج وعذبوا عذاباً أليماً — فكان كثير منهم إذا أحس أنه سيقع فى مثل هذا المأزق حمل أثاث منزله على بهائمه ، وخرج هو وأسرته هائمين على

وجوههم فى ظلمة الليل ، وتركوا أراضيهم ، ونزلوا على بعض أقربائهم أو على البدو فى الخيام أو حيثما اتفق — فعلت ذلك أسرة على باشا مبارك وفعلته أسرتى وأسر كثيرة من الناس .

ففى ليلة من الليالى خرج أبى الصغير وعمى الكبير من سمخراط يحملان معهما القليل من الزاد والأثاث ، تاركَيْن الأطيان حلا مباحا لمن يستولى عليها ، ونزلا فى حى المنشية (بقسم الخليفة) ولا قريب ولا مأوى .

وقسم الخليفة كقسم بولاق أكثر أحياء القاهرة عدداً وأقلها مالا وأسوؤها حالا ، يسكنهما العمال والصناع والباعة الجوالون وكثير من الطبقة الوسطى وقليل من العليا ، ولم تمسهما المدنية الحديثة إلا مسًّا خفيفاً ، فمن شاء أن يدرس حياة سكان القاهرة كما كانوا فى العصور الوسطى فليدرسها فى هذين الحيين وخاصة أيام ولادتى .

وهكذا ألاعيب القدر . ظلم صراف البلدة أخرج أبى من سمخراط وأسكنه القاهرة حيث ولدت وتعلمت ، ولولا ذلك لنشأت فلاحاً مع الفلاحين أزرع وأقلع ، ولكن تتوالد الأحداث توالداً عجيباً ، فقد ينتج أعظم خير من أعظم شر كما ينتج أعظم شر من أعظم خير ، ولا تستبين الأمور حتى يتم هذا التوالد ويظهر على مسرح الكون .

سكن الشريدان فى بيت صغير فى حارة متواضعة فى حى المنشية ، وعاشا على القليل مما ادخرا ، ولا بد أن يكونا قد لقيا كثيراً من البؤس والعنت فى أيامهما الأولى ، ولكن سرعان ما شق الأخ الكبير طريقه فى الحياة فكان صانعاً كسوباً . وكان الظن أن يأخذ أخاه الأصغر معه ليكون صانعاً بجانبه يعينه على الكسب أَوَّلَ أمره ، ولكن نزعة طيبة غلبت عليه فوجهه نحو التعلم واحتمل نفقته ؛ فهو يحفظ القرآن ، ويلتحق بالأزهر ، ويخجل من أخيه أن يُرهقه بالإنفاق عليه فلا يطالبه إلا بالضرورى ، وإذا احتاج إلى كتاب يُقرأ فى الأزهر خطه بيمينه ، وقد أحسن خطه فكان خطًّا جميلاً قلّ أن يكون له نظير بين طلاب الأزهر وعلمائه ، يكتبه فى أناقة ويشترى له ورقاً متيناً صقيلاً ، ويسطره بمسطرة هى عبارة عن ورقة سميكة قد شدّ عليها خيط فى مكان السطور وثُبّت عليها بالصمغ ، فإذا وضعت الورقة التى يراد الكتابة عليها وضغطت بانت الخيوط ، فكتب الكاتب عليها خطا منتظما . وقد خلف أبى كتباً كثيرة من هذا القبيل ، فقد كان كلما عثر على كتاب مخطوط جيد نقله بخطه ، ولا أدرى أين وجد الزمن الذى قام فيه بمثل هذا العمل . فلما توفى جمعت هذه الكتب فى صناديق وأهديتها إلى مكتبة الأزهر باسمه .

ويتقدم أبى فى الدراسة فيبحث عن عمل يكسب منه بجانب دراسته فيكون مصححاً بالمطبعة الأميرية ببولاق أحياناً ومدرساً فى مدرسة حكومية أو أهلية أحياناً . وكانت الدراسة فى الأزهر صعبة مملة طويلة لا يجتازها إلا من منح صبراً طويلاً ، واحتمل عبئاً ثقيلا ، يَطلب هذه الدراسة كثيرون ولا يتمها إلا القليلون ، فيكونون كالماء يبتدئ نهراً كبيراً ، ويمر أخيراً فى قناة . ويقضى الطالب فى ذلك نحو عشرين سنة أو أكثر ، ثم قد ينجح أَوْ لا ينجح . وهكذا نجح أبى فى دراسته بصبره وقوة احتماله ، واستطاع أن يحمل عبئه ويرد الجميل لأخيه .

وأما أسرة أمى فأصلها على ما رُوى لى من « تلا » من أعمال المنوفية ، ولا أدرى أهجرتها كما هجرتها أسرة أبى فراراً من الظلم أو لشىء آخر ، وكلّ ما أعلمه أن أخوالى سكنوا فى حى فى وسط القاهرة قريب من باب الخلق ، وكانوا يشتغلون فى تجارة (العطارة) ، وكانوا ناجحين فى تجارتهم ، وكانوا مع — مهنتهم التجارية — يحفظون القرآن ، ويحسنون قراءته ، ويلتزمون شعائر الدين .

(٣)

كانت أول مدرسة تعلمت فيها أهم دروسى فى الحياة بيتى ، وقد بنى أبى — بعد أن تحسنت حاله — بيتاً مستقلا فى الحارة التى يسكنها هو وأخوه منذ هجرتهما ، يتكون من دورين غير الأرضى ، ففى الدور الأرضى منظرة للضيوف وكل دور به ثلاث حجر وتوابعها .

وطابع البيت كان البساطة والنظافة ، فأثاث أكثر الحجر حصير فرشت عليه سجادة ، وإذا كانت حجرة نوم رأيت فى ركن من أركانها حَشِيّة ولحافاً ومخدة ، تطوى فى الصباح وتبسط فى المساء ، فلم نكن نستخدم الأسرّة . وأدوات المطبخ فى غاية السذاجة ، وهكذا ؛ ولو أردنا أن ننتقل لكفتنا عربة كبيرة لنقل الأثاث ؛ أما أكثر ما فى البيت وأثمنه وما يشغل أكبر حيز فيه فالكتب — المنظرة مملوءة دواليب صففت فيها الكتب ، وحجرة أبى مملوءة بالكتب ، وحجرة فى الدور الأول ملئت كذلك بالكتب .

وكان أبى مولعاً بالكتب فى مختلف العلوم ، فى فقه الشافعى والتفسير والحديث واللغة والتاريخ والأدب والنحو والصرف والبلاغة ، وإذا كان الكتاب مطبوعاً طبعتين : طبعة أميرية

وطبعة أهليـة لم يرتح حتى يقتنيه طبعة أميرية ، وقد مكنه عمله مصححاً فى المطبعة الأميرية أن يقتنى كثيراً مما طبع فيها — وكانت هـذه المكتبة أكبر متعة لى حين استطعت الاستفادة منها ، وقد احتفظت بخيرها واتخذته نواة لمكتبتى التى أعتز بها وأمضى الساعات فيها كل يوم إلى الآن .

فى حجرة من هـذا البيت ولدت ، وكانت ولادتى فى الساعة الخامسة صباحا من أول اكتوبر سنة ١٨٨٦ ، وكنت رابع ولد وُلد ، ولم يكن أبى يحب كثرة الأولاد شعوراً منـه بالمسئولية ، ولما لقى من الحزن العميق فى وفاة أختى أبشع وفاة .

فقد كان لى أخت فى الثانية عشرة من عمرها قامت تُعِـدّ القهوة للضيوف فهبت النار فيها ، واشتعل شـعرها وجسمها ، وحاولت أن تطفئ نفسها أول الأمر فلم تنجح فصرخت ، ولـكن لم يدركوها إلا وهى شعلة نار ، ثم فارقت الحياة بعـد ساعات ، وكان ذلك وأنا حَمْلٌ فى بطن أمى ، فتغذيت دماً حزنيا ورضعت بعد ولادتى لبناً حزيناً ، واستقبلت عند ولادتى استقبالا حزيناً ، فهـل كان لذلك أثر فيما غلب علىّ من الحزن فى حياتى فلا أفرح كما يفرح النـاس ، ولا أبتهج بالحياة كما يبتهجون ؟ علم ذلك عند الله والراسخين فى العلم .

وكان من محاسن أسرتنا استقلالنا فى المعيشـــة وفى البيت ، فلا حَمَاة ولا أقارب إلا أن يزوروا لماماً

وكان بيتنا محكوماً بالسلطة الأبوية ، فالأب وحده مالك زمام أموره ، لاتخرج الأم إلا بإذنه ، ولا يغيب الأولاد عن البيت بعد الغروب خوفاً من ضربه ، ومالية الأسرة فى يده يصرف منها كل يوم ما يشاء كما يشاء ، وهو الذى يتحكم حتى فيما نأكل وما لا نأكل ، يشعر شعوراً قويا بواجبه نحو تعليم أولاده ، فهو يعلمهم بنفسه ويشرف على تعليمهم فى مدارسهم ، سواء فى ذلك أبناؤه وبناته ، ويتعب فى ذلك نفسه تعباً لا حد له ، حتى لقد نكون مريضاً فلا يأبه بمرضـه ويتكئ على نفسه ليلقى علينـا درسه . أما إيناسنا وإدخال السرور والبهجة علينا وحديثه اللطيف معنا فلا يلتفت إليه ولا يرى أنه واجب عليه . يرحمنا ولـكنه يخفى رحمته ويظهر قسوته ؛ وتتجلى هذه الرحمة فى المرض يصيب أحدنا ، وفى الغيبة إذا عرضت لأحد منا ، يعيش فى شبه عزلة فى دوره العالى ، يأكل وحده ويقرأ وحده ويتعبد وحده ، وقلما يلقانا إلا ليقرئنا . أما أحاديثنا وفكاهتنا ولعبنا فمع أمنا .

وقد كان لنا جدة — هى أم أمنا — طيبة القلب شـديدة التدين ، يضىء وجهها نوراً ، تزورنا من حين لآخر ، وتبيت عندنا

فنفرح بلقائها وحسن حديثها ، وكانت تعرف من القصص الشعبية — الريفية منها والحضرية — الشيء الكثير الذى لا يفرغ ، فنتحلق حولها ونسمع حكاياتها ولا نزال كذلك حتى يغلبنا النوم ، وهى قصص مفرحة أحياناً مرعبة أحياناً ، منها مايدور حول سلطة القدر وغلبة الحظ ، ومنها ما يدور حول مكر النساء ودهائهن ، ومنها حول العفاريت وشيطنتها ، والملوك والعظماء وذلّهم أمام القدر الخ . وتتخلل هذه القصص الأمثال الشعبية اللطيفة والجمل التى يتركز فيها مغزى القصة . وأحياناً كان أخى الكبير يقرأ لنا فى ألف ليلة وليلة ، فإذا أتى إلى جمل ماجنة متهتكة تلعثم فيها وخجل واضطرب وحاول أن يتخطاها ، وأحياناً يزل لسانه فيقرؤها فيضحك بعض من حضر ، وتخجل أمى وجدتى فيهرب أخى من هذا الموقف المربك ، وتقف القراءة .

ولكن كان بيتنا — على الجملة — جداً لا هزل فيه ، ومتحفظا ليس فيه ضحك كثير ولا مرح كثير ، وذلك من جِدّ أبى وعزلته وشدته .

ولم تكن المدنية قد غزت البيوت ، وخاصة بيوت الطبقة الوسطى أمثالنا ، فلا ماء يجرى فى البيوت وإنما هو سقّاء يحمل القِرْبة على ظهره ويقذف ماءها فى زير فى البيت تُملأ منه القلل

وتُغسل منه المواعين ، وكلما فرغت قربة أحضر قربة . والسقاء دائم المناداة على الماء فى الحارة ، وحسابه لكل بيت عسير ، إذ هو يأخذ ثمن مائه كل أسبوع ، فتارة يتبع طريقة أن يخط خطا على الباب كلما أحضر قربة ، ولكن بعض الشياطين يغالطون فيمسحون خطا أو خطين . ولذلك لجأ السقاء إلى طريقة «الخرَز» فيعطى البيت عشرين خرزة ، وكلما أحضر قربة أخذ خرزة ، فإذا استنفدت كلها حاسب أهل البيت عليها .

وأخيرا — وأنا فتى — رأيت الحارة تحفر والأنابيب تمد والمواسير والحنفيات تركَّب فى البيوت وإذا الماء فى متناولنا وتحت أمرنا ، وإذا صوت السقاء يختفى من الحارة ويريحنا الله من الخطوط تخط أو الخرز يوزع .

وطبيعى فى مثل هذه الحال ألا يكون فى البيت كهرباء فكنا نستضىء بالمصابيح تضاء بالبترول ، ولم أستضئ بالكهرباء حتى فارقت حيّنا إلى حى آخر أقرب إلى الأرستقراطية .

وطعامنا يطهى على الخشب ، ثم تقدمنا فطهينا على رجيع الفحم (فحم الكوك) ثم تقدمنا أخيراً فطهينا على (وابور بريمس) .

وكل أعمال البيت تقوم بها أمى ، فلا خادم ولا خادمة ولكن يعينها على ذلك أبناؤها فيما يقضون من الخارج ، وكبرى بناتها فى الداخل .

وكان أبى مدرساً فى الأزهر ومدرساً فى مسجد الإمام الشافعى وإمام مسجد ، ويتقاضى من كل ذلك نحو اثنى عشر جنيهاً ذهباً ، فلم نكن نعرف جنيهات الورق ، وأذكر — وأنا فى المدرسة الابتدائية — أن ظهرت عملة الورق فخافها الناس ولم يؤمنوا بها وتندرت الجرائد الهزلية عليها ، وكانت لا تقع فى يد الناس — وخاصة الشيوخ — حتى يسرعوا إلى الصيارف فيغيروها ذهباً . وكانت الاثنا عشر جنيهاً تكفينا وتزيد عن حاجتنا ويستطيع أبى أن يدخر منها للطوارئ ، إذ كانت قدرتها الشرائية تساوى الأربعين جنيها أو الخمسين اليوم ، فعشر بيضات بقرش ، ورطل اللحم بثلاثة قروش أو أربعة ورطل السمن كذلك وهكذا ، ومن ناحية أخرى كانت مطالب الحياة محدودة ومعيشتنا بسيطة فأبى من بيته إلى عمله إلى مسجده ثم إلى بيته ، لا يدخن ولا يجلس على مقهى ، وملابسنا جميعاً نظيفة بسيطة ، ومأكلنا معتدل ليس بضرورى فيه تعدد أصنافه ، ولا آكل اللحم كل يوم ، ولم نر فيمن حولنا عيشة خيراً من عيشتنا نشتى بالطموح إلى أن نعيش مثلها ، ولا سينما ولا تمثيل ، ولكن من حين لآخر تنصب خيمة على باب حارتنا يلعب فيها « قره جوز » أدخل إليها بنصف قرش ويكون ذلك مرة فى السنة أو مرتين .

ويغمر البيت الشعور الديني ، فأبى يؤدى الصلوات لأوقاتها ، ويكثر من قراءة القرآن صباحا ومساء ، ويصحو مع الفجر ليصلى ويبتهل ، ويكثر من قراءة التفسير والحديث ، ويكثر من ذكر الموت ويقلل من قيمة الدنيا وزخرفها ، ويحكى حكايات الصالحين وأعمالهم وعباداتهم ، ويؤدى الزكاة يؤثر بها أقرباءه ، ويحج ويُحج أمى معه — ثم هو يربى أولاده تربية دينية فيوقظهم فى الفجر ليصلوا ويراقبهم فى أوقات الصلاة الأخرى ويسائلهم متى صلوا وأين صلوا . وأمى كانت تصلى الحين بعد الحين — وكلنا يحتفل برمضان ويصومه — وعلى الجملة فأنت إذا فتحت باب بيتنا شممت منه رائحة الدين ساطعة زاكية ، ولست أنسى يوما أقيمت فيه حفلة عرس فى حارتنا ، وقدمت فيه المشروبات لبعض الحاضرين فشوهد أخى المراهق يجلس على مائدة فيها شراب فبلغ ذلك أبى فما زال يضربه حتى أغمى عليه — وكان معى يوماً قطعة بخمسة قروش فحاولت أن أصرفها من بائع سجائر فشاهدنى أخى الكبير فأخذ يسألنى ويحقق معى تحقيق « وكيل النيابة » مع المتهم خوفاً من أن أكون أشترى سجائر لأدخنها إذ ليس أحد فى البيت يحدث نفسه أن يشرب سيجارة .

وبعد ، فما أكثر ما فعل الزمان ! لقد عشت حتى رأيت

سلطة الآباء تنهار ، ويحل محلها سلطة الأمهات والأبناء والبنات ، وأصبح البيت برلماناً صغيراً ، ولكنه برلمان غير منظم ولا عادل فلا تؤخذ فيه الأصوات ولا تتحكم فيه الأغلبية ، ولكن يتبادل فيه الاستبداد ، فأحيانا تستبد الأم ، وأحياناً تستبد البنت أو الابن وقلما يستبد الأب ، وكانت ميزانية البيت فى يد صراف واحد فتلاعبت بها أيدى صرافين ، وكثرت مطالب الحياة لكل فرد وتنوعت ، ولم تجد رأيا واحداً يعدّل بينها ، ويوازن بين قيمتها ، فتصادمت وتحاربت وتخاصمت ، وكانت ضحيتها سعادة البيت وهدوءه وطمأنينته .

وغزت المدنية المادية البيت فنور كهربائى وراديو وتليفون وأدوات للتسخين ، وأدوات للتبريد ، وأشكال وألوان من الأثاث . ولكن هل زادت سعادة البيت بزيادتها ؟

وسفرت المرأة وكانت أمى وأخواتى محجبات — لا يرين الناس ولا يراهن الناس إلا من وراء حجاب — وهكذا من أمور الانقلاب الخطير ، ولو بعث جدى من سمخراط ورأى ما كان عليه أهل زمنه وما نحن عليه اليوم لجن جنونه ، ولكن خفف من وقعها علينا أنها تأتى تدريجاً ، ونألفها تدريجاً ، ويفتُر عجبنا منها وإعجابنا بها على مر الزمان ، وتتحول شيئاً فشيئاً من باب الغريب إلى باب المألوف .

(٤)

كان هذا البيت أهم مدرســة تكونت فيها عناصر جسمى وخلقى وروحى ، فإذا تغيرْتُ بالنمو أو الذبول و بالقوة أو الضعف ، فمسائل عارضة على الأصــل — لقد كانت أمى قصيرة النظر فورثت عنها قصر النظر ، ولقيت من عنائه فى حياتى الشىء الـكثير ، فإذا تقدمت للدخول فى دار العلوم حرمت من ذلك لقصر نظرى ، و إذا تقدمت للدخول فى مدرسة القضاء فـكذلك إلا أن تحدث معجزة ، وإذا أريد تثبيتى فى وظيفة سقطت فى امتحان النظر ، ولم أُثَبَّتْ إلا بمعجزة أخرى ، وتحدث أحداث كثيرة مخجلة وغير مخجلة نتيجة لقصر نظرى ، فقد لا أسلّم على أحد يجلس بعيداً عنى فيظن بى الـكبر ، وهكذا وهكذا من أحداث سيئة لا تحصى صادفتنى فى حياتى . وربما كان هــذا عاملا من عوامل حبى العزلة حتى لا أقع فى مثل هذه الأغلاط ، ولــكن أحمد الله أن كان نظرى على قصره سليما ، فقد احتملنى على كثرة قراءتى ومداومة النظر فى الـكتب حتى جاوزت الستين .

ثم إن كل خصائص البيت التى ذكرتها انعكست فى طبيعتى وكوّنت أهم مميزات شخصيتى . فإن رأيت فىَّ إفراطاً فى جانب الجد

وتفريطاً معيباً فى جانب المرح ، أو رأيت صبراً على العمل وجَلَداً فى تحمل المشقات ، واستجابة لعوامل الحزن أكثر من الاستجابة لعوامل السرور ، فاعلم أن ذلك كله صدًى لتعاليم البيت ومبادئه . وإن رأيت دِيناً يسكن فى أعماق قلبى ، و إيماناً بالله لا تزلزله الفلسفة ولا تُشكك فيه مطالعانى فى كتب الملحدين ، أو رأيتنى أكثر من ذكر الموت وأخافه ، ولا أتطلع إلى ما يعده الناس مجداً ولا أحاول شهرة ، وأذكرُ فى أسعد الأوقات وأبهجها أن كل ذلك عَرَض زائل ، أو رأيت بساطتى فى العيش وعدم احتفائى بمأكل أو مشرب أو ملبس ، و بساطتى فى حديثى و إلقائى ، و بساطتى فى أسلوبى وعدم تعمدى الزينة والزخرف فيه ، وكراهيتى الشديدة لكل تكلف وتصنع فى أساليب الحياة ، فمرجعه إلى تعاليم أبى وما شاهدته فى بيتى .

لقد قرأت الكثير مما يخالف هذه التعاليم ، وصاحبت أهل المرح وسمعت آراء الإلحاد ، وأنصتُّ إلى من ينصحنى بالابتهاج بالحياة ، وتعاقبت أمام نظرى أنواع الحياة المختلفة والمظاهر المتباينة ونحو ذلك ، ولكن تسرب بعض هذه الأشياء إلى عقلى الواعى فكان على السطح لا فى الصميم ، أما شعورى العميق وما له الأثر الكبير فى الحياة من اللاوعى فمنشؤه البيت حيث الصفحة بيضاء

نقية تستقبل ما يقع عليها وتدخره فى خزائنها ، ثم تـكون له السيطرة الـكبرى على الحياة مهما طالت .

نعم إنى لأعرف من نشأوا فى بيت كبيتى تغمره النزعة الدينية كالنزعة التى غمرت بيتى ، ومع هذا ثاروا على هـذه النزعة فى مستقبل حياتهم ، وانتقلوا من النقيض إلى النقيض ، ولم يعبأوا بالسلطة الدينية التى فرضت عليهم فى صغرهم ، فلماذا كان موقفهم غير موقفى واتجاههم غير اتجاهى ؟ هل كان ذلك لأن الدين يتبع المزاج إلى حد كبير ، فمزاج دينىّ ومزاج غير دينىّ فاختلف مزاجهم ومزاجي ، أو لأن شخصية أبى كانت قوية غرست فىَّ ما لم يستطع الزمان اقتلاعه ، أوأن عوامل البيئة زادت هذه النزعة الدينية نمواً ، فلما جاءت العاصفة جاءت متأخرة ؟ لعله شىء من ذلك أو لعله كل ذلك أو لعله شىء غير ذلك .

وهكذا الشأن فى كثير من شؤون الحياة ، نرى رجلين نشآ فى بؤس من العيش وقلة من المـال ، ثم بسط لهما فى العيش وتدفقَ عليهما المال ، فتعلم أحدهما من بؤسه الأول حرصاً على المال وفَرْط تقويم له ، على حين أن الآخر انتقم من بؤسه بنعيمه ، ومن بخل الزمان الأول عليه بإسرافه .

لقد رأينا طَرفَةَ بن العبد وأبا العتاهية ، كلاهما تمثلت أمام عينيه

حقيقة الموت ، فاستنتج منها طرفة وجوب انتهاب اللذائذ وقال :

ألا أيهذا الزاجِرِى أَحْضُرَ الوغى
وأن أشهد اللذاتِ هل أنتَ مُخْلِدِى
فإن كنتَ لا تسطيع دفع منيتى
فدعْنِى أُبادرْها بما ملَكَتْ يدى

واستنتج منها أبو العتاهية احتقار اللذائذ وتهوين شأنها والصد عنها فقال :

عجبت لذى لِعبٍ قد لها — عجبتُ وما لىَ لا أعجبُ
أيلهو ويلعب مَن نفسُه — تموت ومنزله يخرب

وعلى كل حال فالبيت يبذر البذور الأولى للحياة ويتركها للتربة التى تعيش فيها ، والجو الذى يعاكسها أو ينميها ، حتى تعيش عيشتها المقدورة لها وفقاً لنظام الكون وقوانينه .

(٥)

عصرت ذاكرتى لأذكر أقدم أحداث طفولتى فذكرت منها ثلاثة — أولها أنى وأنا فى نحو الرابعة من عمرى خرجت من حارتى فوجدت بناء وله باب مفتوح فدخلته ، كان هـذا البناء « جَبّاسة » رأيت عجبا ، ثور كبير عُلقتُ على عنقه

خشبة وربطت هذه الخشبة فى أسطوانة من الحديد كبيرة فإذا دار الثور دارت الحـديدة — وقد وضع تحت الحديدة حجر أبيض إذا دارت عليه طحنته فـكان جِبْسا .

أعجبنى هذا المنظر ، والناس — وخاصة الأطفال — تعجبهم الحركة أكثر مما يعجبهم السكون ، فلعبة القطار إذا كان يجرى « بزنبلك » خير من لعبة القطار الساكن ، والإعلان المتحرك فى المحال التجارية خير من الإعلان الثابت ، وعلى هذا الأساس النفسى كانت الصور المتحركة للأطفال فى السينما وهكذا ، جميل هذا المنظر : ثور يتحرك ويدور فتتحرك معه الاسطوانة الحديدية ، وحجر جامد يتحول إلى دقيق ناعم — وشغلْتُ به عن نفسى فجلست أمامه وقضيت الساعتين أو أكثر فى الاستمتاع به ؛ فى هـذه الأثناء بحثت عنى أمى فى البيت فلم تجدنى ، فنـادت أخى وأختى فبحثا عنى فى الحارة فلم يجدانى ، فجن جنونها . وكان يشاع فى أوساطنا أن هنـاك قوماً يخطفون الأولاد ويسفّرونهم إلى البـلاد النائية للعمل ، وأن هناك آخرين شريرين يسمى كل منهم « سِمَّاوى » يخطفون الأولاد ويذبحونهم أو يضعونهم فى ماعون كبير يغلى بهم على النار وهكذا ، فخافت أمى أن يكون قد حدث لى شىء من هذا .

وكان فى كل حى « مناد » يُستأجر لينـادى على الأولاد التائهين ، فيقول بأعلى صوته : « يا من رأى ولداً صفته كذا يلبس جلباباً أحمر أو أصفر ، وعلى رأسه طاقية أو عارى الرأس ، وفى رجله نعل أو حافى القدمين فمن وجـده فله الحلاوة » ، ويتنقل فى الشوارع والحارات المجاورة ينادى هـذا النداء ثم يختمه كل مرة بقوله « يا عَدَوِى » والعدوى هذا شيخ من أولياء الله الصالحين مُوكَّل برد التائه إلى أهله .

وأذكر — بهذه المناسبة — حادثة طريفة : أن المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى ألف كتاباً سماه « أين الإنسان ؟ » قرأه المرحوم « فتحى باشا زغلول » فلم يعجبه ، فأخذ القلم وكتب تحت « أين الإنسان » يا عدوى .

على كل حال كان المنادى ينادى علىّ وأنا فى الجباسة حتى جاء رجل وطردنى ، وشتمنى وشتمته ، فعدت إلى البيت ، فنهرتنى أمى وقالت : أين كنت قلت فى الجباسة ، وحكيت القصة وما رأيت وما قاله لى الرجل وما رددت عليه ، بلغة مكسرة ولسان ألثغ . فكانت القصة تستخرج الضحك من كل من سمعها ، وكثيراً ما طلب منى أن أعيد روايتها ولهذا ثبتت فى ذاكرتى .

وحدث مرة أن أخذنى والدى إلى المسجد بجوار بيتنا ليصلى

ولم يكن بالمسجد غيرنا ، فخلع والدى جبته وجوربه وشمر أكمامه وذهب إلى « الميضأة » ليتوضأ ، والميضأة حوض ماء نحو ثلاثة فى ثلاثة يملأ بالماء من حين لآخر ، وفى العادة يملأ من بئر بجانبه ركبت عليها بكرة ، وعلق فيها حبل ركب فى طرفيه دلوان ، ينزل أحدهما فارغاً ويصعد الآخر ملآن .

ومن أراد أن يتوضأ من الميضأة جمع الماء بين كفيه وغسل وجهه ويديه الخ . ثم يعود الماء إلى الميضأة بعد الغسل كما أُخذ ، وكانت هذه الميضأة مصدر بلاء كبير ، فقد يتوضأ المريض بمرض معدٍ كالرمد ونحوه فيتلوث الماء ويُعدَى الصحيح ، هذا إلى قذارته ، فالمتوضئ يغسل وجهه بعد أن غسل مَنْ قبله رجليه ولكن الاعتقاد الدينى يغطى كل هذه العيوب والأخطار . فلما دخل القاهرة نظام جَرْى الماء فى الأنابيب والحنفيات لم تعد حاجة إلى الميضأة ، وأصبحت الحنفيات أنظف وأصح ، ولكن إلف الناس للقديم جعلهم يحزنون لفراق الميضأة ، ولذلك كان مما أُخذ على الشيخ محمد عبده وعيب عليه أن أبطل ميضأة الأزهر وأحل محلها الحنفيات ، وهكذا يألف الناس القديم الضار ويكرهون الجديد النافع ويدخلون فى الدين ما ليس من الدين .

توضأ أبى وذهب يصلى ، وبقيت أنظر إلى البئر وإلى الميضأة

وأتجول بينهما ، فتزحلقت قدمى وغرقْتُ فى الميضأة ، وغمر الماء رأسى ولولا أن أبى كان قريباً منى وسمع الحركة وأسرع إلى الميضأة وانتشلنى ما كنت من ذلك الحين فى الأحياء .

وهكذا نجوت من هذا الحادث على هذا الوجه ، وكان يمكن أن تختصر حياتى كلها وتقف عند هذا الحد لو تأخرت فى الماء دقيقة ولم يلتفت أبى إلى هذه الرجة — وكم من أرواح نجت بمثل هذا وأرواح ضاعت بمثل هـذا أيضاً — وعلى كل ففلسفة الحوادث وفلسفة القدر غامضة عجيبة .

و بعد ذلك حدثت لى حادثة ثالثة ، فقـد مر بحارتنا قبيل الغروب سائل يستجدى بالفن ؛ فمعه دف يوقع عليه توقيعاً لطيفاً وينشد مع التوقيع قصائد فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ينوّع النغمات حسب القصائد ، و يناغم بين القصيدة والضرب على الدف . أعجبنى هذا وطر بت له فتبعته ، وخرج من حارتنا إلى حارة أخرى فـكنت معه حتى أتم دورته ، و إذا نحن بعد العشاء وأبى ينتظرنى لتأخرى ، فلما دخلت البيت أخذ يضر بنى من غير سؤال ولا جواب — ولو كان أبى فناناً لقبّلنى لأنه كان يكتشف فىّ أذناً موسيقية وعاطفة قو ية ، ولـكنه لم ينظر فى الموضوع إلا أنى تأخرت عن حضور البيت بعد غروب الشمس .

(٦)

وكانت المدرسة الثانية هى «حارتى[1]» فقد لعبت مع أبنائها وتعلمت منهم مبادئ السلوك ، وتبادلت معهم عواطف الحب والكره ، والعطف والانتقام . والألفاظ الرقيقة وألفاظ السباب — وانطبعت منها فى ذهنى أول صورة للحياة المصرية الصميمة فى سلوكها وأخلاقها وعقائدها وخرافاتها وأوهامها ومآتمها وأفراحها وزواجها وطلاقها إلى غير ذلك — وكانت حارتنا مثالاً للأسر فى القرون الوسطى قبل أن تغزوها المدنية الحديثة بماديتها ومعانيها — فقد ولدت عقب الاحتلال الإنجليزى بنحو أربع سنوات ، ولم يكن الفرنج قد بثوا مدنيتهم إلا فى أوساط قليلة من الشعب ، هى أوساط بعض من يَحْتَكُّ بهم من الارستقراطيين وأشباههم . أما الشعب نفسه — وخاصة الأحياء الوطنية — كحيّنا فلم يأخذ بحظ وافر منها ، فحارتنا ليس فيها من يتكلم كلمة أجنبية بل ليس فيها ممن يلبس البذلة والطربوش إلا عدد قليل جدا من الموظفين ، وليس فى بيوتها أثر من وسائل الترف التى أنتجتها المدنية الحديثة ، وليس فيها من يقرأ كتاباً حديثاً مترجماً أو مكتوباً بالأسلوب الحديث ، ومن يقرأ منهم فإنما يقرأ القرآن والحديث والقصص القديمة كألف ليلة

(١) هي حارة العبّادية بالمنشية .

وعنترة ، أو الكتب الأدبية الخفيفة ، ككليلة ودمنة والمستطرف في كل فن مستظرف .

ولم تكن قد سادت النزعة الأوروبية التي لا تقدّر الجوار فيسكن الرجل منهم بجوار صاحبه السنين ولا يعرف من هو بل قد يسكن معه في بيت واحد أو في شقة بجانب شقته ولا يكلف نفسه مؤونة التعرف به والسؤال عن حاله ، إنما كانت تسود النزعة الإسلامية التي تعد الجار ذا شأن كبير في الحياة ، فكان أهل حارتنا كلهم جيراناً ، يعرف كل منهم شؤون الآخرين وأسماءهم وأعمالهم ، ويعود بعضهم بعضاً عند المرض ، ويعزونهم في المآتم ويشاركونهم في الأفراح ويقرضونهم عند الحاجة ويتزاورون في « المناظر » فكل بيت من طبقة الأوساط كان فيه حجرة بالدور الأول أعدت لاستقبال الزائرين تسمى « المنظرة » ويتبادل في هذه « المناظر » أهل الحارة الزيارات والسمر .

كانت حارتنا تشمل نحو ثلاثين بيتاً ، يغلق عليها في الليل باب ضخم كبير وراءه بواب ، وهذا الباب بقية من العهد القديم ، يحميها من اللصوص ومن ثورات الرعاع وهياج الجنود ، فإذا حدث شيء من ذاك أغلق الباب وحرسه البواب ، فلما استقر الأمن وسادت الطمأنينة استمر فتح الباب واستغنى عن البواب .

وتمثل هذه البيوت طبقات الشعب ، فكان من هذه الثلاثين بيتاً بيت واحد من الطبقة العليا ، ونحو عشرة من الطبقة الوسطى ونحو عشرين من الطبقة الدنيا .

فالغنيّ من الطبقة العليا كان شيخاً معمما ، يدل مظهره على أنه من أصل تركى ، وجهه أبيض مشرب بحمرة ، طويل عريض وقور ذو لحية بيضاء ، مهيب الطلعة ، له عربة بجوادين، يدقان بأرجلهما فتدق معها قلوب أهل الحارة ، هو نائب المحكمة العليا الشرعية وسيد الحارة ، إذا حضر من عمله تأدب أهلها ، فلا يرفع نساء الطبقة الدنيا أصواتهن ، وإذا جلس فى فناء بيته تأدب الداخل والخارج ، وإذا تجرأت امرأة على رفع صوتها أتى خادمه الأسود فأحضرها أمام الشيخ وزجرها زجرة فلم تعد لمثلها ، وعلى ألسنتنا نحن الأطفال الشيخ جاء ، الشيخ خرج . وبيته الواسع الكبير لا يشتمل إلا على سيدة تركية ، وخدم من الجوارى السود اللاتى كن مملوكات وعبدان أسودان رقيقان — فقد كان فى القاهرة أسواق وبيوت لبيع الجوارى البيض والسود ، يذهب من أراد الشراء فيقلّب العبد أو الجارية ويكشف عن جسدهما ليرى إن كان فيهما عيب ، ثم يساوم فى ثمن من أعجبه فيشتريه ويكون ملكا له ، وظل هذا الحال إلى عهد إسماعيل ، فتدخلت

الدول الأورو بية ووضعت معاهدة لإلغاء الرقيق وأعتق كل مالك رقيقه ، ومع ذلك بقى كثير من العبيـد والجوارى فى بيوت أسيادهم للخدمة ونحوها — وكان يشاع فيما بيننا أن الشيخ يملك ذهباً كثيراً ، وأنه يضعه فى خزائن حـديدية وأنه يضع كل جملة من الجنيهات فى صرة ، وأن له يوما فى السـنة يفرّغ فيه هـذا الذهب فى طسوت مملوءة بالماء ثم يغسله بالماء والصابون ثم يعده و يعيده ، وكان بخيلا مع أنه لم يرزق بولد ، فلم يسمع عنه أنه ساعد أحداً من أهل الحارة بشىء . ولما جاوز السبعين ماتت زوجته فتزوج بشابة لعبت بماله وغير ماله ، وكثيراً ما يجتمع فى منظرته أبى و بعض أهل العلم يتدارسون المسائل الفقهية ، وفى يوم المحمل أو الاحتفال بالمولد النبوى يلبس الشيخ « فَرَجية » مقصبة مذهبة ، و يركب بغلة يذهب بها إلى مكان الاحتفال ، وعلى الجملة فكان المستبدّ فى حارتنا كاستبداد أبى فى بيتنا ، واستبداد الحكام فى مصالح الحكومة .

أما الطبقة الوسطى ، فـكانت تتألف من موظفين فى الدواوين ، هـذا كاتب فى ديوان الأوقاف ، وهذا كاتب فى الدفترخانة ، وهذا يعيش من غلة أملاكه وهكذا ، دَخْل كل منهم فى الشهر ما بين سبعة جنيهات واثنى عشر ، يعيشون عيشة وسطاً

لا ترف فيها ولا بؤس ، ويعلمون أولادهم فى الكتاتيب ثم المدارس ، وكان أكبر الأثر من هذه البيوت فى نفسى لبيتين بجوار بيتنا : بيت موظف فى ديوان الأوقاف ديّن لطيف مرح ، قد اتخذ منظرته مجمعاً لأصدقائه من أهل الحارة وغيرهم يسمرون فيها ليلا ، فأحياناً يُحضر مقرئاً جميل الصوت يقرأ القرآن ، وأحياناً يقصون القصص الفكاهية يتعالى معها ضحكهم ، وأحياناً يتبادلون النوادر والنكت ، وكنت أتمكن أحياناً من سماع أحاديثهم فتكون متعة للنفس .

والآخر كان كاتباً صغيراً فى ديوان الأوقاف أيضاً ، ولكنه يهوى الدف والضرب عليه ويجيده ، ويؤلف مع زملائه تختاً يدعى للأفراح والليالى الملاح ، هذا يضرب على العود ، وهذا على القانون وهذا يغنى ، فكان من حين إلى حين يدعو زملاءه إلى إقامة حفلة فى بيته ، وكثيراً ما يكون ذلك ، فيقضون ليالى لطيفة فى أدوار موسيقية وغناء ، كنت أغذى بها نفسى يوم لم يكن راديو ولا فونوغراف — وكان رجل البيت الأول صالحاً ظريفاً لا تفوته صلاة ، وكان رجل البيت الثانى سكيراً لا يكاد يفيق مع أن أباه إمام مسجد الحى .

وبيوت الطبقة الدنيا يسكنها بَنّاء أو مبيِّض أو خياط أو طباخ أو صاحب مقهى صغير أو بائع جوّال على عربة يدفعها بيديه ، وهؤلاء كثيرو الأولاد بؤساء ولا يشعرون ببؤسهم ، يعيشــون أغلب أيامهم على الطعمية والفول المدمس والبيصار والسمك يُشترى مقليا من الدكاكين ، وقليلاً ما يستطيعون أن يطبخوا ، كما أن أولادهم لا يعلَّمون فى كُتّاب ولا مدرسة ، وإنما يتركون ليكبروا فيعملوا عمل آبائهم . نساؤهم قد يجلسن سافرات على باب البيت ، وكثيراً ما تقوم بينهن الخصومات فيتبادلن السباب أشكالاً وألواناً ، ويستعملن فى سبابهن كل أنواع البلاغة من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية ، ويُتناول فيه الآباء والأمهات والأعراض والتعيير بالفقر وبالفجور وفظائع الأمور ، ويطول ذلك ويقصر تبعاً للظروف ، وقد يتحول السباب إلى ضرب ، ويتحول تضارب النساء إلى تضارب الرجال — ولولا الشيخ فى حارتنا لكان من ذلك الشىء الكثير .

ولكن مع اختلاف هذه الطبقات فقد كنا — نحن الأطفال — ديمقراطيين ، لا نقيم كبير وزن لغنى ولا فقر ولا تعلم وجهل ، فكنا نلعب سواسية ونتخاطب لغة واحدة

ليس فيها تكبر ولا ضعة ، وكان أحب أصدقائى إلىّ ابن كاتب فى الدفترخانة وابن صاحب مقهى وابن فقيه كفيف يقرأ فى البيوت كل يوم صباحا .

وكان من أعجب الشخصيات فى حارتنا « الشيخ أحمد الشاعر » رجل بذقن طويل أسود ، يلبس جلبابا أبيض وعمامة ، ويتأبط دائما كتاباً لف فى منديل أحمر ، له صوت أجش ، وظيفته التى يتعيش منها أنه بعد صلاة العشاء يذهب إلى مقهى قريب من الحارة ويصعد كرسيا عاليا يجلس عليه ويتحلق حوله الناس ، ثم يفك المنديل ويُخرج الكتاب وهو قصة عنترة أو « الزير سالم » أو الظاهر بيبرس ويقرأ فيه بصوته العالى ، متحمساً فى موضع التحمس متخاذلاً فى موضع التخاذل ، مغنيا بما يعرض من الشعر فإذا كان فى القصة بَطَلان تحمس فريق لبطل وتحمس فريق لآخر . وقد يرشوه أحد الفريقين ليقف فى نهاية الجلسة على موقف رائع لبطله — وله أجر على ذلك من صاحب المقهى لأنه يكون سبباً لازدحام مقهاه بالزائرين .

ولكن أعجب من هذا « الشيخ أحمد الصبان » لقد كان يبيع الفحم فى دكان على باب الحارة ، وكانت حالته لا بأس

بها ، ثم دهمه الزمن الذى لا يرحم ، فعمى وكسدت تجارته ولم يجد له مرتزقا ، وهجر بيته الكبير وسكن فى حجرة أرضية هو وزوجته يأكلان من الصدقة ، فما هو إلا أن سكنت جسمه العفاريت ، وصار يغيب عن الوجود حيناً ، ثم يتغير صوته العادى ويتكلم بصوت جديد يخبر به عن المغيبات ، وإذا هو يصير الشيخ أحمد الصبان ، بعد أن كان عم أحمد ؛ وإذا هو يشتهر فى الحارة بأنه يعلم الغيب ويخبر بالمستقبل ، وفى قدرته بواسطة التعازيم والأحجبة أن يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى زوجته ، وأن يخبر بالولد المفقود والمال المسروق ؛ ثم ينتقل الخبر من حارتنا إلى ما جاورها إلى ما وراء ذلك . فكان الناس يأتونه من مكان سحيق ليشهدوا عجائب الشيخ أحمد الصبان . واتسع رزقه وصلح حاله ، وانتقل من حجرته الضيقة إلى مسكن فسيح ، وانقسم فيه أهل الحارة قسمين : قليل منهم يقول إنه نصّاب ، وكثيرون يقولون « سبحانه ما أعظم شانه ، يضع سره فى أضعف خلقه ! » .

كانت نسبة المواليد فى الحارة نسبة عكسية مع الطبقات ، فأفقر الطبقات أكثرها عدداً ؛ تلد السيدة ستة أو ثمانية أو عشرة ، والبيت الغنى الوحيد ليس به ولد — وكما كثر عدد المواليد كثر

عدد الوَفيات ، فالحالة الصحية أسوأ ما يكون ، لا عناية بنظافة ماء ولا بنظافة أكل ؛ وهم لا يعرفون طبيباً ، وإنما يمرض المريض فيعالجه كل زائر وزائرة — كل يصف دواء من عند العطار جربه فنجح ، والمريض تحت رحمة القدر . وقد يصاب أحد بالحمى فيزوره كل من أراد ، ويسلم عليه ويجلس بجانبه طويلاً ، ويحدثه طويلاً ، فتكون العدوى أمراً سهلاً ميسوراً ، ولذلك كان كثيراً ما يتخطف الموت أصدقائى من الأطفال من حولى .

لا تعجبَنْ من هالك كيف ثوَى   بل فاعجبنْ من سالم كيف نجا

ومنظر آخر عجيب شاهدته فى صباى ثم انقرض ، ذلك أنَّ فتيان حيِّنا ممن يشتغلون فى الحرف والصنائع قد يتخاصمون مع فتيانٍ أمثالهم من الحىّ الآخر ، كأن يتخاصم حى المنشية مع حى الحسينية ، فيتواعدون على الالتقاء فى جبل المقطم فى يوم معين ، ويجتمعون إذ ذاك فينقسمون إلى معسكرين ، معسكر المنشية ومعسكر الحسينية ، وتقوم الحرب بينهما ، وأدوات الحرب الطوب والحجارة الصغيرة والعصىّ الغليظة . وتشتد المعركة وتسفر عن جرحى ، وأحياناً عن قتلى . وشاهدت هذا المنظر يوماً فرعبت منه ، حتى إذا أمسى المساء وقف القتال ، وتواعدوا على يوم آخر . وطووا صدورهم على الانتقام والأخذ بالثأر ، وتمتد الخصومة وراء

المعسكرين ، فيتربص أهل المنشية لزفة عريس من أهل الحسينية ويفاجئونهم فى أشد أوقات فرحهم ، وينهالون عليهم ضربا ، ويقلبون الفرح غما ، وهكذا دواليك .

وعلى رأس كل مجموعة من الحارات سوق ، فيها كل ما تحتاجه البيوت ، وهو يمثل الوحدة الاقتصادية للأمة . وبجانب السوق كل مرافق الحياة الاجتماعية : مكتب لتعليم الأطفال ، ومسجد لصلاة أهل الحىّ ، وحمّام للرجال أياما ، وللنساء أياما ، ومقهى يقضون فيه أوقات فراغهم ، ويتناولون فيه كيوفهم ، من قهوة وشاى وتنباك ونحو ذلك . وفى الحى مقاهٍ متعددة ، منها ما يناسب الطبقة الدنيا ، ومنها ما يناسب الطبقة الوسطى وهكذا . فقلّ أن يحتاج أهل الحىّ إلى شىء أبعد من حيهم ، ومن أجل هذا كانت دنياى فى صباى هى حارتى وما حولها . وأطول رحلة أرحلها خارج حيّنا كانت يوم تذهب أمى وتأخذنى معها إلى الغورية أو حى الموسكى لشراء الأقمشة ، أو تأخذنى إلى بيت خالى قريباً من باب الخلق ، وهذه كل دنياى .

كانت الحارة وما حولها مدرسة لى ، تعلمت منها اللغة العامية القاهرية الصميمة ، من ألفاظها وأساليبها وأمثالها وزجلها ، وكان حينا — كما قلت — يمثل الحياة القاهرية الخالصة ، فمثلها مثل مراكز

اللغة الفصيحة التى كان يرحل إليها علماء اللغة كعلياقيس وسفلى هوازن ، وتعلمت منها كلّ العادات والتقاليد البلدية ، ورأيت كيف تقام الأفراح عند الطبقة الدنيا وكيف يفرحون ويمرحون وكيف يغنون وما يغنون ، ورأيت الفروق فى كل ذلك بين عادات الطبقة الدنيا والوسطى والعليا ، ورأيت كيف تقوّم لذائذ الحياة وآلامها عند كل طبقة ، ثم رأيت المعاملات الاقتصادية بين أهل الحارة وأهل السوق ، والشعائر الدينية تقام فى المسجد ، والحمامات يستحم فيها الرجال والنساء ، كل ذلك كانت دروساً عملية وتجارب قيمة لا يستهان بها ، فإذا أنا قارنت بين نفسى فى تجاربى هذه التى استفدتها من حارتى وأولادى فى مثل سنى التى أتحدث عنها وقد ربّوا تربية أخرى ، فلا جيران يَعرفون ، ولا بأهل حارة يتصلون ، ولا مثل هذه العلاقات التى ذكرتها يشاهدون ، أدركت الفرق الكبير بين تربيتى وتربيتهم ، وكثرة تجاربى وقلة تجاربهم ، ومعجم لغتى ومعجم لغتهم ، ومعرفتى بصميم شعبى وجهلهم .

(٧)

أما المدرسة الثالثة فكانت الكتّاب ، وقد كان فى ذلك العصر كتاتيب ومدارس ابتدائية وثانوية قليلة ، راقية بعض

الرقى ، ولكن هذه الكتاتيب الراقية كانت بعيدة عن بيتى ، فاختار لى أبى أقرب كتّاب ، يكاد يكون على باب حارتى ، هو حجرة متصلة بالمسجد و بجانبها دورة مياهه ، وأثاث هذه الحجرة حصير كبير بال ، قد انسلت منه بعض عيدانه ، وزير فيه ماء يكاد يسودّ من الوسخ ، عليه غطاء من خشب ، قد ثُبت فى الغطاء حبل طويل ربط فيه كوز ليستقى منه الشارب ، و يتناول الكوز ليشرب منه النظيف والقذر والمريض والصحيح ؛ وصندوق صغير من صناديق الجاز وضعت فيه ألواح ، بعضها صفيح قد صدئ و بعضها خشب قد زال طلاؤه ، كتب عليها بعض آيات القرآن بالحبر الأسود فلا تكاد ترى ، وشيخ قد لبس عمامة وقباء من غير جبة و بيده عصا طويلة ، ومسمار كبير فى الحائط علقت فيه « الفَلَقة » وهى عصا غليظة تزيد قليلاً عن المتر ، ثقب فيها ثقبان ثبت فيهما حبل ، فإذا أراد سيدنا ضرب ولد أدخلت رجلاه فى هذا الحبل ولويت عليهما الخشبة ، فلا تستطيع القدمان حركة ، ونزل عليهما سيدنا بالعصا . ثم عود من الجريد طويل يستطيع سيدنا أن يضرب به أقصى ولد فى الحجرة ، وهذا كل أثاث الكتاب — نذهب إليه صباحاً ، ونجلس على هذا الحصير متربعين متلاصقين ، و يأخذ كلٌّ منا لوحه من الصندوق ، وكان لوحى جديداً ، إذ كنت

مبتدئاً ، وكان لسيدنا عريف يساعده فى كتابة الألواح للأطفال ويقوم مقامه إذا خاب ، كما يساعده فى مدّ رجل الطفل فى الفلقة عند الحاجة . ويقرأ كل تلميذ فى لوحه حسب تعلّمه ، هذا يقرأ ألف باء وهذا سورة الفاتحة وهذا سورة تبارك وهكذا . فإذا فرغنا من قراءة الدرس الجديد استمع لنا الماضى وهو ما حفظناه من القرآن فى الدروس الماضية ، فإذا جاء وقت الغداء أخذ سيدنا من كل ولد قرشاً أو نصف قرش أو مليما حسب مقدرته ، وبعث سيدنا العريف فأحضر له ماجورين أخضرين : فى أحدهما فول نابت ومرقة وفى الآخر مخلل ومرقة ، والتف التلاميذ حوله بعد أن أحضروا خبزهم الذى جاءوا به من بيوتهم ، وأخذت أيديهم تغوص باللقمة فى مرقة الفول أحياناً وفى مرقة المخلل أحيانا ، ولا بأس أن يكون فى الأولاد مريض وصحيح وقذر ونظيف وملوث وغير ملوث ، فعلى الله الاتكال والبركة تمنع من العدوى . وإذا قرأنا وجب أن نهتز ووجب أن نصيح ، فمن لم يهتز أو لم يصح لم يشعر إلا والعصا تنزل عليه فيصرخ ويصيح بالقراءة والبكاء معاً ، ونبقى على هذه الحال إلى قرب العصر فنخرج إلى بيوتنا ؛ ومن حين لآخر يمر أبو الطفل على سيدنا فيسأله عن ابنه ويطلب منه أن « ينفّض له الفروة » ، وهذا اصطلاح بين

الآباء وفقهاء الكتاب أن يشتدوا على الطفل و يضربوه ، فلا تعجب بعد ذلك إذا وجدت أرواحاً ميتة ونفوساً كسيرة ، ومن أجل هذا كان أكره شيء علينا الكتّاب واسم الكتّاب وسيدنا ؛ بل أذكر مرة أنى كنت فى البيت آكل مع أمى وأخوتى ، فما أشعر إلا وقد انتفضتُ من غير وعى ، لتوهمى أن عصا سيدنا نزلت علىَّ لأنى لم أهتز . وكان أكره ما أكره يوم السبت صباحا عند الذهاب إلى الكتاب ، وأحب ما أحب يوم الخميس ظهراً لأنه سيلحقه يوم الجمعة وفيه لا كتّاب .

وختمت فى هذا الكتاب ألف باء على طريقة عقيمة جداً ، فأول درس كان ألف (ألف لام فاء) وهو درس حفظته ولم أفهمه إلا وأنا فى سن العشرين ، إذ كان معنى ذلك أن كلمة الألف مركبة من ألف ولام وفاء ، من أجل ذلك كرهت هذا الكتاب وهذا التعليم وهذا سيدنا ، وتنقلت فى أربعة كتاتيب من هذا القبيل كلها على هذه الصورة ، لا تختلف إلا فى أن الحجرة واسعة أو ضيقة ، وأن سيدنا لين أو شديد ، وأنه أعمى العينين أو مفتوح العينين ، أما أسلوب التعليم فواحد فى الجميع . وذهبت إلى الكتاب الثانى وكان سيدنا فيه رجلا غريب الأطوار ، يعقل حيناً ويجن حيناً ، ويشتد ويلين ، ويضحك ويبكى ، وإذا سار

فى الشارع جرى فضحك من جريه الصغار ، لا أذكر ماذا فعلت فنادى ولدين قويين وأدخلا رجلى فى الفلقة وأمسك بعصا من جريد النخل وأخذ يهوى بها على قدمىّ بكل قوته حتى شق قدمى شقًّا طويلاً وتفجر الدم منها ، ثم أسلمنى لهذين الولدين يحملاننى إلى بيتى ، وكان هذا آخر العهد بهذا الكتّاب .

على كل حال لبثت فى هذه الكتاتيب الأربعة نحو خمس سنوات حفظت فيها القرآن وتعلمت القراءة والكتابة ، وكان لى من حجرة أبى فى البيت يوم الجمعة وفى أوقات الفراغ كتّاب آخر ، سيدنا فيه هو أبى ، أحفظ فيه جديداً وأسمّع فيه قديماً .

فأين ذلك مما نحن فيه الآن ، لأطفال فى مثل طبقتى ! إنهم يذهبون إلى رياض الأطفال فتعلمهم سيدات مهذبات أو آنسات ظريفات ، يعلمن على أحدث طراز من البداجوچيا ، ويتدرجن بهم من اللعب إلى القراءة ، و يتحايلن على تشويق الطفل إلى الألف والباء ، ويسرقن التعليم عن طريق الصور أو القصص أو نحو ذلك ، و يقلبن ما كنا فيه من عيش جاف إلى حلوى ، وأكثر أوقات النهار مرح ولعب ، ودروس كأنها لعب ، وأناشيد ظريفة وموسيقى لطيفة ، وطبيب يزور المدرسة كل يوم ، ومريض لا يحضر إلى المدرسة إلا بعد أن يأتى بشهادة أنه صحيح ، والعلم

يعطى كما يعطى كوب من الشربات ، و بسكويت ولبن وشاى بدل الفول النابت والمخلل . وضرب على « البيان » بدل الضرب على الأبدان ، ونحو ذلك من ضروب النعيم . ولكن على كل حال أخشى أن نكون قد أفرطنا أيامى فى الخشونة وأفرطنا أيام أبنائى فى النعومة ، والحياة ليست جدًّا محضاً ولا هزلا محضاً ولا نعيما صرفا ولا شقاءً صرفا ، وخير أنواع التعليم ما صور صنوف الحياة .

ولم يكن لى سلوى فى هذا الدَّور من الحياة إلا لعبى فى الحارة مع زملائى بعض الوقت ، فنلعب « البلى » وكرة اليد ونتسابق فى الجرى ونحو ذلك ، ثم أحاديث جدتى فى البيت وقراءة أخى علينا بعض كتب القصص ، ثم لا شىء غير ذلك .

(٨)

كل شىء حولى كان كفيلا أن يميت الذوق و يبلّد الحس ويقضى على الشعور بالجمال ؛ فحارتنا — إذا تجاوزنا بيت الشيخ — مُتربة ، لا يمسها الماء إلا إذا نزل مطر أحالها بِركاً ، و إلا ما يفعله السكان — من حين إلى آخر — إذ يفتحون شبابيكهم و يقذفون منها بما تجمّعَ من ماء غسل الثياب أو غسل الصحون ، وأحيانا

لا تتحرى السيدة ما تفعل فينزل هذا الماء القذر على بعض المارة فيكون النزاع ويكون السباب . وشوارعنا قذرة لا يعنى فيها بكنس ولا رش ، وإذا كنست أو رشت فالمارة خليقون أن يفسدوا كل شيء فى لحظة ، فورق يرمى حيثما اتفق ، وقشور ومصاصات قصب وروث بهائم ونحو ذلك ، فإذا الشوارع بعد ساعة مَزْبلة تامة ؛ وبيتنا لم يكن يعنى بتربية الذوق أى عناية ، فليس فيه لوحة جميلة ولا صورة فنية ، ولا أثاث منسق جميل ، ولا زَهرية ولا أزهار ، وكل ما أذكره من هذا القبيل أن أبى كان يشترى فى موسم النرجس شيئا من أزهاره ويضعه فى كوب من الماء على الشباك ، ويشمه من حين لآخر ، ولست أدرى لماذا أعجب بالنرجس وحده وموسمه قصير ، وليس أجمل الزهور ؟ ولماذا لم يُعجب بالورد والياسمين وهى أجمل وأرخص وموسمها أطول ؟

ولكن ماذا تعمل هذه اللفتة القصيرة إلى الجمال بجانب مايغمرنا من قبح ، فى الحارة والشارع والكتاتيب ومافيها من منظر الحصير ومنظر سيدنا ومنظر الزير والمواجير ؟ لقد كانت كل هذه تكفى لإماتة الشعور بكل جمال . والشعور بالجمال أكبر نعمة ، وتربية الذوق خير ما يقدم إلى الناشيء حتى من ناحية تقويم أخلاقه .

على كل حال ، أحمد لأبى أن أخرجنى من هـذه الـكتاتيب الـكريهة ، وأدخلنى مدرسة ابتدائية هى مدرسة « أم عباس » أو كما تسمى رسمياً « والدة عباس باشا الأول » أو كما تسمى اليوم مدرســة بنبا قادن . كانت مدرسة نموذجية ، بنيت على أفخم طراز وأجمله ؛ أبهاء فسيحة فرشت أرضها بالمرمر ، وحليت سقوفها بالنقوش المذهبة ، وفى أعلى المدرسة من الخارج إطار كتبت عليه آيات قرآنية كتبها أشهر الخطاطين بأحسن خط ، وموهت بالذهب ؛ فكان هذا الجمال الجديد عزاء لذلك القبح القديم .

ولبست بذلة بدل الجلباب ، ولبست طربوشاً بدل الطاقية وأحسست علواً فى قدرى ، ورفعة فى منزلتى ، وخالطت تلاميذ من الطبقة الوسطى أو العليـا لا نسبة بينهم فى نظافتهم وجمال شكلهم و بين أبناء الـكتاتيب وأبناء الحارة .

كانت المدرسة يصرف عليها من أوقاف رصدتها عليها والدة عباس ؛ فتلاميذها بالمجان ، ولها بعض التقاليد الخاصة بها ، فيُجمع بعض التلاميذ مرتين فى السنة ، و يذهبون إلى قصر الوالدة لتوزع عليهم بذلتان ، بذلة للشتاء و بذلة للصيف ، ثم يخرجون إلى الشارع بملابسهم الجديدة إعلاناً لما تسدى الواقفة من خير ، وفى المواسم

يذهبون إلى مدفن الواقفة ، ويقرءون على روحها الفاتحة ، وما تيسر من الدعوات ، ثم يوزع عليهم الفطير والحلوى .

وشهدت فى هذه المدرسة ثلاثة تطورات للتعليم ، لعلها كانت هى تطورات التعليم فى مصر . فقد كانت المدرسة لتعليم القرآن وشىء من الحساب واللغة العربية والتركية ، ثم انكمش هذا النوع من التعليم فأصبح فصلا واحداً بعد أن كان يعم المدرسة كلها وسمّى قسم الحُفّاظ . وأنشئت بجانبه فصول على النمط الحديث . تعلم فيها الجغرافيا والتاريخ والحساب مع اللغة الفرنسية ، وقد نمت هذه الفصول حتى اكتسحت قسم الحفاظ . وشهدتُ بالمدرسة قبل خروجى منها منظراً جديداً ، فقد رأيتهم يجمعون الطلبة الضعاف فى اللغة الفرنسية لينشئوا بهم فصولا لتعليم اللغة الإنجليزية ، ثم اكتسحت اللغة الإنجليزية اللغة الفرنسية .

دخلت أولًا قسم الحفاظ و بعد سنة تحولت إلى قسم اللغة الفرنسية فى السنة الثانية .

وقد وضع لى أبى برنامجاً مرهقاً لا أدرى كيف احتملته . كان يوقظنى فى الفجر فأصلى معه ، ثم أقرأ جزءاً من القرآن وأحفظ متناً من المتون الأزهرية كألفية ابن مالك فى النحو ، حتى إذا طلعت الشمس أفطرت ولبست ملابسى وذهبت إلى المدرسة أحضر

دروسها إلى الظهر . وفى فسحة الظهر أتغدى فى المدرسة على عجل وأذهب إلى كتّاب قريب من المدرسة . وقد اتفق أبى مع فقيه الكتّاب أن يسمع منى جزءاً من القرآن حتى إذا ما أتممته سمعت جرس المدرسة فذهبت إلى الفصل . ثم أحضر حصص المدرسة بعد الظهر ، فإذا دق الجرس النهائى خرجت إلى البيت وخلعت ملابسى المدرسية ولبست جلبابا وذهبت إلى المسجد الذى أبى إمامه ، فمكثت معه من قُبيل المغرب حتى يصلى العشاء أستمع لدرسه الذى يلقيه فى المسجد بين المغرب والعشاء ، ثم أعود معه إلى البيت ، وفى أثناء الطريق يحفظنى بيتا من الشعر أو بيتين ثم يسألنى إعرابه فأعربه ، ويصحح لى خطئى ، كل ذلك ونحن سائران فى الطريق ، ثم أتعشى وأنام .

وإذا كان علىّ واجب من المدرسة أتممته على عجل قبل أن أذهب إلى أبى فى المسجد ، وليس لى من الراحة إلا عصر يوم الخميس ويوم الجمعة . على أنى كثيراً ما أُحرم أيضا من صبح يوم الجمعة لعمل واجبى المدرسى ، أو القراءة مع أبى .

وهو برنامج غريب متناقض الاتجاه ، سببه أن أبى كان حائراً فى مستقبلى ، أيوجهنى إلى الجهة الدينية فيُعدنى للأزهر ، أو يوجهنى الوجهة المدنية فيعلمنى فى المدرسة الابتدائية والثانوية .

وكنت أدرك حيرته من كثرة استشارته لمن يتوسم فيه حسن الرأى ، وهم لا ينقذونه من حيرته ؛ فمنهم من يشير بهذا ، ومنهم من يشير بذاك ، فأمسكَ العصا من وسطها ، فكان يعدنى للأزهر بحفظ القرآن والمتون ، و يعدنى للمدارس المدنية بدراستى فى المدرسة . وهذا أسوأ حل ، ولكن جزاه الله خيراً على تعبه المضنى فى التفكير فى مستقبلى ، وغفر الله له ما أرهقنى به فى دراستى .

كان هذا الضغط الشديد مثاراً لثورتى أحياناً ، فربما كنت أهرب من فقيه المكتب ظهراً ، أو من الذهاب إلى أبى عصراً ، أو أدّعى المرض وليس بى مرض ، ولكن إذا اكتشف هذا كان جزاؤه الضرب الشديد ، فتخمد ثورتى ، ولقد جربت أمى حظها ، فكانت تتدخل فى الأمر حين يضربنى ، ولكنها رأت أنها إن تدخلت حين هذا الغضب الشديد والضرب الشديد ، فقد يتحولان إليها ، فكان إذا حدث هذا فيما بعد اكتفت بالصراخ والعويل من بعيد .

استمررت فى هذه المدرسة ، وكنت متفوقاً فى اللغة العربية بفضل ما آخذه من الدروس على والدى ، وفوق المتوسط فى الحساب ، وضعيفا فى اللغة الفرنسية ، لأن أبى لم يترك لى الزمن الكافى لمذاكرتها .

تعلمت من المدرسة دروسها ، وتعلمت من التجارب أكثر من دروسها ، فلعبى مع التلاميذ ، ومبادلتى إياهم العواطف ، ورؤيتى إياهم يتصرفون فى الأمور تصرفاً مختلفاً حسب مزاجهم وعقليتهم ، يغضبون أو يحلمون ، ويثورون أو يهدءون ، ويظلمون أو يعدلون — كل هذه كانت دروسا فى الحياة أكبر أثراً من دروس العلم ، بل المدرسون أنفسهم كانوا معرضاً لطيفاً ، فيه الجمال والقبح ، والرعونة والسكينة ، وما شئت من ألوان الحياة — كان مدرس اللغة الفرنسية بطىء الحركة ، ثقيل اللسان ، معوجه ، جاحظ العينين أحمرهما من أثر الخُمار ، لا يكترث لدرسه ، ولا لتلاميذه ، سواء عنده ذاكروا أو لم يذاكروا ، تقدموا أو لم يتقدموا . ومدرس الحساب كفء فى مادته ، مهتم بطلبته ، يبذل أقصى جهده فى درسه ، ولكنه غريب الأطوار ، يهيج أحياناً ويشتد غضبه فيضرب ، وقد يشتد ضربه فيكسر أو يجرح ، ويكون فى منتهى اللطف والظرف أحياناً ، فيستغرق فى الضحك لأتفه سبب ، وقد يحدثنا عن دخائل بيته ، وأسرار نفسه مما لم تجر العادة بذكره . ومدرس اللغة العربية من الصنف الذى نسميه « ابن بلد » يحوّل كل شىء إلى نكتة ،

ونكته رائعة جميلة مؤدبة ، لا يؤذى ، ولا يضرب ، ولكنه ينتقم أحياناً من التلميذ بالسخرية والنكتة اللاذعة ؛ ومدرس الدين رجل سورى ، يلبس لباس الشاميين ، جبة وقباء ، وطربوش تركى ، معمم عمة سورية ، طويل عريض بدين ، ثقيل الروح ، يستثقله المدرسون والطلبة على السواء ، وبعض المدرسين يحرضوننا على معاكسته ، فكنا نبذل كل جهدنا فى حصته لاستخراج أفانين العبث به ، ونفرح لدرسه لأنه مثار السخرية والضحك . ومدرس الخط رجل تركى ، جميل الوجه ، بهيج الطلعة ، له لحية بيضاء ، تستخرج من ناظرها الإكبار والإجلال ، يلبس اللباس التركى الشرقى ، ويتكلم العربية بلهجة تركية ، هادئ الطبع ، بطئ الحركة ، خافت الصوت ، لا يضرب ولا يؤذى ولا يسب ، وهو مع ذلك محترم ، لا تسمع فى حصته صوتاً . وناظر المدرسة رجل طيب ولكن لا يفقه شيئاً فى أساليب التربية ، ضبط مرة تلميذاً يسرق كراساً ، فأخذه وعلّق فى رقبته لوحة من الورق المقوّى ، كتب عليها بخط الثلث الكبير « هذا لص » حتى إذا وقف الطلبة فى « طابور » العصر أمسكه الناظر بيده ، ومرّ به على التلاميذ ليؤدبه ، والحق أنه لم يؤدبه ولكن قتله ، فلم أر هذا التلميذ يعود إلى المدرسة بعدُ . وأغلب

الظن أنه انقطع عن المدارس بتاتاً .

وهكذا كانت المدرسة بتلاميذها ومدرسيها وناظرها تمثل رواية مملوءة بالحياة والحركة والمناظر ، تكون أحياناً مأساة ، وأحياناً ملهاة .

كنت فى هذه السن متديناً شديد التدين . وكان بالمدرسة مسجد صغير أعد إعداداً حسناً ، فكنت أصلى فيه الصلوات لأوقاتها . وكنت أقوم الليل وأتهجد وأحب الله وأخشاه ، وتنحدر الدموع من عينى أحياناً فى ابتهالاتى ، وأسجد فأطيل السجود والدعاء ، وأحفظ أدعية من الابتهالات والتوسلات ، ومن شدة فكرى فى الله رأيته فى منامى مرة ، على شكل نور يغمر الغرفة ويخاطبنى قائلاً : اطلب ما أدلك به على قدرتى ، فطلبت أن يعمل من قطعة حديد سكيناً ، ومن قطعة خشب شباكا ، ففعل . فآمنت بقدرته . وحكيت المنام لأهلى ، ففرحوا به فرحا عظيما ، وزادوا فى محبتى .

واستمررت فى دراستى فى المدرسة ، فانتقلت من السنة الثانية إلى الثالثة ، ومن الثالثة إلى الرابعة ، وأبى لا يهدأ من التفكير ، أيتركنى أكمل دراستى ، أم يخرجنى من المدرسة ويدخلنى الأزهر ، ويسألنى فأجيبه : «أحب أن أبقى فى المدرسة » ،

ويسأل من يعرفه من موظفى الحكومة فيوصونه ببقائى فى المدرسة ، ويسأل من يعرفه من مشايخ الأزهر فيوصونه بإدخالى الأزهر ؛ ويتردد ويتردد ، ثم يستخير الله ويخرجنى من المدرسة إلى الأزهر .

(٩)

ها أنا ذا فى سن الرابعة عشرة تقريباً ، يلبسنى أبى القباء والجبة والعمة والمركوب بدل البذلة والطربوش والجزمة . ويكون منظرى غريباً على من رآنى فى الحارة أو الشارع ، فقد عهدوا أن العمامة لا يلبسها إلا الشاب الكبير أو الشيخ الوقور ، أما الصغير مثلى فإنما يلبس طربوشاً أو طاقية ، ولذلك كانوا كثيراً ما يتضاحكون علىّ إذا رأونى بالعمة ، وكثيراً ما أرى الأولاد فى الشارع يتغامزون علىّ فأحس ضيقاً شديداً وخجلاً بالغاً وأتلمس الحارات الخالية من الناس لأمرّ بها ؛ والمصيبة الكبرى كانت حين يرانى من كان معى فى المدرسة ، فقد كان يظن أنى مسخت مسخاً ، وتبديت بعد الحضارة ، وكأن الذى كان يربط بينى وبينهم هو وحدة لبسى ولبسهم ، لا طفولتى وطفولتهم ، ولا زمالتى وزمالتهم . فنفروا منى مع حنينى إليهم ، وسرعان ما انقطعت الصلة بينى وبينهم ، فانقبض صدرى لأنى فقدت أصدقائى القدامى

ولم أستعض عنهم أصدقاء جدداً ، فكنت كالفرع قطع من شجرته أو الغريب فى بلد غير بلدته . وتضرعت إلى أبى أن يعيدنى إلى مدرستى فلم يسمع ، وأن يعفينى من العمة فلم يقبل ، ومما آلمنى أنى أحسست العمامة تقيدنى فلا أستطيع أن أجرى كما يجرى الأطفال ولا أمرح كما يمرح الفتيان ، فشخت قبل الأوان ، والطفل إذا تشايخ كالشيخ إذا تصابى . كلا المنظرين ثقيل بغيض ، كمن يضحك فى مأتم أو يبكى فى عرس .

ولم يكن أمامى إلا أن أحتمل على مضض .

هذا أبى يأخذنى معه صباح يوم فأسير فى شوارع لا عهد لى بها ، وأمشى فأطيل المشى ، لا كما كان العهد يوم كنت فى المدرسة ، إذ كانت بالقرب من بيتنا . وأخيراً أصل إلى بناء كبير ، فيقول لى أبى هذا هو الأزهر ، ولا أدرى كيف كان وقع هذه الكلمة على نفسى ، فالأزهر شىء غامض لا أعلم كنهه ولا نظامه ولا منهجه ولا مستقبله ؛ أقدم عليه فى هيبة وغموض ، وأسمع عند الباب صوتاً غريباً ، دويا كدوىّ النحل يضرب السمع ولا تستوضح له لفظاً ، فتأخذنى الرهبة مما أسمع ، وأرى أبى يخلع نعليه عند الباب ويطويهما ويمسكهما بيده فأعمل مثل عمله ، وأسير بجانبه قليلاً فى ممشى قصير ، أدخل منه على إيوان كبير ، لا ترى العين

آخره ، فرش كله بالحصير ، وامتدت أعمدته صفوفاً ، كل عمود وضع بجانبه كرسى عال مجنَّح قد شـدَّ إلى العمود بسلسلة من حديد ، وجلس على كل كرسى شيخ معمم كأبى ، بيده ملازم صفراء من كتاب ، وأمامه حلقة مفرغة أحياناً وغير مفرغة أحياناً ، يلبس أكثرهم قباء أبيض أو جلبابا أبيض عليه عباءة سوداء ، وأمامه أو بجانبه مركوبه ، ويمسك بيده ملزمة من كتاب كما يمسك الشيخ ، والشيخ يقرأ ويفسر والطلبة ينصتون أو يجادلون ، وبين العمود والعمود بعض الطلبة يجتمعون فيأكلون أو يذاكرون .

تخطيت هذه الجموع فى غرابة ، ونظرت إليها فى دهشة ، وأحياناً أرى فى بعض الأركان كُتّاباً كـكتابى القديم ، فأفهم أن الأزهر امتداد للـكُتّاب لا امتداد للمدرسة ، ثم نخرج من هذا الإيوان إلى فناء الأزهر أو صحنه كما يسمونه ، فأراه سماوياً غير مسقوف ، ومبلطاً غير مفروش ، وهنا وهناك فرشت ملاءة بيضاء أوعباءة سوداء صفف عليها خبز ريفى وعرّض فى الشمس ليجف ، وسألت أبى فقال إنه بعض زاد المجاورين أحضروه معهم من ريفهم أوأرسله إليهم آباؤهم ، فهم يشمّسونه ثم يختزنونه فى بيوتهم .
هذا هو كل الأزهر كما رأيته لأول مرة .

وفهمت من هذا أنى سأكون أحدهؤلاء المتحلقين ، وسأجلس

على الحصير كما يجلسون ، وأسمع إلى هذا الشيخ كما يسمعون ، وآكل في ركن من أركانه كما يأكلون ، وقارنت بين حصير الأزهر ومقاعد المدرسة ، ومدرس الأزهر ومدرس المدرسة ، وفناء الأزهر حيث يشمس الخبز وفناء المدرسة حيث نلعب ونمرح ، فكانت مقارنة حزينة ، وأُخذت إلى رواق من أروقة الأزهر ، وتقدمنا إلى شيخ أخذ منا طلب الالتحاق وامتحنني في القرآن فأحسنت الإجابة فقيدني طالباً ، وخرجنا من باب آخر علمت بعد أنه يسمى « باب المزيّنين » كما أن الباب الذى دخلت منه يسمى باب الصعايدة ، وسمى باب المزينين لأن على رأسه حوانيت حلاقين لمجاورى الأزهر وشيوخهم ، ورأيت على هذا الباب طائفة من الطلبة — من مثل الذين رأيتهم يتحلقون حول الشيخ — وعلى يدهم أرغفة من الخبز يعرضونها للبيع ، فسألت أبي عن هذا . فقال : إن طلبة الأزهر إذا تقدموا فى العلم أعطى لكل طالب أرغفة ثلاثة أو أربعة أو أكثر كل يوم ، وقد يزيد هذا عن حاجتهم فيبيعونه كله أو بعضه ليشتروا بما حصلوا من الثمن إداماً لهم ، وكل عالم من علماء الأزهر له كل يوم عشرة أرغفة أو أكثر ، وإذا تقدمْتَ فى العلم كان لك مثل هذا ، ولكنك لا تبيعه ولا تقف مثل هذا الموقف إن شاء الله .

وعدت إلى بيتى والهم يملأ قلبى ، ولكن الزمن بلسم الهموم ، فقد أخذ يقطع صلتى بالمدرسة و بأصدقائى فيها ، و ينسينى ذكرياتى الماضية ، و يشغل قلبى بالحياة الحاضرة ، و يؤلف بينى و بين البيئة الجديدة .

بعد أن يقيد الطالب فى دفتر الأزهر يترك وشأنه ، فهو يختار العلوم التى يدرسُها ، والكتب التى يقرؤها ، والمدرسين الذين يدرّسونها ، فإذا لم يرزق بمرشد يرشده غرق فى هذا البحر الذى لا ساحل له ، وليس يعرف أحد أغاب أم حضر ، تقدم فى العلم أم تأخر ، وليس يُمتحن آخر العام فيما درس ، ولا يسأله أحد ما ذا صنع ، فإن احتاج الطالب فى شأن من الشئون أن يأخذ شهادة بأنه حضر الكتب الفلانية على المشايخ الفلانية فما عليه إلا أن يكتب الورقة كما يشاء وبالكتب التى يشاء و بالمدرسين الذين يشاء ، ثم يمر عليهم فيوقعون عليها فى سهولة و يسر ، ولو كانت هذه أول نظرة من المدرسين للطالب ، ولو كانت سنه لا تتفق وهذه الكتب العويصة التى يستخرج الشهادة بسماعها ، فأى ضرر فى ذلك « وبارك الله فيمن نفع » .

وضع لى أبى برنامجاً أن أحضر درساً فى الفقه الحنفى صباحاً — و إنما اختار فقه الحنفية لأنه هو الفقه الذى يُعِد للقضاء ، إذ يشترط

فى القاضى الشرعى أن يكون على مذهب الإمام أبى حنيفة — وأن أجوّد القرآن على شيخ ضحًى ، وأن أحضر درساً فى النحو ظهراً ، وأن أحضر درساً فى العلوم التى كانت تسمى العلوم العصرية — وهى الجغرافيا والحساب — عصراً ، وبذا ينتهى اليوم ، ولم تكن أوقات الدروس كما عهدتها فى المدرسة تؤقت بساعات النهار ، إنما تؤقت بالصلوات ، فدرس النحو عقب صلاة الظهر ، ودرس الجغرافيا والحساب عقب صلاة العصر ، ودرس التفسير والحديث عقب صلاة الفجر ، ودرس الفقه عند طلوع الشمس ؛ وهناك دروس إضافية كالتى كان يلقيها الشيخ محمد عبده فى البلاغة أو التفسير عقب صلاة المغرب . على كل حال بدأت أسير على هذا المنهج ، أصحو عند أذان الفجر مهما كان الشتاء قارساً ، وأصلى مع أبى ، وألبس ملابسى ، وأخرج من بيتى فى الظلام ، والدنيا نائمة والأصوات هادئة ، إلا صوت الديك يؤذن ، أو صوت الكلب ينبح ، وأسير طويلاً من بيتى إلى الأزهر ، فلم يكن ترام ولا سيارات عامة ، ولو كانت ما أسعفتنى فى هذا الوقت المبكر ، والمسافة بين بيتنا والأزهر نحو نصف ساعة على الأقل ، وأحسن ما كان فى الطريق باعة الفطور ، فإن كان اليومُ فقيراً اكتفيت بطبق من « البليلة » يجلس بائعها على قارعة الطريق وأمامه طست كبير

ملىء بالذرة المغلية الناضجة ، ووضع على نار هادئة حتى يبقى ساخناً أبداً ، و بجانبه ماعون كبير ملىء سكراً ناعماً ، أشترى منه بربع قرش فيملأ لى طبقاً من الطست و يرش عليه من السكر ، فآكله وأنا واقف وأمسح فمى بالمنديل وأحمد الله وأستمر فى السير ، و إن كان اليوم غنياً عطفت على دكان للفطير فأطلب من البائع فطيراً بقرش ، فيقطع قطعة من العجين مكورة ، و يدحوها فى لمح البصر ، و يضعها فى صحن و يأخذ بيده قليلاً من السمن يرشه عليها ، و يُدخل الصحن فى الفرن ، و بعد دقيقتين أو ثلاث يخرجها ناضجة ناضرة و يضع عليها السكر ، وتقدم إلىّ على مائدة متواضعة لا بالنظيفة ولا بالقذرة ، فآكلها فى لذة ونهم ، فإذا فرغت منها تقدمت إلى الأمام خطوة أو خطوتين داخل الدكان فأرى مقطفاً صغيراً ملىء بالنخالة ، فأفرك يدى بها وآخذ منها فأدعك فمى وأحمد الله أكثر مما حمدته على البليلة . و إن كان يوماً وسطاً لا بالغنى ولا بالفقير عطفت على رجل بالقرب من الأزهر ، أبيض الوجه فى حمرة ، ضخم الجسم يلبس جلباباً أزرق ، وعلى رأسه عمة حمراء ، وأمامه قفص عال مستدير ، عليه صينية كبيرة من البسبوسة ، قد أفرغ من وسطها مربع ثم ملىء سمناً ، فأعطيه نصف قرش و يعطينى مربعاً من البسبوسة بعد أن يقطر عليه شيئاً من السمن ، و إذا أراد أن يكرمنى اختار

لى قطعة فى وسطها لوزة مقشورة .

وأصل إلى مسجد بالقرب من الأزهر قبل طلوع الشمس ، أنتظر الشيخ حتى يحضر ، وكانت المساجد حول الأزهر تلقى فيها الدروس كالأزهر ، ويختارها العلماء الذين يحبون الهدوء والاستقلال .

جاء الشيخ وجلس على كرسيه وجلسنا أمامه ، وكان شيخاً وقوراً أنيقاً فى ملبسه ، يشع الصلاح من وجهه ، جميلَ الوجه ذا لحية سوداء ، وكان قاضياً شرعياً .

وبدأ يقرأ الدرس بعد أن بسمل وحمدل ودعا بقوله : « اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، وأنت إذا شئت جعلت الصعب سهلاً » ، وكان الكتاب الذى فى يده وفى يدنا شرح الطائى على الكنز ، وموضوع الدرس الوضوء — قرأ المتن والشرح ففهمتهما ولكنه سبَح بعد ذلك فى تعليقات واعتراضات على العبارة وإجابات على الاعتراضات لم أفهم منها شيئاً ، وبعد أن أحضرت كل ذهنى ووجهت إليه كل انتباهى لم أفهم أيضاً ، فشرد ذهنى وأخذت أفكر وأستعيد ذكرى المدرسة التى كنت فيها ودروسى التى كنت أفهمها وأتفوق فيها ، وأصدقائى الذين كنت أزاملهم فى الفصل ، وهؤلاء الطلبة الذين أمامى وليس لى بهم صلة ، وأسْبح

وأسبح فى الخيال ، ثم يعود ذهنى إلى ما يلقيه الشيخ ، فأجده فى نفس الجملة وفى نفس الاعتراضات والإجابات ، ويسأل بعض الطلبة أسئلة فلا أفهم ما يسألون ، ويجيب الشيخ فلا أفهم ما يجيب . واستمر الحال على هذا المنوال ساعتين أو أكثر من غير أن ينتقل الشيخ من هذه الجملة . وسررت عند ما قال الشيخ « والله أعلم » إيذاناً بأن الدرس قد انتهى ، وقمت وقام الطلبة يحتاطون بالشيخ ، ويقبّلون يده فلم أسلم ولم أقبل ، وخرجت من هـذا المسجد إلى الأزهر نفسه ، وقد اعتاد الطلبة بعد درس الفقه أن يفطروا ، وينقلب إذ ذاك إيوان الأزهر وصحنه وأروقته إلى موائد منتثرة ، حلِّقت حولها حلقات من ثلاثة طلبة أو أكثر ، وعمادهم فى فطورهم الفول المدمس أو النابت والطعمية والسلطة ، يضعونها كلها على حصير الأزهر ، ويتهافتون على أكلها ، فإذا فرغوا تركوا بقايا أكلهم من فتات أو ورق ، حتى يأتى خدمة المسجد فيكنسوها ، وكنت فى كثير من الأوقات أفضـل أن أفطر بقطعة من الجبن وقطعة من الحلاوة الطحينية — ثم أذهب إلى حائط من حوائط الأزهر أجد بجانبه شيخاً طويلاً ضعيف النظر مصفر الوجه ذا لحية بيضاء ، اتفق أبى معه على أن يقرئنى القرآن مجوَّداً ، فأقرأ ما تيسر من القرآن على ترتيبه فى المصحف ، وهو ينتقد ما أقرأ وينبهنى

إلى مخارج الحروف ، ومقياس الغنـة والمدة ، ويأمرنى بإعادة ما قرأت ، وفى كل مرة يصلح لى أخطائى حتى يستقيم لسانى حسب أصول القراءة ، ولا أكاد أنتهى من قراءة جزء صغير من القرآن حتى يعرق جبينى من شدة ما ألاقى ، وحولى طلبة ينتظرون دورهم ، منهم من يقرأ بالسـبعة ، ومنهم من يقرأ بالأربع عشرة . ثمَّ أنفلت من هذا الشيخ لأعدَّ درس النحو وكانت العادة فى الأزهر أن يُعد الطالب درسه قبل أن يَلقى أستاذه ، فيقرؤه فى الكتاب ويتفهمه ويعرف ما فهم وما لم يفهم وما وضح وما غمض ليتحرى موضع الغموض حين يفسر الأستاذ ، وأصلّى الظهر ، وأذهب إلى مكانى من درس النحو ، وكان موقفى فى درس النحو أسوأ من موقفى فى درس الفقه ، مع أن درس الفقه جديد علىّ ودرس النحو ليس بجديد ، فقد درسته فى المدرسة ودرسته مع أبى ، ولكن الشيخ كان متدفقاً كثير الكلام طلق اللسان كثير الاعتراضات كثير الإجابات ، فلم أفهم مما قال شيئاً ، وخلص الدرس فاسترحت من هـذا العناء قليلاً ، وذهبت بعد ذلك إلى مسجد المؤيد ، حيث تلقى دروس الجغرافيا والحساب . ففهمت ما يقولون وشاركت فى الأسئلة ، وفهمت الأجوبة ، إذ كان مدرسو هذه المواد العصرية منتدبين من المدارس الأميرية ،

يتكلمون فى دروسهم كما كان يتكلم المدرسون فى مدرستى .

وزاد الأمر سوءًا أن ليس بينى و بين الطلبة صلة ، ولا بينى و بين الأساتذة رابطة ، ولا أتلقى منهم سؤالاً إن كنت فهمت أو لم أفهم ، ولا أكلَّف واجباً أعمله فى بيتى .

وكان هذا يوماً نموذجياً جرت الأيام بعده على نمطه ، لم أتقدم فى الفهم ولم أستسغ الأسلوب . وفكرت طويلاً فى عودتى إلى المدرسة فلم أستطع ، وفى طريقة للهرب فلم أوفق ؛ ولاحت منى مرة نظرة إلى فتيين أنيقين فى مثل سنى ، يلبسان ملابس أنيقة ، وتدل مظاهرهما وأناقتهما ونظافتهما على النعمة ، فعملت الحيلة للتعرف بهما ، فإذا هما فتيان قاهريان من أبناء العلماء كأبى ، ولكنهما مدللان فى بيوتهما ، وفى معاملة أبويهما لهما ، وكنت أتلهف على صداقة فصادقتهما ، وأشتاق إلى ملء زمنى فلازمتهما وعلمت أثناء حديثهما أن لكل منهما خزانته ، وهى جزء من دولاب فى رواق من أروقة الأزهر ، يضع كل منهما فيها فروة نظيفة يجلس عليها فى الدرس حتى لا تتسخ ثيابه ، « ومزًّا » أصفر يلبسه فى رجليه إذا سار فى الأزهر حتى يحافظ على نظافة جوربه ، ففعلت فعلهما وتأنقت تأنقهما ، ولكن كان ذلك من وراء أبى لأنه لا يحب الأناقة ولا البهرجة .

ورأيتهما يشكوان مما أشكو فلا يفهمان كما أنى لا أفهم ولا يستفيدان كما أنى لا أستفيد، واقترح أحدهما أن نهرب من بعض الدروس ، ونلتمس مكانا فى الأزهر بعيداً بعض الشىء عن الأنظار ، نلعب فيه القمار ، فلبينا الدعوة ، إذ كان فى هذا اللعب مسلاة من ثقل الدرس ، وراحة من عناء الشيخ والكِتَاب ، فكنا نصرف الساعات نقامر ، وأخسر أحياناً فأبيع بعض ما معى من متاع ، وأبى لا يعلم شيئاً من ذلك ، وأساتذتى لا يعلمون من أنا حتى يعلموا إن كنت حضرت أو غبت ، وأذهب إلى بيتى مدعياً أنى قضيت الوقت كله فى الدرس والتحصيل ، ولكن تنبه ضميرى بعد أشهر وفهمت أن هذه الحال تؤدى إلى سوء المآل ، فتركت صحبتهما والتفت إلى دروسى .

(١٠)

رزقت صحبة طالب آخر فى الأزهر من « شبين الكوم » ولا أذكر كيف تعرفت به ، وكان يكبرنى بخمس سنين أو ست . وكان رحمه الله بدينا مستدير الوجه طيب القلب مرحا فى أدب ، تزوج وترك زوجته وابنه فى بلده وحضر إلى الأزهر يطلب العلم ، وخلّف أهله لأبيه ينفق عليهم كما ينفق عليه ، مع قلة دخله وضعف حاله .

كان هذا الطالب قد مر بالمرحلة الأولى الشاقة التى أمر بها ومرن على الطريقة الأزهرية ولقلقتها وفيهقتها .

وكان مستنير الذهن لم يعبأ بما يقوله شيوخ الأزهر فى الشيخ محمد عبده من زندقة و إلحاد ، فكان يحضر دروسه فى تفسير القرآن ويسمع منه كتاب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وكثيراً ما ألح علىّ أن أحضر دروس الشيخ معه فآبى ، استصغاراً لعقلى مع عظم دروسه ، ولأن ذلك يضطرنى أن أبقى فى الأزهر إلى ما بعد العشاء ، إذ كانت دروس الشيخ تبتدئ بعد صلاة المغرب وتستمر إلى أذان العشاء ، وأخيراً تغلب علىّ وشوّقنى إلى دروسه بما كان ينقل إلىّ من آرائه ، فحضرت درسين اثنين ، فسمعت صوتا جميلا ورأيت منه منظراً جليلا ، وفهمت منه ما لم أفهم من شيوخى الأزهريين ، وندمت على ما فاتنى من التلمذة عليه ، واعتزمت أن أتابع دروسه ، ولكن كان هذان الدرسان هما آخر دروسه رحمه الله .

كنا نجلس قبل الدروس نحضّرها فيوضح لى صاحبى بعض ما غمض من الرموز والعبارات ، فأستطيع أن أتابع الشيوخ فيما يقولون إلى حد ما .

ومرة جاء صاحبى هذا وفى يده جريدة « المؤيد » وأطلعنى

على إعلان بحاجة « الجمعية الخيرية الإسلامية » إلى مدرسين للغة العربية بمدارسها ، وكيفية تقديم الطلبات وموعد الامتحان ، وأن من وقع عليه الاختيار عين مدرساً فى إحدى مدارس الجمعية بثلاثة جنيهات فى الشهر — وأغرانى بتقديم الطلب فتقدمت ، وبحضور الامتحان فامتُحنت .

وكانت لجنة الامتحان مؤلفة من ثلاثة من كبار رجال التعليم فى وزارة المعارف .

نودى على اسمى فتقدمت مضطرباً متخوفاً ، وكان هذا أول امتحان من هذا القبيل شهدته ، فأُعطى لى كتاب « أدب الدنيا والدين » فتحت منه صفحة حيثما اتفق فقرأت فيها وهم يسألوننى : لم رفعت هذه ونصبت هذه وجرّت هذه — ثم طلب إلىّ أن أقف أمام السبورة ، وكان اسمها فى أيامنا «التختة» وأملى علىّ هذا البيت .

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا

ويأتيك بالأخبار من لم تُزَود

وطُلب إلىّ أن أفسره ففسرته ، وأخطأت فى تفسير تُزود فقلت إن معناه « تعطى الكثير » ، ثم طلب إلىّ أن أعربه فأعربته ، وأن أخاطب بالبيت مفرداً ومُثنى وجمعاً ، مذكراً

ومؤنثاً ففعلت ، وبذلك انتهى الامتحان ، ثم أعلنت النتيجة فكنت الثالث ، وهم يحتاجون إلى أربعة ، ودعينا نحن الأربعة لمقابلة الرئيس المشرف على التعليم فى الجمعية الخيرية الإسلامية وهو حسن باشا عاصم ، علمت فيما بعد أنه رجل من عظماء مصر اشتهر بمتانة الخلق والحزم والتشدد فى الحق والتزام العدل مهما كانت الظروف ؛ كان رئيسا للقلم العربى فى السراى أيام الخديو عباس فأراد الخديو أن يستبدل أطيانا للوقف بأطيان يملكها ، فوقف هو والشيخ محمد عبده فى ذلك ، إذ كانا عضوين فى مجلس الأوقاف الأعلى ، وقالا إن فى هذا الاستبدال غبنا على الأوقاف ، فأخرجه الخديو من وظيفته ، فتبرع حسن باشا عاصم بالإشراف على التعليم فى الجمعية الخيرية ، يقضى فى ذلك أكثر أوقاته ، فيرقّى التعليم ويشترك فى وضع المناهج ويطبق العدل فى شدة ، حتى لقد حدث مرة أن تبرع أحد أعيان المحلة الكبرى بأرض لبناء مدرسة الجمعية ونفقات بنائها ووقف عليها من أملاكه ، ثم أراد أن يُدخل ابنه فى المدرسة ، وكانت سنه تزيد شهرا عن السن المقررة ، فأبى عاصم باشا قبوله قائلا : لقد تبرع هذا الرجل للجمعية فوجب شكره ، ولكنه أراد بعدُ أن يخرق قوانيننا فوجب صدّه ، وأصر على إبائه على الرغم من إلحاح رجالات الجمعية مثل الشيخ محمد عبده

وحسن باشا عبد الرازق فى قبوله ، فلما ألحوا عليه قدم استقالته فاضطروا للنزول على رأيه ، وهكذا كان يسير على هذا النمط فيما يعهد إليه من أعمال ، وهو نمط من الناس غريب فى الشرق المملوء بالمجاملات وقبول الرجاء مهما خالف العدل وخالف القانون .

وقفنا فى قبة الغورى ننتظره فطلع علينا رجل مهيب يملأ القلب أكثر مما يملأ العين ، له وجه أسمر وسحنة صعيدية أسيوطية وعينان نفاذتان ، وواجهَنا وأرسل إلينا نظرات فاحصة ، وسأل كلاً منا أسئلة فى المعلومات العامة ، ثم استبعد الرابع لقصره وقماءته وأعلننا أن الأول سيعين فى مدرسة القاهرة ، والثانى فى الإسكندرية والثالث الذى هو أنا فى طنطا .

لم يكن أبى يعلم شيئا من ذلك فلما أخبرته تحير واضطرب ، وما كان الأمر يحتاج إلى حيرة واضطراب ، فالأمر سهل ورفض الوظيفة واجب ، ولكن عذره أن مستقبل الطالب فى الأزهر مظلم ؛ وأخيرا قبلَ سفرى إلى طنطا .

لو سمع شاب اليوم وسنه ستة عشر عاما كسِنّى أنه سيسافر إلى سنغافوره أو طوكيو أو الملايا ما حمل الهم الذى حملت من أجل سفرى إلى طنطا ، فلم أركب القطار فى عمرى ، ولا رأيت الأهرام ، ودنياى هى ما بين بيتى والأزهر .

حزمت متاعى وهو حَشِيّة ومخدة ولحاف وسجادة وملابسى وبعض كتبى ، وودعت أهلى وبكيت طويلا ثم سافرت ، ونزلت فى محطة طنطا حائراً مرتبكا لا أدرى ماذا أصنع ، ولم أدر أن فى الدنيا فنادق ينزل فيها الغرباء ، وبعد طول التفكير اهتديت إلى أن آخذ عربة وأضع فيها متاعى وأقول للسائق « إلى مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بطنطا » — ووقفت العربة على باب المدرسة ، فنزلت وتركت متاعى عند البواب ودخلت على الناظر فسلمت عليه وعرّفته بنفسى ، ثم طلبت منه أن يعطينى حجرة خالية بالمدرسة لأنام فيها حتى أجد مسكناً فاستبلهنى وفعل .

ويطفر ذهنى الآن — عند روايتى هذا الحادث — إلى ابنى يوم كان فى مثل سنى هذه ، فأراه يرحل مع طلبة الجامعة إلى أوروبا فيزور اليونان ورومانيا والنمسا وبولونيا ، ويرى معالمها ويعرف الكثير من شئونها ، فأعجب لسرعة تطور الجيل الجديد فى الزمن القصير .

ثم بحثت عن مسكن فى طنطا أسكنه فاهتديت أخيراً إلى غرفة فى بيت فى حى تبين لى بعدُ أنه لا يرضى عنه الكرام ، وكنت إذا نزلت من الغرفة أخوض فى نساء يجلسن أمام البيت

فى قحة وتبذل ، وحرت كيف آكل وكيف أشرب وكيف أقضى وقتى .

وذهبت إلى المدرسة وتسلمت جدول دروسى من الناظر ، ودخل وأنا عنده ولى أمر تلميذ يطلب إلحاق ابنه بالمدرسة ، فطلب الناظر منى أن أكتب له طلباً ، وناولنى ورقة وقلما فتحيرت ماذا أكتب ، فلا عهد لى بشىء من ذلك ، وأخيراً توكلت على الله وبدأت أكتب ، فلأكتب أولا الديباجة ، ولم أكن سمعت الفرق بين عزتلو ورفعتلو وسعادتلو ، وكنت أظن أنها كلمات مترادفات ، فاستخرت الله وقلت « سعادتلو افندم » ، ولا أدرى ماذا كتبت بعد ، وقدمتها إلى الناظر فنظر إلى كلمة « سعادتلو » ودهش ، ثم نظر إلىّ وقال « سعادتلو ، سعادتلو » ، وأنا لا أزال « أفندى » ولست بيك ولا باشا ، فخجلت من نفسى وأحسست من وقتئذ أنه يحتقرنى .

ساءت حالتى فى بيتى ، وساءت حالتى فى مدرستى ، وساءت حالتى فى وحدتى ، فطلبت النقل إلى القاهرة ولما يمض علىّ شهر ، فجاء الرد بأن الجمعية ليس لديها مانع إذا رضى أحد مدرسى القاهرة بالبدل ، فحضرت إلى القاهرة ودللت على مدرس بالجمعية يُظن أنه يرضى أن يبادلنى ، فذهبت إليه فى بيته وعرضت عليه

أمرى فأبى ، فعرضت عليه أن أتنازل له كل شهر عن نصف مرتبى فابتسم وأبى فاستقلت ، ورجعت إلى مكانى فى الأزهر سالماً ، وكفانى فخراً أنى ركبت القطار وشاهدت بلدة اسمها طنطا وعرفت الفرق بين عزتلو وسعادتلو .

***

لم أستسغ أبداً طريقة الأزهر فى الحواشى والتقارير وكثرة الاعتراضات والإجابات ، وإنما كانت فائدتى الكبرى من أزهر آخر أنشأه لى أبى فى غرفة من غرف بيتنا ، ففى مسامحات الأزهر — وما أكثرها — كان أبى هو المدرس الأزهرى فى هذه الغرفة وكنت الطالب الوحيد .

والحق أن أبى كان يمتاز على كثير من شيوخ الأزهر بأشياء كثيرة — كان واضح العبارة قادراً على الإفهام من أخصر الطرق ، وكان يرى فى الحواشى والتقارير مضيعة للوقت ، ولعله استفاد ذلك من تدريسه ببعض المدارس الأميرية واتصاله بأساتذتها ؛ فقد درَّس بعض الوقت فى مدرسة بالقلعة تسمى « المدرسة الخُطَرية » ، وانتدب للتدريس لبعض الوجهاء مثل قاسم باشا ناظر الجهادية ، ودرس اللغة العربية لسفير أمريكا فى مصر ، وهكذا ، مما أكسبه ذوقا فى التعليم وقدرة على التفهيم ؛ وله مزية أخرى وهى كثرة

مطالعاته فى كتب الأدب والتاريخ واللغة ، واهتمامه بجمعها ، ولم يكن ذلك معروفا عند كثير من الأزهريين .

فرتب لى دروساً فى النحو ، واختار لى من كتبه طبعات ليس عليها حواش حتى لا يتشتت ذهنى فيها — قرأ لى شرح الأجرومية للشيخ خالد ، ثم كتاب قطر الندى ، وكتاب شذور الذهب لابن هشام ، ثم شرح ابن عقيل على الألفية ، وكلها كتب تمتاز بوضوح العبارة وسهولة الأسلوب . فكنت أتقبل دروسه فى هذه الكتب فى لذة وشغف ونهم ، وإلى جانب ذلك قرأ لى كتاب فقه اللغة للثعالبى ، وشرح لى بعض مقامات الحريرى فى الأدب . وليست دراسة اللغة والأدب مما يعنى به الأزهر ، ولكن عنى بها أبى . ثم حبب إلىّ القراءة فى مكتبته ، فكنت أقرأ فى تاريخ ابن الأثير ، ووفيات الأعيان وفاكهة الخلفاء ، وكليلة ودمنة ونحو ذلك . وقرأ لى فى البلاغة شرح السعد على تلخيص المفتاح فلم أستسغه كثيراً ، وقرأ لى كتاباً فى المنطق وكتاباً فى التوحيد ، فكان هذا كله فى الحقيقة أساس ثقافتى ، وترك لى دروس الفقه والجغرافيا والحساب أحضرها فى الأزهر .

نجحت فى هذا نجاحاً كبيرا ، وأحسست التفوق على زملائى فى الأزهر ، حتى طلب إلىّ بعضهم أن أقرأ لهم شرح ابن عقيل

فى مسجد المؤيد فى بعض أوقات الفراغ ففعلت .

وصادقت بعض الإخوان ممن لهم ذوق أدبى ، فكنا نجتمع فى أحد المساجد نحفظ مختارات من مقامات بديع الزمان ورسائله ، وأمالى القالى ، وأمثال الميدانى . ودلنا أحدهم على كتاب ظهر للشيخ إبراهيم اليازجي اسمه « نجعة الرائد » ، يذكر فيه أحسن ما قالته العرب فى الموضوع الواحد ، فأحسن ما قيل فى الشجاعة والجبن ، والكرم والبخل ، والحلم والغضب الخ . فاشتريناه وأخذنا أنفسنا بالحفظ منه .

وظللت مع ذلك غير مرتاح لبقائى فى الأزهر ، ورأيت بعض زملائى يقدمون طلباً للدخول فى مدرسة دار العلوم ، فقدمت مثلهم ، ورأيت الأمر سهلاً علىّ ؛ فهم يُمتحنون فى حفظ القرآن وأنا أحفظه ، ويمتحنون فى حفظ الألفية وفهمها وأنا أحفظها وأفهمها . وحلمت إذ ذاك بمدرسة نظامية واضحة الحدود ، واضحة المعالم ، مفهومة الغاية ، يدخل فيها الطالب فيقضى أربع سنوات يتعلم فيها على خير الأساتذة ، ثم يخرج مدرساً فى المدارس الأميرية . ولكن قبل الامتحان لا بد من الكشف الطبى وأنا قصير النظر ، هذه هى العقدة .

ذهبت إلى أكبر طبيب إنجليزى فكشف على عينى ،

وكتب لى أضخم نظارة قانونية تناسب نظرى ، ومع ذلك تقدمت للامتحان فسقطت ، وحز فى نفسى أن أرى زملائى ينجحون ولا أنجح ، ويدخلون المدرسة ولا أدخل ، ثم عدت إلى الأزهر .

(١٢)

عاد الشيطان فوسوس إلىّ ثانية ، فقد اطلعت فى أحد الجرائد على إعلان من وزارة المعارف تطلب فيه مدرسين للغة العربية ، يدرسون فى مدارسها بأربعة جنيهات شهريا ، فتقدمت للامتحان ، وامتحنت تحريريا وشفويا ونجحت — وكان نصيبى هذه المرة مدرسة تابعة لأوقاف أهلية وخاضعة لتفتيش وزارة المعارف ، هى مدرسة راتب باشا بالإسكندرية . ولم يكن اسم الاسكندرية مرعباً كطنطا ، فقد كبرت وصرت فى الثامنة عشرة من عمرى ، وتعودت ركوب القطار بذهابى إلى طنطا ، ومع ذلك لذعنى السفر ، وصرف أبى مجهوداً جباراً فى تعيينى فى مصر بدل الإسكندرية فلم يوفق . فسافرت ورأيت البحر لأول مرة فسحرنى وصرت آنس به ، وأجلس إليــه ، وأتأمل فى أمواجه ، فأنسى لوعة غربتى ، وحببت إلىّ القراءة فى المـكان الخالى على شاطئه . هناك قرأت بعض كتب الغزالى فشعرت بنزعة صوفية ، وحفظت

كثيراً من نهج البلاغة إعجاباً بقوة أسلوبه ، وقرأت كتاب أشهر مشاهير الإسلام لرفيق بك العظم ، فتحمست لأبطال الإسلام وأعجبت منه بتحليل شخصياتهم ، وفلسفة الحوادث فى أيامهم .

واستأجرت حجرة فى بيت بالقرب من مسجد البوصيرى أودعتها فرشى وملابسى وكتبى ودراهمى ، فعدت يوماً من المدرسة فوجدتها قاعاً صفصفاً ، خالية كيوم استأجرتها ، فاتفقت مع مدرس فى مدرسة أخرى أن نستأجر معاً شقة من غرفتين فى بيت عليه بواب ، وكان صاحبى هذا كهلاً ، نحيف الجسم ، أصفر الوجه ، ملتحياً ، متديناً فى تزمت ، يتوضأ فيطيل الوضوء ، ويصلى فيطيل الصلاة ، ويقضى أوقاتاً طويلة فى قراءة الأوراد وحضور الأذكار ، يصطحب دائماً كتاب « شذا العَرْف » فى فن الصرف ، يقرأ فيه فى حجرته ، ويتأبطه عند خروجه ، وظلَّ على هذه الحال السنتين اللتين أقمتهما معه ، لا هو يتم الكتاب ولا هو يتركه ، مع أنه كتاب صغير يقرأ فى يومين أو ثلاثة .

ولكن أعظم ما كسبته فى الإسكندرية ، تعرفى بشخصية قوية ، كان لها أثر كبير فى نفسى — كتب إليه قريب لى يوصيه بى خيراً — كان أستاذاً للغة العربية فى مدرسة رأس التين الثانوية [١] ،

(١) هو المرحوم الشيخ عبد الحكيم بن محمد .

تخرج فى دار العلوم ، وكنت فى الثامنة عشرة ، وكان فى نحو الثانية والأربعين ، وكان طويل القامة ، معتدل الجسم ، جميل الوجه ، ذا لحية سوداء ، نظيفاً فى ملبسه ، أنيقاً فى شكله من غير تكلف . اتصلت به فأعجبنى من أول نظرة ، واتخذنى أخا صغيراً واتخذته أخا كبيرا ، وكان متديناً ، بل كان صوفيا ، يعتنق طريقة النقشبندية ، وهى طريقة ليس لها شعائر ، ولا تقاليد ظاهرة للناس . فالنقشبندى إذا ذكر الله ، ذكره بقلبه لا بلسانه ، وأول دروسها رسم اسم الله بنور على القلب ، ورفع اللسان إلى الحلق حتى لا يتحرك ، ولم أعرف تصوفه إلا بعد مدة طويلة من معاشرته ، وكان — مع تصوفه هذا — واسع الأفق حُرَّ الفكر ، لا يدين بشىء من الخرافات والأوهام ، ويؤيد الشيخ محمد عبده فى دعوته إلى الإصلاح ، وكان فى مدرسته محبوباً محترماً ، يجله زملاؤه ورؤساؤه وتلاميذه ، أبىّ النفس ، عزوف عن الصغائر ، يعتمد فى درسه مع تلاميذه على الحب لا على الإرهاب ، ويترك لهم الحرية فى الحديث والنقد إلى درجة تشبه الفوضى ، ولم يكن فى درسه مدرس لغة عربية فحسب ، بل مدرس تفكير ونقد للمجتمع ، وما شئت من شئون الحياة ، حتى كان تلاميذه يسمونه الشيخ الإنكليزى ، لترفّعه وحريته وصدق قوله وسعة فكره .

صحبته ، فكان مكملاً لنقصى ، موسعاً لنفسى ، مفتحاً لأفقى ، كنت أجهل الدنيا حولى فعرفنيها ، وكنت لا أعرف إلا الكتاب ، فعلمنى الدنيا التى ليست فى كتاب . وكان أبى وشيوخى يعاملوننى على أنى طفل ، فعاملنى على أنى رجل ، فملأ فراغى ، وآنس وحدتى — كنا نلتقى فى كثير من الأيام بعد العصر ، أو يوم الجمعة ، أنتظره فى محل قريب من بيتى ، وكان هذا المحل أيضاً غريباً ، هو محل عمّ أحمد الشربتلى ، يصنع شراب الليمون كأحسن ما يصنع ، ويعتنى بنظافته ما أمكن ، فكان مضرب المثل فى النظافة والإتقان ، وحانوته صغير ، لا يتسع لأكثر من خمسة عشر ، فإذا كثروا جلسوا أمامه ، وهو مع ذلك يدّعى الأدب والشعر ، ويتصيد من يجلس عنده من الأدباء ليسمعهم شعره ، وإذا حار فى قافية انتظر من يتوسم فيه الشعر فيسأله إكمال القافية ، ويقرأ فى الجرائد كل يوم ما فيها من شعر ، فإذا لم يفهم بيتاً انتظر العصر حتى يأتى بعض زبائنه الأدباء فيسألهم ويناقشهم فى معناه ، وهو ذو ذوق حساس ، إذا استثقل أحداً لم يمكّنه من الجلوس فى حانوته ، وأقصى ما يستطيع أن يمكنه من شرب ليمونه ، ولذلك كان محله مجمعاً للظرفاء والأدباء ، فإذا مرّ علىّ صديقى الأستاذ أخذنى وذهبنا إلى مقهى فخم ، إما فى محطة

الرمل ، أو كازينو المكس ، أو نحو ذلك من الأماكن الممتازة حيث الموسيقى أحياناً وجودة الهواء ومنظر البحر . وقد يكون معنا رجل أو اثنان من بعض أصدقائه ، والأستاذ — فى الطريق ، أو فى المقهى ، أو حيث كان معنا — يحدثنا حديثاً طريفاً ممتعا ، ينقد المجتمع نقد خبير ، و يتحدث فى شئونه الزراعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وهو فى كل ذلك كثير التجارب واسع الاطلاع طلق اللسان — إذا زرته فى بيته حدثنى عن شيوخه فى دار العلوم ، كالشيخ حسين المرصفى ، والشيخ حسن الطويل ، والشيخ حمزه فتح الله وأمثالهم ، وأبان مزاياهم وعيوبهم فى دقة ؛ أو حدثنى عن الكتب التى ظهرت حديثاً وعن القيّم منها ، وما ليس له قيمة ، أو قرأنا فى كتاب كدلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ؛ وأحياناً كان يصحبنا صديق له لطيف ، موظف فى جمرك الإسكندرية ، همه فى الحياة النكت اللطيفة ، والنوادر المستملحة ، مع خفة فى الروح نادرة ، فإذا حضر لم ينقطع ضحكنا ولا إعجابنا ، ولا أدرى من أين كان يأتى كل يوم بالجديد من هذه الطرائف ، ويسميها طرائف اليوم ، وهو يتعصب للإسكندرية ويفضلها على القاهرة ، فإذا تحدث عن ذلك سمعت منه العجب فى معايب القاهريين ومحاسن الاسكندريين ، وكان هذا شيئاً جديداً علىّ لم أر مثله ،

ولعلّ له الفضل فى تقديرى للنكتة ، و إعجابى بها .

وعلى الجملة فلئن كان أبى هو المعلم الأول فقد كان هذا الأستاذ هو المعلم الثانى ، انتقلت بفضله نقلة جديدة وشعرت أنى كنت خامداً فأيقظنى ، وأعمى فأبصرنى ، وعبداً للتقاليد فحررنى ، وضيق النفس فوسعنى ، وظلت صداقتنا سنين ، ينتقل من الإسكندرية إلى القاهرة فتتجدد صداقتنا وتزيد ، ويشاء القدر أن يجمعنا بعدُ مدرسَيْن معاً فى مدرسة القضاء فتقوى الصداقة وتتأكد ، وأستفيد على مر الأيام من علمه وتجاربه وحسن حديثه ، وتجىء الحركة الوطنية فأتحمس لها تحمس الشباب ، وينظر إليها نظر الشيوخ وأقوّمها بشعورى ، ويقومها بعقله ، فينقد زعماء الحركة الوطنية وأكره النقد ، ويعيبهم وأكره العيب ، وتدفعنى الحماسة الوطنية إلى نقد أستاذ آخر لى نقداً فيه شىء من العنف ، فيلسع ذلك صديقى الأستاذ ويغضب له ، ويكره من تلميذ أن يزل لسانه بمثل مازلَّ لسانى فى أستاذى ، فيخاصمنى ويقاطعنى ، وأسترضيه فلا يرضى ، ثم أمعن فى الاسترضاء ، فيبدأ فى الرضاء ، ولكن يسرع إليه القضاء ، فيموت وفى عينى دمعة ، وفى قلبى حسرة ، رحمه الله .

نعود إلى الإسكندرية ، فقد درّست فى مدرسة راتب باشا

اللغة العربية للسنة الرابعة الابتدائية ، وكان هذا فخراً كبيراً إذ من يدرس للسنة الرابعة ينظر إليه على أنه أرقى مدرس للمادة ، وأحسست كفايتى فى تدريس القواعد ، حتى كان من غرورى أنى أخطىء الكتب المدرسية التى قررتها وزارة المعارف ، أما فى دروس الإنشاء فلم أكن بارعاً ، بل كان بعض التلاميذ يكتبون خيراً مما أكتب ، لأنى لم أتمرن على الكتابة ، وكنت إذا كتبت شيئاً ملت إلى السجع وإن لم ألتزمه لغلبة ما حفظته من مقامات بديع الزمان ورسائله .

ورأيت من المدرسين بالمدرسة وناظرها ما لا عهد لى به ، فكأنهم كانوا يمثلون رواية غريبة الأطوار ، مفككة الفصول ، منهم من يمثل دور الماكر ذى الناب الأزرق الذى يقابلك فيبتسم لك ، ويوهمك أنه صديقك ، وهو يدس لك الدسائس عند ناظر المدرسة ، ومنهم من يمثل الخبيث المنطوى على نفسه ، الحاقد على الدنيا وعلى كل شىء فيها ، ويقابل ما يحدث حوله دائماً بضحكة ساخرة ، ومنهم السكير المعربد الذى يستولى على مال المدرسة فيصرفه فى سكره وعربدته ، ثم يضبط ويطرد ، ومنهم فراش المدرسة العبد الأسود الذى تحمر عيناه وتقذفان بالشرر من كثرة ما يتعاطى من « البوظة » وكنت أمثّل من هذه الأدوار دور

المغفل الساذج الذى لم يعرف الدنيا ولم يختبر الناس .

أما علاقتى مع التلاميذ فكانت علاقة صداقة ، أحبهم ويحبوننى ، وزاد من صداقتنا أننا متقاربو السن ، فلم يكن تلاميذ السنة الرابعة صغاراً كما هم اليوم ، إنما كان أكثر الفصل الذى أدرس له بين الخامسة عشرة والعشرين ، فكنت أتحدث إليهم فى الشئون العامة مما لا يتصل بقواعد النحو والصرف ، وأقص عليهم قصصاً أدبية ، وأتحدث إليهم فى بعض ما تحدث به إلىّ صديقى الأستاذ ، وأشعر بحنين إليهم إذا غبت عنهم فى إجازة أو مرض ، ويحنون إلىّ كذلك ، وكانت عاطفتى الدينية مشبوبة قوية بفضل نشأتى فى بيتى ، ثم استمرت بصحبتى من عرفتهم فى الإسكندرية ، فكنت أؤدى الصلوات لأوقاتها ، فإذا كنت فى مقهى انفلتُّ من بين من أجالسهم إلى أقرب مسجد ، فإن كنت فى حى إفرنجى بعيد عن المساجد ، تلمست عمارة كبيرة فيها بواب نوبى أو سودانى ، وطلبت منه أن يحضر لى حصير صلاته لأصلى عليها بالقرب من الباب ، فإذا لم أجد استنظفت أى مكان مستتر وخلعت جبتى وفرشتها وصليت عليها ، ثم نفضتها ولبستها ، ويوم الجمعة أتنقل فى المساجد لصلاة الجمعة ، فيوماً بالبوصيرى ، ويوماً بمسجد أبى العباس ، ويوماً بمسجد سيدى بشر ، وهكذا —

وفى حجرتى أقرأ كل يوم ما تيسر من القرآن .

أما عاطفتى الوطنية فلم تكن قوية إلى ذلك العهد ، لأنى ولدت عقب الاحتلال بنحو أربع سنين ، وقد استولى على المصريين إذ ذاك نوع من الخوف واليأس ، وأحاط الإنجليز مظاهرهم بالعظمة والقوة ، وكان حيّنا فى المنشية مَرَاداً للجنود والضباط الإنجليز الذين يسكنون القلعة بجوارنا ، وكنت كثيراً ما أراهم بالجاكتة الحمراء أو السراويل الزرقاء فأرعب منهم وأعدل عن طريقهم ، وقلما كان يتحدث أبى فى السياسة وشئونها ، فإذا تحدث ففلسفته فيها كفلسفة كثير من الشعب ، أن هذا قضاء الله وانتقام من عبيده ، فبظلم المصريين بعضهم بعضاً ، وظلم حكامهم لهم و بعصيان الله فى أوامره ونواهيه ، سلط الله عليهم الإنجليز يسومونهم سوء العذاب ، ولا يمكن أن ترفع عنا هذه الغاشية حتى يستقيم المصريون و يعدلوا و يلتزموا أوامر الدين ، أما نقد الحكام فى تصرفهم ، أو نقد الإنجليز فى حكمهم ، فسكوت عنه لهذه الفلسفة . وأذكر أنى مرة سألته — وقد كبرت قليلا — عند سماعى لهذه الفلسفة . هل هؤلاء الإنجليز مطيعون لله حتى ينصرهم علينا ويمكّن لهم فى بلادنا ؟ فزجرنى ولم يجب ، فلما اتصلت فى الإسكندرية بصديقى الأستاذ الذى أثر فىَّ كثيراً ، كانت له فى

السياسة فلسفة أخرى ، كفلسفة الشيخ محمد عبده ، إذ كان من أنصاره ، لا من أنصار « مصطفى كامل » . وفلسفته هي وجوب الإصلاح الداخلي أولا ، بنشر التعليم الصالح ، وترقية أخلاق الشعب ، ثم الاستقلال يأتي بعد ذلك تبعا ، عكس سياسة مصطفى كامل التي ترى أن ليس في الإمكان الإصلاح الداخلي للشعب ما لم يسبقه جلاء الإنجليز واستقلال المصريين ، ولذلك كانت وطنية الشيخ محمد عبده وطنية عقلية ، ووطنية مصطفى كامل وطنية شعورية ، وقد تأثرت بكلام صديقي الأستاذ ، وانحزت إلى رأيه .

وكنت في صباي لا أقرأ الجرائد ، فهي لا تدخل بيتنا ولست أجلس في مقهى أقرؤها فيه ، إلى أن كانت حادثة زواج الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيدة بالست صفية بنت الشيخ السادات ، وهي حادثة تحدث كل يوم ولا تحرك ساكنا ، ولكن هذه الحادثة بنوع خاص أقامت مصر وأقعدتها ، من الخديو إلى البائع الجوّال ، فرجل كهل تزوج بنتا بلغت سن الرشد برضاها دون رضا أبيها ، واعترض أبوها على هذا الزواج ، فماذا عسى أن يكون لهذا الحادث من أهمية ؟ ولكن لعب الخصومات السياسية في هذا الموضوع ، وإثارة شعور العامة عن طريق المحافظة على

الدين ، وفراغ عقول الناس ، جعل هذه المسألة مسألة الرأى العام ، فقد رفعت قضية بطلب فسخ عقد الزواج لعدم كفاءة الزوج للزوجة ، إذ هى شريفة من نسل النبى ، وهو ليس بشريف ، واشترك فى هذه المعمعة القضاء والسياسة والأدب ، فجلسات المحاكم وما دار فيها من مرافعات تطلع على الناس فى الجرائد ، والشعراء يصنعون المقطوعات الطريفة فى هذا الموضوع تنشرها الجرائد ، والجرائد الهزلية تنشر « النكت » اللاذعة ، وهكذا اهتاجت عواطف الناس ، وترقبوا الجرائد وتلقفوها تطلع عليهم كل يوم بجديد .

ومن ذلك الحين اتصلت بالجرائد أقرؤها ، فلما عينت فى الاسكندرية كنت أذهب إلى مقهى « عم أحمد الشربتلى » أقرأ فيه اللواء والمؤيد والمقطم ، فأرى جريدة اللواء تلهب الشعور الوطنى ولا تجاوبها نفسى تبعاً لشيخى ، والمقطم تقاوم الحركة الوطنية ولم تجاوبها كذلك نفسى ، وربما كان المؤيد أحب إلىّ لصبغته الإسلامية .

ولكن حدث حادث دنشواى (١) .

---

(١) حادثة دنشواى كما يعلمها القراء خلاصتها أن فرقة من الجنود الإنجليزية خرجت مع ضباطها من القاهرة إلى الإسكندرية فلما وصلت إلى منوف انحرفت فى سيرها وقصد خمسة ضباط منهم بلدة دنشواى لعلمهم بأن فيها حماما يصاد ، فبينما هم يصيدون خرجت من يد أحدهم رصاصة أصابت =

ولست أنسى ليلة — وأنا فى الإسكندرية — أقام فيها أحد أصحابنا وليمة عشاء على سطح منزله (وكان ذلك فى يوم ٢٧ يونيو سنة ١٩٠٦) ، فجاءت الجرائد وفيها الحكم على أربعة من أهل دنشواى بالإعدام ، وعلى اثنين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وعلى واحد بالسجن خمس عشرة سنة ، وعلى ستة بالسجن سبع سنين ، وعلى خمسة أن يجلد كل منهم خمسين جلدة ، فتنغص عيشنا وانقلبت الوليمة مأتما ، وبكى أكثرنا ، ومن ذلك اليوم أصبحت عواطفى مع اللواء لا مع المؤيد ولا مع المقطم .

(١٣)

بعد سنتين فى الاسكندرية ، سعى أبى فعينت مدرساً بمدرسة والدة عباس باشا الأول فى أكتوبر سنة ١٩٠٦ ؛ وهى المدرسة

= امرأة فى « الجرن » واشتعلت فيه النار ، فهاج زوجها وأراد أن يسوق الجندى إلى المركز ، فاجتمع حول الضابط زملاؤه ، وجاء رجال من أهالى البلدة لإنجاد صاحبهم ، فأطلق الضباط الإنجليز النار على الأهالى فأصيب بعضهم ، فهجم الأهالى على الضباط وجردوهم من سلاحهم وضربوهم بالعصىّ الغليظة فأصيب ضابطان وجرى ثالث وهو جريح ، وعدا مسافة طويلة ثم سقط ميتاً ، فلما علم الجنود الإنجليز بذلك حضروا وقبضوا على من حول القتيل من الأهالى ، وفر أحدهم فأطلق الجنود الإنجليز عليه الرصاص وقتلوه ومثلوا بجثته فقامت الدنيا لهذا الحادث وقعدت وتوعد الإنجليز أهل دنشواى بأشد العقاب .

التى تعلمت فيها صغيراً ، والتى كنت أحن إليها دائماً أيامى فى الأزهر ، وقد تغيبت عنها قريباً من ست سنوات ، ففرحت بها فرح الغائب عاد إلى وطنه ، بل ورأيت فيها بعض من كانوا تلامذة معى فى المدرسة أيام كنت تلميذاً ، و بعض أساتذتى الذين علمونى ، ورأيتها قد اتسعت أبنيتها ، وكثرت تلامذتها وأساتذتها ، وأُعطيتُ السنة الأولى والثانية لأن أساتذتى وأمثالهم كانوا يحتلون السنة الرابعة ، وسرعان ما تجلت قوتى فى القواعد دون الإنشاء ، ولا أدرى السبب فى اكتشاف هذا السر ، ولكن حدث فى آخر العام أن نتيجة المدرسة فى الشهادة الابتدائية كانت نتيجة باهرة ، فرح بها الناظر فرحاً شديداً ، و بحث عن أستاذ فى اللغة العربية يكتب خطاباً إلى إدارة الوقف يخبرها فيه بهذه النتيجة ، و يباهى بها غيرها من المدارس ، فلم يجد أحداً إلا إياى ، فدعانى الناظر وطلب منى أن أكتب هذا الخطاب ، ومن حسن حظى أنى كنت أحفظ مقدمة دلائل الإعجاز ، يباهى فيها بعلم البلاغة وأنه فوق العلوم كلها ، فسرقت الأسلوب ، و باهيت بالمدرسة وفضلها على سائر المدارس على نمطه ، وحججه ، فسرّ منه الناظر كثيراً ، ورد إلىّ اعتبارى فى الإنشاء أيضا .

فى هذا العام أثناء الدراسة مرضت بحمى التيفود مرضاً

شديدا ، حتى أشفيت على الهلاك ، ولم يكن هناك عناية بالمرضى ، كما يعنى اليوم ، ولا فكرة فى إرسال المريض إلى مستشفى الحميات كما يرسل اليوم ، ولا عزل له عن سائر من فى البيت حتى لا تنتشر العدوى ، ولا استدعاء طبيب مختص يشرف إشرافاً دائماً على العلاج — لا شىء من ذلك — ولكن فرشت لى حشيّة على الحصير ، فى وسط الغرفة كما كنت أنام ، وترك أمرى لله ، فلم يدع أهلى طبيباً ، وكل ما فى الأمر أن نفسى عافت الأكل فتركته . ومن حين لآخر تأتى عجائز الحارة فتصف لأمى وصفات بلدية للشفاء من المرض ، فأقبلها حيناً ، وأرفضها أحياناً ، ويزورنى أبى قبل خروجه إلى عمله ، فيجلس على رأسى ، ويضع يده على جبهتى ، ويقرأ الفاتحة ، وآية الكرسى ، والمعوذتين ، ويختم ذلك بقوله : « حصنتك بالحى القيوم الذى لا يموت أبدا ، ودفعت عنك السوء بألف ألف لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » . ثم ينفث فى وجهى ، وإذا عاد من عمله فى المساء كرّر هذا الدعاء . ونجوت منها بأعجوبة ، بعد أن كان الموت أقرب إلىّ من حبل الوريد ، ومكثت بعد ذلك مدة طويلة فى دور النقاهة .

لم أمكث فى هذه المدرسة إلا سنة ، وفى سنة ١٩٠٧ تقرر فتح مدرسة القضاء الشرعى ، وكان الغرض منها تخريج قضاة

شرعيين مكان الذين عمت منهم الشكوى . وكان قد عهد إلى الشيخ محمد عبده بالتفتيش على المحاكم الشرعية وفحص عيوبها ، فقام بذلك خير قيام ، وكتب تقريراً عظيما ، يبين فيه هذه العيوب ، ويقترح وجوه الإصلاح ، وعلى أثر ذلك فكرت نظارة الحقانية فى إنشاء مدرسة ، واحتضن فكرتها سعد باشا زغلول ، إذ كان ناظراً للمعارف ، وأميناً على أفكار الشيخ محمد عبده . وكان الخديو عباس كارهاً لهذا المشروع أشد الكره ، معارضاً فيه أشد المعارضة ، لأنه يسلب الأزهر أعز شىء لديه ، وهو الإعداد للقضاء الشرعى ، وقد سُلب من قبلُ إعداد مدرسى اللغة العربية بإنشاء دار العلوم — والأزهر وديوان الأوقاف هما المصلحتان اللتان أطلقت فيهما يد الخديو ، ولم تمسسهما يد الإنكليز ، فقوتهما قوة له ، وضعفهما ضعف له . ولأن فكرة مدرسة القضاء نبعت فى فكر الشيخ محمد عبده ، واحتضنها صديقه سعد زغلول ، وهو يكرههما من أعماق قلبه . من أجل ذلك حارب المشروع ، ولكن دعى مجلس النظار للاجتماع يوم ٢٥ فبراير ١٩٠٧ ورأسه الخديو ، فعارض الخديو فى المجلس وأبدى اعتراضاته على المشروع ، واقترح إرجاء النظر فيه ، فعارض سعد باشا ، ودافع عن الفكرة ، وتحمس لها تحمس المحامى

القـدير الذى يؤمن بعدل قضيته ، ثم أخذ الرأى ، فانضم جميع النظار إلى سعد باشا ، ما عدا ناظر الأشغال ، فلم يسع الخديو إلاَّ أن يوافق على رأيهم و يُمضى القانون . ولم تعرف سابقة لمثل هذا الحادث يخالف فيها أكثر النظار الخديو ، فينزل عن رأيه لرأيهم ، ولذلك صمم — بعد — أن لا يحضر جلسات مجلس النظار ، حتى تكون له الحرية ، فى قبول ما يقبل ، ورفض ما يرفض . ومن أجل هذا ظل الخديو يحارب مدرسة القضاء ما استطاع .

على كل حال أعلن عن الدخول فى مدرسة القضاء وشروط القبول وموضوع الامتحان ، فتقـدمت ، وكانت خشيتى من الـكشف الطبى أكبر من خشيتى من الامتحان ، فأخوف ما أخافه أن تتكرر المأساة التى حدثت عندما تقدمت لدار العلوم ، وكان من فرط خشيتى أنى احتلت حتى حصلت على اللوحة التى سيستخدمها الطبيب فى الـكشف عن النظر ، فحفظت حفظاً جيداً العلامات فيما عدا السطرين الأولين لأنى أراهما ، فعرفت ابتداء من السطر الثالث أن العلامة الأولى مفتوحة من اليمين ، والثانية من اليسار ، والثالثة من فوق ، والرابعة من تحت وهكذا ، ولـكن خاب ظنى وكانت ساعة حرجة جداً انعقد عليها كل أملى ، فقد رأيت السطرين الأولين ، فلما جاء ما بعدهما أشار الطبيب

على علامة فى السطر الرابع فسألته ، أهى الأولى أم الثانية ، فقال هى الموضوع عليها العصا ، ولم أر طرف العصا إن كان موضوعاً على العلامة الثالثة أو الرابعة ، فسقطت فى الامتحان ، و يئست من المدرسة ، واعتقدت أنى سأظل فى عملى المتواضع أو مثله ما بقيت الحياة ، ولـكن حدث ما ليس فى الحسبان فقد رأى عاطف بك بركات ناظر المدرسة كثرة الساقطين فى النظر ، فأرجأ البت فيمن يقبل ومن لا يقبل إلى ما بعد الامتحان ، وتقدم لهذا الامتحان أكثر من مائتين ، منهم من قضى سنين طويلة فى الأزهر ، وامتحنا فى اللغة العربية نحواً وصرفاً ، وفى الفقه ، وفى البلاغة ، وفى الحساب والهندسة ، وفى الجغرافيا والتاريخ ، فكان امتحاناً عسيراً رسب فيه كل المتقدمين إلا خمسة ، وكنت الثالث فشفع ذلك لى عند ناظر المدرسة فى قصر نظرى ، وقبلنا نحن الخمسة وضم إلينا تسعة من أحسن الراسبين ، و بعض هؤلاء التسعة — اختيروا — لأنهم من أبناء كبار العلماء فى الأزهر ، استرضاء للأزهر وأهله . ففرحت فرحاً لا يقدر ، إذ رُسم مستقبلى ، ووضحت معالمه ، وكفيت شر التسكع فى المدارس الأهلية وأمثالها ، كما فرحت مرة ثانية لأنى سأدرس علوماً منظمة فى مدرسة منظمة . أُسأل فيها عما أفعل ، وأحاسب على الجد والكسل ، لا كما كان الشأن فى الأزهر .

وكانت الفكرة فى مدرسة القضاء أن يثقف فيها الطالب ثقافة دينية ، من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وتوحيد ونحو ذلك ، وثقافة لغوية أدبية من نحو وصرف وأدب ، وثقافة قانونية عصرية ، من مثل أصول القوانين الحديثة ونظام القضاء والإدارة ونحو ذلك ، وثقافة كما يسمونها عصرية ، من مثل الجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيميا والحساب والجبر والهندسة فكان برنامجها مزيجاً من كل ذلك . ومن أظرف ما حدث فى برنامجها أن خاف واضعو قانونها من أن يسموا الطبيعة باسمها ، فيغضب الأزهريون ، لأن لديهم بيتاً مشهوراً يتناقلونه و يتداولونه ، وهو :

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة

فاحتالوا على ذلك ووضعوا الطبيعة والكيمياء فى البرنامج تحت اسم « الخواص التى أودعها الله تعالى فى الأجسام » .

وكانت المدرسة فى حضانة سعد باشا زغلول ، يوليها عنايته وهو ناظر المعارف ، ويضع يده على كل رجال التعليم فى نواحيهم المختلفة ، فاختار لها ناظراً من أكفأ الناس وأقربهم إليه وهو عاطف بك بركات ، واختار هو والناظر خيرة المدرسين من كل نوع من أنواع التعليم ، كما استعان بخيرة علماء الأزهر ، ليدرسوا العلوم الدينية ، فكنت ترى مزيجاً عجيباً من الأساتذة ،

هـذا شيخ أزهرى تربى تربية أزهرية بحتـة ودنياه كلها هى الأزهر وما حوله ، بجانبه أستاذ للتاريخ على آخر طراز تخرج من جامعات انجلترا ، وأستاذ للطبيعة تخرج من أشهر جامعات فرنسا ، وعلى رأسهم ناظر تعلم فى الأزهر وفى دار العـلوم وفى انجلترا ، وكل من هؤلاء يلوّن الطلبة بلونه ، ويصبغهم بصبغته ، ويعلمهم على منهجه . فكنت إذا أصغيت إلى درس من الدروس فكأنما تصـغى إلى درس يلقيه مدرس من القرون الوسطى فيما يقال وكيف يقال ، ثم يليه درس تسمعه فكأنك تسمع درساً فى جامعـة أجنبية لا يفرق بينهما إلا أنه يلقى باللغـة العربية ، ثم تنتقل من ذلك إلى درس له شـبه من هذا وشبه من ذاك ، فموضوعه من موضوعات القرون الوسطى ومنهجه منهج حديث ، وكذلك المدرسون ، عقلية قديمة لم تسمع عن شىء اسمه الجغرافيا ولا تعرف أن الدنيـا قارات خمس . أراد بعضهم أن يتظرف ويبين أنه رجل عصرى فقال : إن الدنيا تنقسم إلى ثلاثة أقسام آسيا وأفريقه وقارة . يقدسون ما ورد فى الكتب حتى الخرافات والأوهام ، ومن أقوى حججهم على صحة الرأى أنه ورد فى كتاب من الكتب القديمة . وعقلية حديثة على آخر طراز ، جالس أصحابها أرقى الأساتذة الأجانب

واستفادوا منهم ، وعاشوا فى المدنية الغربية ، وعرفوا آخر نوع من طرازها ، وليس عندهم فكرة مقدسة إلا ما قام البرهان على صحته ، ودلت التجارب على ثبوته . و بين هذين الطرفين أنواع من الأساتذة يأخذون بحظ منهما قلّ أو كثر ، وفى هذه البوتقة المكونة من هذه العناصر كلها وضعت الطلبة ليأخذ كلٌّ منهم حظه حسب فطرته واستعداده — وأحيط كل هذا بإطار خلقى يشرف على تنفيذه ناظرها : يلتزم النظام الدقيق ولا يسمح بالخروج عنه قِيد أنملة ، إن دق جرس الصباح أغلق باب المدرسة ولا يدخلها طالب ، وتحرك الأساتذة فوراً إلى دروسهم . و يذهب الطلبة أوّل العام الدراسى فيجلس كل فى مكانه و يفتح درجه فإذا فيه كتبه وأدواته جميعها لا ينقصها شىء ، وعدلٌ فى معاملة الطلبة والأساتذة لا ينحرف . فمن نجح من الطلبة فبالعدل ، ومن رسب فبالعدل ، وإن رقى أستاذ فبالعدل ، لا يقبل فى ذلك رجاء ولا شفاعة ، وكل طالب معروف لأساتذته وناظره ، ولكل طالب صفحة فى سجل كبير أمام الناظر ، قيد فيها اسم الطالب والأخطاء التى ارتكبها والعقوبات التى وقعت عليه والمكافآت التى نالها ، فمن أخطأ خطأ جديداً ذهب إلى الناظر ففتح صفحته

وعرف مكانته ؛ ونظافة فى المدرسة بالغة أقصاها — حديقة جميلة رسمت رسماً بديعا ، وملئت بالأزهار الجميلة ، وحركة مستمرة من الخدمة فى تنظيف مستمر — فى هذا الجو كله وضع الطلبة . واشتهرت المدرسة فى مصر يزورها كبراؤها ، وفى العالم الشرقى يؤمها عظماء الوافدين المعنيين بشئون التعليم والراغبين فى الإصلاح .

(١٤)

بدأتُ الدراسة بالقسم العالى من هذه المدرسة ، ومدته أربع سنوات ، وكان فصلنا أربعة عشر طالباً ، كثير منهم يناهز الثلاثين وله لحية طويلة ، ومنهم من هو متزوج وله أولاد . وكان الطلبة كالأساتذة ، منهم الأزهرى القح الذى لا يعرف عن الدنيا شيئاً ، ومنهم ابن البلد المتمدن الذى عرك الدنيا وعركته ، ومنهم بين ذلك . وبدأنا الدراسة واستمررنا فيها أربع سنين طوالا — يدرس لنا التفسير والحديث والتوحيد رجال من خيرة الأزهريين ، على الطريقة الأزهرية وفى كتبها الصفراء التى تضم متناً وشرحاً وحاشية — يقرءون المتن ثم يتبعونه بالشرح ، ثم يفيضون فيما يرد من اعتراضات ، وما يجاب

عليها من إجابات ، وتنتهى السنة فلا نكون قد قرأنا فيها إلا القليل ، ونحمد الله على ذلك لأن الامتحان سيكون فى هذا القليل الذى قرئ ، وهم يذكروننا دائما بالأزهر ومنهجه والقرون الوسطى ومناهجها ، ويملأون رءوسنا بالاحتمالات والتأويلات ، ويبثون فى نفوسنا من طرف خفى تقديس المؤلفين والمؤلَّفات ، فقلَّ أن يخطئ المؤلف ، وإذا أخطأ فهناك ألف وجه لتأويل كلامه بما يحتمل الصواب ، ولكن كان لهذه الطريقة — والحق يقال — محمدة كبيرة ، هى تعويدنا الدقة فى التعبير والإيجاز فى القول والتزام المنطق فيما يقال .

وبجانب هؤلاء دروس يلقيها أساتذة من خير من أخرجته دار العلوم كالشيخ الخضرى والشيخ المهدى ، وهم فئة تعوَّدوا النظام والقدرة على الإيضاح من دار العلوم ، ولم يلتزموا عبارات الكتب وإن التزموا موضوعاتها ، واتصلوا بالشيخ محمد عبده ، وكانوا من خاصة تلاميذه ، يعتنقون مبادئه ويستنيرون بآرائه وتوجيهاته ، فلم يكونوا يلتزمون الكتب ، وإنما يضعون مذكرات من أنفسهم يعتمدون فيها على الكتب القديمة ، ولكنهم يعرضونها عرضاً جديداً ، وقليلا ما يأتون بالشىء من أنفسهم ، ولهم علم بالدنيا أكثر من علم الأزهريين ، وتجارب

فى الحياة استمدوها من أعمالهم ومناصبهم ، كانوا يلقونها إلينا مع دروسهم ؛ درس لنا أصول الفقه الشيخ محمد الخضرى ، وكان لبقاً لسناً ذكيا واسع الاطلاع حاضر البديهة ، يجيد اللغة العربية وفروعها والتاريخ الإسلامى كما ورد فى المؤلفات القديمة ، والعلوم الإسلامية كما تلقاها من شيوخه ، وله قدرة على استساغة ذلك كله وإخراجه فى عبارة عصرية جديدة أقرب إلى الفهم . ودرس لنا الشيخ محمد المهدى أدب اللغة العربية ، وكان هذا الأدب حديث العهد فى مصر ، فالناس لم يكونوا يعرفون الأدب إلا على النحو الذى جاء فى مثل كتاب الأغانى والعقد الفريد والأمالى ونحو ذلك . أما تأريخ الأدب إلى عصور وترجمة شعراء كل عصر وناثريه وميزة أدب كل عصر وخصائصه فشىء لم يكن معروفا فى مصر ، حتى أتى الأستاذ حسن توفيق العَدْل ، وقد تعلم فى ألمانيا ، فأدخل هذا العلم على هذا النمط فى مدرسة دار العلوم إذ كان أستاذاً فيها ، مسترشداً بما كتبه الألمان فى تدريس أدبهم ، وجاء تلميذه الأستاذ محمد المهدى فبنى عليه وأعدَّ لنا مذكرات واسعة فيه ، وكانت ميزته الكبرى تذوقه الأدب وتقويم جيده من رديئه وحسن إلقائه للشعر وجمال نغماته ، وكان كثيراً ما يخرج

من الدرس إلى تعاليم الشيخ محمد عبده ، من الدعوة إلى عدم زيارة القبور و إنكار الشفاعة بالأنبياء والأولياء ونحو ذلك .

وكان من طائفة دار العلوم أيضاً الشيخ محمد زيد ، رجل وقور جليل المنظر مهيب الطلعة يحتفظ بكرامته و يعتز بشخصيته ، درّس لنا الفقه . وكان قد مرن عليه فى التدريس بمدرسة الحقوق ، فنقل الفقه من كتبه الأزهرية التى تعتمد على الجزئيات إلى وضع قواعد كلية تطبق عليها الجزئيات ، وكان سلس العبارة ميالا إلى الإطناب .

وجمهرة ثالثة من المدنيين — إن صح هذا التعبير — منهم طائفة من كبار رجال القضاء الأهلى ، يعلموننا مقدمة القوانين ، أو كما يسمونها اليوم المدخل إلى القانون ، ونظام المحاكم واختصاصاتها إلى غير ذلك ، فيقربون أذهاننا إلى القضاء الأهلى ، و يقربون الفقه الإسلامى إلى القانون الوضعى ، وأصول الفقه ، إلى أصول القوانين .

وهذا أحمد فهمى العمروسى بك ، وهو الذى تعلّم فى مصر وتعلم فى سانكلو بفرنسا يدرس لنا الطبيعة ، فيشرح لنا النظرية ويطبقها فى المعمل و يجعلنا نجرب التجارب ، ولا يضع فى يدنا

كتاباً ، بل يكلفنا أن نكتب مافهمنا وأن نرسم الأدوات التى استخدمناها ، وهى طريقة كانت شاقة علينا ، ولكنها كانت مفيدة لنا — ويخرج من الدرس كثيراً إلى نقد طريقتنا فى التعليم وطريقتنا فى الحياة ، ويقارن فى ذلك كله بين مصر وفرنسا . ويرى أن الكلام فى هذه الأمور أكثر فائدة من الكلام فى الطبيعة والكيمياء ، فالكلام فيهما كالخبز الجاف لا بد أن يجعل سائغاً بالزبد والمربى .

وهذا على بك فوزى الذى درس فى مدرسة المعلمين وتخرج فى معاهد إنجلترا ، يدرس لنا التاريخ — تاريخ اليونان والرومان أحيانا ، وتاريخ أوروبا الحديث أحياناً والتاريخ الإسلامى أحياناً ، وهو رجل غريب بديع ظريف المظهر قصير القامة يخفى قصر قامته بطول طربوشه وعلو جزمته . يجيد الإنجليزية والفرنسية والفارسية والتركية . ويلتزم الكلام باللغة العربية الفصحى فلا يلحن ، ويدخل علينا متأبطا كتباً فى جانبيه لعلها تزن أكثر منه ، ولا يدع الفرّاش يحملها له ، ويفتح هذا الكتاب بالإنجليزية وهذا الكتاب بالفرنسية ويملى علينا باللغة العربية بأسلوب جميل فصيح صحيح ، ويخرج أحياناً

عن الدرس إلى آرائه فى الحياة وفلسفته فى المقارنة بين المدنية الشرقية والمدنية الغربية .

وهذا محمد بك زكى يدرس لنا الحساب والجبر والهندسة ، وينقلنا فى ذلك خطوات سريعة ، حتى نصل إلى اللوغاريتمات والهندسة الفراغية والتباديل والتوافيق .

وهذا عاطف بك بركات يدخل علينا يوما فيجد مدرساً من دار العلوم يدرس لنا الأخلاق من كتاب أدب الدنيا والدين ، فلا يعجبه ذلك ، ويتولى تدريس هذه المادة بنفسه من المصادر الإنجليزية ، فيدرس لنا أحياناً كتاب ما كنزى فى علم الأخلاق ، وأحياناً كتاب مذهب المنفعة لجون ستيوارت ميل .

وهكذا وهكذا من مزيج لم يكن له نظير فى أى مدرسة أخرى .

ونظام المدرسة شاق عنيف ، فليس هناك ملاحق ، وليس هناك إعادة سنة ، فمن رسب فى أول امتحان آخر السنة رفض ، وفى كل ثلاثة أشهر امتحان ، ومن رسب فى هذا الامتحان الثلاثى حرم من مكافأته ، وهى جنيه ونصف كل شهر ، وما تجمّع من هذه المكافآت التى حرم منها بعض الطلبة تمنح مكافآت للمتفوقين : قسم منها لمن حاز أكبر درجة فى كل علم

أساسى ، وقسم يمنح مكافآت على كتب تقرأ أثناء الإجازة ، مثل مقصورة ابن دريد وشرحها ومختصر صبح الأعشى وكتاب « إميـل » القرن التاسع عشر ونحو ذلك . وقد ينال الطالب النابغ ما يقرب من ثلاثين جنيها من هذه المكافآت ، وكل يوم ثلاثاء عصراً تُصَفّ الكراسى فى فناء المدرسة ويُدْعى أستاذ من الخارج أو من المدرسة أو طالب من المتقدمين لإلقاء محاضرة فى موضوع أعدَّه ، وأحياناً يشترك فى سماع هذه المحاضرات سعد باشا زغلول أو قاسم أمين أو غيرهما من الكبراء ، فيلقى علينا مثلا ، « رفيق بك العظم » محاضرة فى « قضاء الفرد وقضاء الجماعة » ، ويلقى علينا الشيخ الخضرى محاضرة فى « أبى مسلم الخراسانى » مرة وفى « الغزالى » مرة وفى « زياد ابن أبيه » مرة . ويلقى علينا العمروسى بك محاضرة فى « هربرت سبنسر » مرة ، وفى « بستالوتزى » مرة وهكذا . . .

ويتحين عاطف بك بركات فرصة الفسحة أو فرصة وجود بعض الطلبة فى المكتبة فيقف ويلتف حوله من شاء من الطلبة ، فيخلق موضوعاً يحاورهم فيه ويحاورونه ، ويتشعب الموضوع ، ويطول الجدل حتى يدق الجرس . فيكون من ذلك درس على طريقة سقراط . وكان رحمه الله طويل النفَس فى

الجدل قوى الحجة ، لا يكل فى ذلك ولا يمل ، وهى شيمة عرفت فى أسرة سعد باشا زغلول كلها ، مثل سعد زغلول وفتحى زغلول وعبد الرحمن زغلول وعاطف بركات ، يلذهم الجدل حتى فى الموضوع الذى لا يحتمل الجدل ، ويشققونه ويفرعونه ويعمقونه ، فيكون من ذلك متعة عقلية تلذ المؤيِّد والمعارض .

قضيت زمانى فى هذه المدرسة جدا لا هزل فيه وتعباً لا راحة معه ، وكانت المدرسة قاسية عنيفة لا ترفيه فيها ؛ فدرس فى النهار وتحضير فى الليل ، حتى أوقات الألعاب الرياضية كنا نؤديها فى عنف كأنها أشغال شاقة . فلو طُبقت هذه النظم على مدرسة عسكرية لاستجارت منها ، ولو طبقت على مدرسة اليوم لقابلها الطلبة كل ساعة بإضراب جديد . وقد صبرت على هذا الدرس فلم أسترح نهاراً ولا ليلاً ، ولا جمعة ولا عيداً ، حتى ولا فى الإجازة الصيفية ، إذ كنت أعكف على الكتب التى قررت للمسابقات فأختار منها وأدرس ما أختار لأمتحن فيه أول العام ، وزاد من تعبى ما أصبت به من الغيرة ، وكنا اثنين فى الفصل كفرسى رهان نتسابق فى غير كلل ، وكان خيراً منى فى العلوم الأزهرية وأتاخير منه فى العلوم العصرية ، فسبقنى

فى السنتين الأوليين وسبقته فى السنتين الأخريين ، وكان إذا سبقنى حزنت حزناً عميقاً ، و إذا خلوت إلى نفسى فرَّ الدمع من عينى ، فما لقيته من هذا الزميل السبّاق كان أشدَّ على نفسى مما لقيته من المدرسة وما فيها من عناء .

لا أذكر أنى رفهت على نفسى إلا أياماً كنت أخرج إلى كوبرى قصر النيل ، حتى إذا توسطته وقفت زمناً أستنشق هواءه وأستمتع بمنظره ، ثم أسير إلى آخره فأميل ذات اليمين وأمشى بين الأشجار والنخيل والنهر حتى أصل إلى مسجد هناك أصلّى فيه المغرب أو العشاء ثم أعود من حيث أتيت .

وأحياناً فى ليلة الجمعة كنت أغشى منزل صديقى الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وكان منزلا يحتفظ بالتقاليد القديمة لبيوت الأسر الكبيرة ، يكثر زوّارها وتمد موائدها غداء وعشاء ، و يطيب فيها السمر و يطول فيها السهر ، فكان أصدقاء الشيخ من الشبان ينفردون بحجرة فى البيت يتلاقى فيها شبان الأزهر بشبان الحقوق ببعض الشبان الذين يتعلمون فى أوروبا ، فتثار المسائل على اختلاف ألوانها دينية وفلسفية وسياسية واجتماعية حيثما اتفق ، تتبادل فيها الآراء والأفكار ، وترى إذ ذاك آراء المحافظين تناطح آراء الأحرار المتمدنين ، ومؤيدى السفور ينازعون مؤيدى

الحجاب ، والوطنين يثورون على الرجعيين ، وهكذا من سمر لذيذ يمتد إلى منتصف الليل فتكون من ذلك متعة عقلية وروحية لطيفة .

ومرتين أو ثلاثاً جمعت كل قواى ، وحفزت كلَّ همتى وقاومت كل خجلى ، فذهبت إلى استماع الغناء فى صالة تسمى « ألف ليلة » بالأزبكية من مغنيـة اسمها « توحيدة » واتخذت كلَّ الوسائل للاختفاء ، لأن من رؤى وعلمت به المدرسة كان عرضة للتأنيب والعقاب — هذا كان كل ترفيهى ، أما ما بقى من وقتى فللدراسة وللمدرسة .

بل زدت نفسى إرهاقاً بدراسة أخرى ، فقد كانت الجامعة المصرية الأهلية قد ولدت فى السـنة التى ولدت فيها مدرسة القضاء عقب جدال عنيف فى المجالس والصحف ، وكان موضوع الجدل غريباً حقاً ظريفاً حقاً : هل من الخير لمصر أن تتوسع فى التعليم الأولى فتنشئ الـكتاتيب ، أو تؤسس التعليم العالى فتنشئ الجامعة ، كأنهما ضدان لا يمكن الجمع بينهما . ولـكنها السياسة الإنجليزية ، أرادت أن تصرف الأنظار عن التعليم الجامعى لأنه يخرج قادة الرأى فى الأمة ، فابتدعت فـكرة التعليم الأولى وأولويته ، وظلت المناقشة طويلا ، وكان اللورد كرومر يؤيد التوسع فى التعليم الأولى و يعارض فى إنشاء الجامعـة ، فأسرع

مديرو المديريات ومأمورو المراكز والعمد وأعيان البلاد إلى إنشاء الكتاتيب طوعاً لإشارة كبار الإنجليز ، وأخيراً تقدم داعٍ يدعو إلى إنشاء الجامعة ويتبرع بخمسمائة جنيه بشرط أن يتبرع عدد كبير بمال كثير ، وتحمس بعض الكبراء وعقدوا اجتماعاً حضره سعد زغلول وقاسم أمين والشيخ عبد العزيز شاويش ومحمد فريد وغيرهم ، واكتتبوا بمبلغ من المال لا يزيد على خمسة آلاف جنيه ، وأنشأوا الجامعة ، واختاروا رئيسها سعد زغلول .

فلما عين ناظراً للمعارف اختير لها الأمير أحمد فؤاد .

ثم نمت الجامعة واستدعى لها بعض كبار المستشرقين واختير لها بناء هو بناء الجامعة الأمريكية اليوم . فأعجبنى من دروسها محاضرات يلقيها الأستاذ نَلِّينُو فى تاريخ الفلك عند العرب ، ومحاضرات فى الفلسفة الإسلامية يلقيها الأستاذ سانْتِلَّانَا ، ومحاضرات فى الجغرافيا العربية يلقيها الأستاذ جويدى ، وكنت أحضر هذه المحاضرات لماماً فى غير انتظام ولا التزام ، لثقل العبء علىّ بمدرسة القضاء . ولكن على كل حال رأيت لوناً من ألوان التعليم لم أعرفه : استقصاء فى البحث ، وعمق فى الدرس ، وصبرٌ على الرجوع إلى المراجع المختلفة ، ومقارنة بين ما يقوله العرب وما يقوله الأفرنج ، واستنتاج هادئ رزين من كل ذلك .

وختمت حياتى المدرسية بموقف غليظ عنيف ثقيل ؛ ذلك هو يوم الامتحان النهائى ، فكما كان أساتذة المدرسة مختلفين متنوعين كانت لجان الامتحان مختلفة متنوعة : لجنة من كبار العلماء الأزهريين ، فيهم المفتى وشيخ المالكية وشيخ الحنابلة و بعض كبار القضاة ، ولجنة من كبار رجال القضاء الأهلى فيهم فتحى باشا زغلول وعبد العزيز باشا فهمى ، ولجنة من رجال العلم المدنى ، عالم فى الرياضة وعالم فى الطبيعة وعالم فى التاريخ وهكذا ، ولكن كان أثقلها وأبغضها اللجنة الأولى . فأما الامتحان التحريرى فقد مضى فى سهولة ويسر وكنت الأول ، وأما الامتحان الشفوى فى لجنة الأزهر فكان موضوعات معينة فى كل علم من العلوم الأزهرية : موضوع فى النحو وآخر فى البلاغة وثالث فى أصول الفقه ورابع فى المنطق ، وهكذا . وكل موضوع عبارة عن جملة أو جملتين من كتاب ، تعيَّن للطالب قبل الامتحان بعشرة أيام ، فمثلا فى البلاغة جملة : « واستغراق المفرد أشمل ، بدليل صحة لا رجال فى الدار إذا كان فيها رجل أو رجلان دون لا رجل » وهكذا فى سائر العلوم — أخذت هذه الموضوعات وقرأتها وفرغت منها كلها فى يومين وليلتين ، ولم أدر ما أصنع بالأيام الثمانية بعد ، ولكن بعد ثلاثة أيام مرّ علىّ فى بيتى شيخ أزهرى من كبار مدرسينا

كما مرّ على زملائى ليعرف كيف يحضّرون موضوعاتهم ، فسألنى أسئلة لا أعرف من أين أتت ولا كيف تتصور ولا كيف يجاب عنها . فخاف علىّ من الرسوب فى الامتحان ، وزارنى بعد ذلك مرتين أو ثلاثا يلقى علىّ هـذه الأسئلة العجيبة والأجوبة الغريبة ، ومع ذلك لم أتقدم كثيراً . وكان يوما أيوم يوم أديت هذا الامتحان ، فقد جلس هؤلاء الأساتذة الستة أو السبعة لا أدرى على الأرائك متكئين ، وفرشت لى فروة على الأرض جلست عليها متربعاً ، وبدأت أقرأ فى الكتاب الأول ، وأشرح جوهر الموضوع شرحا صحيحاً ، ولكن سرعان ما انهالت علىّ الأسئلة من كل جانب فأجيب حيناً وأعرق حيناً ، وأذكر من هـذه الأسئلة أن المؤلف لِمَ قال « أىْ » ولم يقل « يعنى » ؟ فلم أحر جوابا وهكذا . وهى أسئلة محفوظة مرن عليها الطلبة والأساتذة المتعمقون فى الدراسة الأزهرية ، ولم أمرن عليها لأنى اعتمدت فى دراستى على أبى ، وأبى أنقذنى من الحواشى ومن مثل هذه الأسئلة . وجلست هذه الجلسة على الفروة ست ساعات متواليات لا تتخللها راحة ولا شرب كوب ماء ، وكلٌّ من الممتحنين يخرج من حين إلى آخر يتمشى و يتروض ، ومن حين إلى آخر تقدم لهم القهوة والليمون وما إلى ذلك ولا يقدم لى شىء ، وأخيراً أفرج

عنى وسمح لى بالخروج ، فلما حاولت القيام لم أستطع أن أمد رجلىّ ولا أعدل قامتى ، وأخذت فى ذلك زمناً طويلا حتى عرفت كيف أقوم وكيف أمشى . ولم أدر كيف ذهبت إلى بيتى وكيف قضيت بقية نهارى وليلى ، ومهما كان الأمر فقد نجحت ولكن تأخر ترتيبى من الأول إلى السادس ، وكان هذا الامتحان الأزهرى على هذا الوجه الشاق أول امتحان فى مدرسة القضاء وآخره ، فبعده احتج عاطف بك فسهل الامتحان وقصرت مدته وتساهل الممتحنون فى درجاته .

— ١٥ —

كنت وأنا مدرس فى المدارس الابتدائية غير متفوق فى الإنشاء ، فانعكس الأمر فى مدرسة القضاء ، ففى الشهر الأول من دخولى المدرسة طلب إلينا أستاذ الأدب أن نكتب فى موضوع « أثر القرآن الكريم فى تدوين العلوم » ، وصادفنى التوفيق فى كتابة هذا الموضوع كما صادفنى أن وقعت ورقتى فى يد عاطف بك بركات فاستحسنه — وكان لا يعجبه العجب — وكان كلما أتى زائر للمدرسة طلب الورقة وقرأها عليه وسمع منه استحسانه ، فوقر فى نفس أستاذ الأدب تفوقى فى الإنشاء ، وحفزنى ذلك على الإجادة

فيما أكتب ، فكان يعطينى دائماً أعلى الدرجة ولو لم أستحق ، لأنه يقرأ ما فى نفسه أكثر مما يقرأ ورقة الإجابة ، واحتفظت بمكانتى هذه طول دراستى ، ودفعنى ذلك إلى الاتصال بالجرائد أريد أن أكتب فيها ، وكان لى صديق طالب فى المدرسة يتصل بالشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » ويفسح له فى جريدته حتى لينشر له مقالاته أحياناً فى صدر الجريدة ، فطلبت إليه أن يعرّفنى به ففعل ، واستكتبنى فكتبت مقالا عنوانه «خطأ العقلاء» موضوعه نقد سعد باشا على تركه نظارة المعارف وتقلده نظارة الحقانية ، لأن نظارة المعارف تحتاج إلى جهاد مع الإنجليز عنيف فى وضع أسس جديدة للتعليم ، وقد بدأ فى وضع هذه الأسس فمن الخطأ ألا يتمها ، وأن ينتقل إلى نظارة وضعت أسسها ولا جديد فيها إلا السير وفقاً للتقاليد المعروفة ، ولكن الشيخ على يوسف لم ينشر المقالة إما لضعفها أو لظروف سياسية تتعلق بالموضوع كان يراها ولا أراها ، وعلى كل حال كانت هى المقالة الأولى والأخيرة أيام طلبى .

أما فى غير الإنشاء فكنت راضيا عن نفسى فى دروسى كلها ، إلا ما يتصل بالحواشى الأزهرية والتدقيقات اللفظية فكنت أكرهها ، وذلك داء قديم ، ولكن لم تكن هذه تؤثر فى

الامتحان إلا ما كان من الامتحان النهائى للجنة الأزهر ، وكنت متفوقا على فصلى فى الحساب والجبر والهندسة آخذ مكافآتها كل عام ، كما أخذت مكافأة فى امتحان مقصورة ابن دريد حفظاً وشرحاً وفى كتاب « إميل القرن التاسع عشر » .

وتعرضت مرة وأنا فى السنة الثالثة لحادث خطير كاد يفصلنى من المدرسة التى لم أدخلها إلا بعد عناء — ذلك أنه أقيم سنة ١٩١٠ احتفال فى المدرسة لعيد رأس السنة الهجرية ، وعهدت إلىّ لجنة الاحتفال اختيار موضوع ، فاخترت « أسباب ضعف المسلمين » وبنيت محاضرتى على أن أسباب ضعفهم ترجع إلى شيئين أساسيين : الأول فساد نظام الحكم فى البلاد الإسلامية وما جره ذلك من ظلم للرعية وعسف بحريتها ، واستغلال الحكام لمالها وتسخيرهم قواها لملاذهم الشخصية ، والثانى رجال الدين فقد شايعوا الحكومات الظالمة وأيدوها ، وتآمروا معها و بثوا فى نفوس الشعب الرضا بالقضاء والقدر والاعتماد على نعيم الآخرة إذا حُرموا نعيم الدنيا — كل هذا أضعف من نفوس المسلمين وأذلهم وأنهك قواهم ، ولا أمل فى صلاحهم إلا بصلاح رجال الحكومة ورجال الدين الخ .

فلما أتممت الخطبة دوى المكان بالتصفيق ، ولكن راعنى أن استدعانى عاطف بك إلى جانبه ، وقال لى : هل جننت ؟

أمثل هذا يقال ؟ وطلب منى المحاضرة فسلمتها إليه ورأيته يسر إلى الشيخ الخضرى كلاما ، فيقوم يعقب علىّ و يقول إن المحاضر — بالطبع — يقصد الحكومات الماضية ورجال الدين الماضين ، أما الحكومة الحاضرة فلا مأخذ عليها ، وهى العادلة الحازمة ، وهى التى رعت مدرسة القضاء وأنفقت عليها وعلّمت طلبتها وغمرتهم بالخيرات ، وأما رجال الدين اليوم فمثال للنزاهة والطهر والرقى .

فلما انتهى الحفل قال لى عاطف بك : إن بقاءك فى المدرسة الآن بيد القدر ، فإن ذكرت الجرائد ما قلت واستخدمته فى الأغراض السياسية ضحيت بك حرصاً على المدرسة — وشاء الحظ ألا يكون ذلك ، وأن أبقى فى المدرسة .

وكان عاطف بك معذوراً ؛ فالمدرسة يحاربها الخديو و يتربص بها الدوائر و يدس لها الدسائس ، ورجال الأزهر لها كارهون ، و إنما تعتمد المدرسة على الحكومة ورضا الإنجليز عنها ، فإذا غضبوا هم أيضاً وغضبت الحكومة عليها لم يكن لها سند من أحد .

وقد كان الكلام فى السياسة وما حولها فى المدارس جميعها جريمة كبرى ، حتى كان الكتاب لا يقرر فى مدرسة من مدارس الوزارة إلا بعد إقرار من المفتشين بأنه خال من السياسة ، والمختارات من الشعر لا تعطى للتلاميذ حتى يقرها التفتيش ، وهو

لا يقرها إلا إذا خلت من السياسة بأوسع معانيها ، فإذا قال المتنبى:

سادات كل أناس من نفوسهمو
وسادة المسلمين الأعبُدُ القُزُمُ

أو قال بشار أبياته المشهورة فى الشورى ، قال شاعر أو ناثر شيئاً يتصل من قريب أو بعيد بالحكم ونظامه أو الحرية وقيمتها أو نحو ذلك فهذه سياسة محرمة يعاقب عليها المستر « دنلوب » أشد أنواع العقاب ، حتى ليروون أن مدرسة اقترحت كتباً لمكتبتها وكان من بينها المصحف الشريف فاحتيج أيضاً إلى إقرار بأنه ليس فيه سياسة ، وقد أعدى هذا جو مدرستنا فلم نسمع طول دراستنا كلمة واحدة من مدرسينا عن السياسة وشئونها والحكومة ونقدها ، والإنجليز وتصرفاتهم — وكل علمنا بهذه الأمور كان عن طريق اتصالنا بالجرائد ، فكنت أقرأ اللواء والمؤيد يوميا وأنفعل لهما وأتجاوب معهما .

ولم أر إضرابا فى المدرسة إلا مرتين : مرة كان فيها الإضراب سهلاً يسيراً يكاد يكون عاماً ، يوم خرجنا قبل انتهاء الدروس (١٠ فبراير سنة ١٩٠٨) نشيع جنازة المرحوم مصطفى كامل ، وكان يوماً مشهوداً اشتركت فيه جميع طبقات الأمة ونبض فيه قلبها وتيقظ فيه شعورها ، والمرة الثانية — بعد إتمامى الدراسة — يوم أضرب

فصل من فصول المدرسة ، لأن الناظر حتم عليه الألعاب الرياضية في مكان معين ، وكان هذا المكان مشمساً والدنيا حارة ، فاستأذن الطلبة أن يلعبوا فى الظل ، فأبى بحجة أن الطلبة يجب أن يتعودوا الخشونة فى العيش والصبر على الشدائد ، ولكن الطلبة لم يعجبهم هذا القول فامتنعوا عن اللعب ووقفوا فى الظل لا فى الشمس ، فلما علم الناظر بذلك رعب وامتقع لونه ، لأن هذه أول حادثة من نوعها ، فخضر فى حالة عصبية ولكنه كتم غيظه ، وطلب من الطلبة أن يصعدوا إلى فصلهم فأبوا ثم كررها فأبوا ، ففكر لحظة ماذا يفعل ، ثم رأى أن مخاطبة المجموع غير مجدية ، فنادى طالباً بعينه تفرس فيه الخوف والطاعة ، وأمره أن يخرج أمام الصف ففعل ، ثم قال له : إما أن تصعد إلى فصلك أو تخرج من باب المدرسة إلى الأبد ، وكل الطلبة كانوا يعلمون من الناظر جده وصدقه والتزامه تنفيذ وعده ووعيده ، فإذا قال الكلمة ففداؤها رقبته ، فتردد الطالب قليلا ، ثم صعد إلى فصله ، وتفرس أيضاً فنادى الثانى ، وقال له ما قال للأول ، ففعل فعله ، ثم نظر للجماعة نظر المنتصر الظافر ، وقال لهم : أظن أن لا معنى بعد ذلك للإضراب ، انصرفوا إلى فصلكم فانصرفوا وانكسر الإضراب

وكان شعورى الدينى ، وأنا طالب بمدرسة القضاء ، لا يزال

قويا كشعورى الوطنى بل أقوى منه ، حتى كان طلبة فصلى يسموننى «السُّنِّى» بينما يسمون غيرى الفيلسوف أو الزنديق. وأذكر مرة أن أحد أساتذتى كان ينكر معجزة نبع الماء من بين أصابع النبى (ص) فحاججته ، ثم انقلب الجدال إلى حدة منى فاحمر وجهى وغضبت على أستاذى غضباً شديداً ، فتقبل غضبى بالحلم والابتسامة الهادئة — واتصلت بشيخ طريقة صوفية ، وكان رجلاً ظريفاً نظيفاً أنيقاً لا يظهر عليه أى مظهر من التصوف إلا إشراق فى وجهه ورقة فى قلبه تظهر فى حركاته ، وكان يعمل فى الدنيا كما يعمل الناس ، فهو صيدلانى يطلع على كتب الطب القديمة ويصنع منها بعض الأدوية الناجحة فى بعض الأمراض ، وكان أديباً يتذوق الشعر ويقول الزجل الظريف ، ويستمع إلى شعر الغزل فيفهمه بذوقه الصوفى ، ويتأوله على طريقة الصوفية. استنشدنى مرة شعراً فأنشدته ، حتى إذا وصلت فى إنشادى إلى قول أبى تمام :

وأنجدتمو من بعد إتهام داركم   فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

استوقفنى واستعادنى فرأيت الدمع يترقرق فى عينيه ، وفى اليوم التالى أسمعنى تخميساً لطيفاً لهذا البيت — طلبت منه أن يعلمنى طريقة الصوفية ، ويقبلنى «مريداً» فوعد أن يكون

ذلك يوم الجمعة فى قبة الإمام الشافعى ، وذهبنا إلى هناك وانتحينا ناحية وجلسنا وقرأ علىّ العهد وتابعته ثم أعطانى الدرس الأول فى الطريقة .

وكان يلطِّف من عناء الدرس فى المدرسة مداعبات الطلبة ؛ ففى الفصل طلبة مكرة مهرة عركوا الحياة وعركتهم ، وعرفوا الدنيا وعرفتهم ، ولهم لسان طلق ذلق هجّاء ، وقدرة فائقة على السخرية اللاذعة ، وفيهم السُّذّج وأشباه السذج ، سلامة قلب وضعف حيلة وسوء تصرف ، وفيهم بين هؤلاء وهؤلاء — ولم يمض الأسبوع الأول من دخولنا المدرسة حتى تكشفت أخلاقنا وعرف بعضنا بعضاً ، وتبينت مواضع القوة ومواضع الضعف فى كل منا سواء من الناحية العقلية أو الخلقية ، فاستغل الأقوياء الضعفاء كما هو الشأن فى الوجود ؛ واتخذ بعضهم بعضاً سخريًّا ، لعب الماكر الماهر بالأبله الساذج لعب القرّاد بالقرود ، ووقفوا لهم بالمرصاد يحصون غلطاتهم ويؤولون تصرفاتهم بما يستخرج الضحك من أعماق القلب .

هذا مغفل نتضاحك من غفلته ، وهذا بخيل نتنادر على بخله ، وهذا سريع الغضب يهيج لأقل سبب ، فإذا هاج أتى بحركات بهلوانية واندفع فى السب والشتم ، فكنا نثير غضبه ثم نضحك

مما يصدر عنه ، وهذا إذا مشى فكأنه الديك الرومى فى انتفاشه ، وهذا إذا ضحك تقطعت ضحكته وطالت فكأنما هى نهيق ، ومن كل ذلك لهو طريف وضحك عميق ، فكأن الطبيعة عوضتنا عن هذا الجد العابس والدرس القاسى والعناء الرتيب بهذه الفكاهات الحلوة والمرة تنفس عن نفوسنا ، وتفرّج من ضيقنا .

وراعنى يوما وأنا فى مدرسة القضاء حادث لم يكن فى المدرسة ولكن بجوارها ، أثّر فىَّ أثراً بالغاً فذكرته ؛ ذلك أنه كان بجوار المدرسة بيت ثرى كبير ، له المزارع الواسعة والأملاك الكثيرة من مختلف الأنواع ، وكان يعيش عيشة فخمة أنيقة ، وفيه طيبة تحمله على الإنفاق على بعض الأعمال الخيرية ، وفيه سذاجة تمكن شياطين المال من استغلاله و إغوائه .

وكان من عظمته وأبهته وفخفخته أنه لما مدت شركة الترام خطا أمام بيته (هو خط الجماميز رقم ١٧) أبى عليها ذلك مدعيا أن الشارع فى ملكه وتحت حكمه ، فكانت عربته تنتظر أولاده صباحاً على الشريط أمام الباب ، فتمنع الترام أن يسير ، وتقف القطارات صفا طويلاً حتى ينزل أولاد الباشا و يذهبوا بالعربة إلى مدارسهم . وكتب إذ ذاك الشيخ على يوسف فى جريدة المؤيد مقالاً طريفاً فى هذا الموضوع ، والباشا

وشركة الترام فى نزاع طويل فى المحاكم أيهما المحق .

والباشا يسرف ويسرف ، ويبعثر الأموال يميناً وشمالا ، ولا تكفيه غلة أملاكه الواسعة ، فيمد يده يقترض من شياطين المال ، وأخيراً تستغرق أملاكه الديون ، وأمر وأنا فى طريقى إلى المدرسة فأرى حركة فى السراى كبيرة ، وأسمع الأجراس تدق إعلاناً ببيع أثاث السراى بالمزاد بعد أن خرج أهلها منها .

ولا أنسى يوماً أخرج من مدرسة القضاء ، فأرى الباشا الكبير يقف أمام محطة الترام ينتظر مجيئه لركوبه بعد أن كانت عربات الترام الكثيرة تنتظر عربة أبنائه حتى تتحرك بهم إلى مدارسهم .

(١٦)

هذا أنا ومدرستى . أما أنا وبيتى فقد كان بيتنا هادئاً مطمئناً سعيداً سعادة سلبية ، وأعنى بالسعادة السلبية السعادة الخالية من الآلام . أما السعادة الإيجابية من فرح ومرح وضحك ونحو ذلك فقد كان بيتنا خالياً منها تقريباً ، لإفراط أبى فى جده وحبه للعزلة وعكوفه على القراءة أكثر وقته .

وكان بيتنا يتألف من أبوىّ وأنا وأخ وأخت يكبراننى وأخ وأخت يصغراننى .

كان أخى الأصغر شاباً مرحاً ذكياً مملوءاً بالحياة ، كثيراً ما يثور على تقاليد البيت التى وضعها أبى ، فهو يتأخر عن موعد العودة ، وهو يذاكر ويلعب ويجد ويهزل ، وكان ذلك يغيظ أبى فيكثر بينهما الجدال والخصام ويزداد ذلك فيصل إلى حد الضرب — علّمه أبى كما علّمنى ، والتحق بمدرسة تابعة للأوقاف تجمع فى تعليمها بين العلوم الدينية والمدنية ، ثم تخرج منها والتحق بمدرسة القضاء فى القسم الأول ، إذ كانت مدرسة القضاء تنقسم إلى قسمين ، قسم أول ومدته خمس سنوات ، وقسم عال ومدته أربع سنوات ، وهذا الأخير هو الذى التحقت أنا به ، وكان أخى فى السادسة عشرة من عمره ، وقضى السنة الأولى فى المدرسة بنجاح . وتفوق فى الرياضة فنال جائزتها ، وجاء الصيف وجاءت الإجازة ، ودعانى صديقى من شبين الكوم أن أقضى عنده أياماً ففعلت ، ورجعت فوجدت البيت واجماً ، ووجدت أخى هذا قد بسط له فراش فى وسط الغرفة وهو لا يكاد يعى من ارتفاع حرارته ، ومن حين لآخر يتألم ويتأوه ، وكل من فى البيت خائف مرتعب — ذهبت من فورى إلى الطبيب واستدعيته فحضر وفحصه فحصاً طويلاً ثم هزّ رأسه ، ونزلت معه أستفسر عن الحال ، فقال إنها الحمى التيفودية والحالة خطيرة ، ولا تمكن العناية به فى مثل هذه الحالة إلا إذا نقل

إلى مستشفى الحميَّات ، ووصف الدواء وطريقة العلاج وانصرف ، ورجعت إلى أمى وأبى فى خوف وقلق أشير عليهما بنقله إلى المستشفى فرفضا ، فالمستشفى كلمة مرعبة مقرون اسمها فى ذهنهما وفى ذهن الشعب كله بالموت ، وهم لا يسمونه بالمستشفى كما نسميه ، ولكن يسمونه « الأشلاء » وحاولت طويلاً أن أفهمهما المستشفى ومزاياه وشدة عنايته بالمرضى فى مثل هذه الحال والوقاية من العدوى ونحو ذلك فلم أفلح — اشتد عليه المرض واشتد منا القلق وانقبضت نفسى انقباضاً شديداً حتى لأحسست أن روحى تكاد تخرج من بين جنبى ، وأخرج من البيت ولا أدرى أين أذهب وأعود ولا أدرى لم عدت ، ولم يغن الطبيب ولم يغن الدواء واشتد الحال سوءاً ، وأخيراً و بعد كرب شديد لفظ نفسه الأخير ، وقامت قيامة البيت ، وامتلأ عويلاً وصراخاً ؛ فأما أمى فتلطم وجهها حتى تسقط مغشياً عليها ، وأما أبى فيحترق قلبه فى الباطن و يتجلد فى الظاهر ، وتُعَد العدة لدفنه وتسير جنازته إلى الإمام حيث أعدَّ أبى مدفنه ، و يرفض أن يقيم مأتما وأن يقابل أحداً ، فأقيم المأتم وأقابل الناس و ينقلب بيتنا محزنة . وكلَّ خميس يجتمع النساء للعويل والصراخ وتدعى (المعدِّدة) تغنى غناء حزيناً بكلام يثير الشجون ، و يقطع القلوب ، فلما فرغت (خمساننا) التزمت أمى أن تذهب كل خميس

إلى بيت مأتم ، تعرف أهله أو لا تعرفهم ، فكل المآتم سواء ، وكل الحزانى أصدقاء ، وتنفرد بنفسها (فتعدّد) كالمعددة ، وكل شيء يلهمها البكاء — حجرته التي كان ينام فيها ، ومكتبه الذي كان يذاكر عليه ، وكتبه التي كان يذاكر فيها ، وأصدقاؤه الذين كان يلقاهم وكل شيء يذكرها به ؛ موعد الأكل ، وموعد الخروج إلى المدرسة . وموعد العودة منها . فأما أبي فقد صبر على حزن دفين ، وتجلد حتى أَبَى إلاّ أن يغسِّله بيده ويدفنه بيده ، وكانت سلواه أَنْ يكثر من تلاوة القرآن ويهب ما يقرؤه إلى روحه ، وسمع بكتاب للسيوطي اسمه « فضل الجَلَد عند فقد الولد » فنسخه بيده ، يتصبر بقراءته وكتابته ، وأما أنا فقد وضع هذا الحادث على عيني منظاراً أسود ، فلا أرى في الدنيا إلا السواد ، ولا أحب أن أسمع من الأصوات إلا صوت البكاء ، فالشجرة الناضرة إلى ذبول ، والحياة المبتهجة إلى فناء ، والحمامة إذا غنت فإنما تبكي ، والسعيد إنما يسعد ليشقى ، وانقلبت في عيني قيم الأشياء ، فهذا الذي يكسب المال لِمَ يكسبه ؟ وهذا الذي يعمل لِمَ يعمل ؟ والناس مجانين إذا تخاصموا ، ومجانين إذا لهوا أو ضحكوا ، فالدنيا لا تزن جناح بعوضة ، وخير للناس أن يقضوا حياتهم من غير اكتراث حتى يدركهم الموت ؛ واستولى هذا الحزن عليّ أسابيع

بل أشهراً حتى سميت فى مدرستى « بمالك الحزين » ، فإذا نسيت الحزن بعض الوقت فى مدرستى ذكرته فى بيتى من منظر أمى ، ولا تسل عن موقف دقيق وقفته وحرت فى التصرف فيه ؛ فقد أتى موعد صرف مكافأة المسابقات فى المدرسة ، وكان أخى هذا الذى مات يستحق مكافأة الرياضة ، وهى لا تصرف إلا بإمضاء مستحقها فإذا لم يكن فإمضاء أبيه ، وأنا واثق أنى إذا أخبرت أبى فإنما أشعل فى قلبه ناراً جديدة ، وأعيد عليه يوم مأتمه من جديد ، ففضلت أن أترك المكافأة وألاّ أخبر بها أبى .

ومضت سنة و بضعة أشهر والحزن يتحول من نار مشتعلة إلى نار هادئة قد علاها بعض الرماد ، وجاء رمضان وأنا فى السنة الثالثة من مدرسة القضاء فنغر الجرح الذى لما يندمل ، واشتعلت النار التى لما تنطفىء .

كان أخى الكبير فى نحو الخامسة والثاثين من عمره وكان رجلاً صالحاً طيب القلب مشرق الوجه فى نضرة وحمرة ، ولكنه كان محدود الذكاء ، لم يضطرب أبى فى تعليمه اضطرابه فى تعليمى ، ولم يتردد بين مدرسة وأزهر كما تردد فىّ ، فقد حفظ القرآن والمتون ، والتحق بالأزهر واستمر فيه وفى دراسته الطويلة نحو عشرين عاماً ، يتنقل بين كتب الأزهر ومشايخه ، حتى إذا أتمّ الدراسة

خاف من الامتحان النهائى ، فهو يقدم ثم يحجم ثم يقدم و يحجم ، لا يجذبه الطموح ولا يدفعه إلى المغامرة حب المجد ، قد تزوج وخلَّف ابناً و بنتاً ، وهو وأهله يقيمون معنا فى البيت ، وحياته بين بيته ومسجده وأزهره ؛ فلما جاء رمضان هذا كان برنامجه أن يصوم النهار و يصلى صلاة التراو يح فى المسجد و يعود إلى منظرة البيت يقرأ فيها القرآن وحده أحياناً ومع صديق له مكفوف البصر أحياناً حتى السحور ، ثم يتسحر و ينام إلى قريب من الظهر ، وهذا دأبه .

ففى ليلة من أواخر رمضان صلّى أخى العشاء والتراويح كما كان يصلى ، وعاد إلى البيت يقرأ القرآن كما كان يقرأ ، وتناول سحوره كما كان يتناول ثم نام ونمنا ، و بعد قليل سمعنا صرخة قمنا لها مذعورين ، وذهبنا إلى مصدر الصوت ، فإذا هى زوجته تصرخ ، و إذا هو ممدود على الأرض لا يعى ، ونناديه فلا يسمع ونستجوبه فلا يجيب ، وليس فيه إلاّ نفس يتردد ، فحملناه إلى سريره ، وقضينا آخر الليل فى رعب لا يوصف ، و بكاء لا ينقطع وحزن ذكّر بحزن ، فلما أصبح الصباح ذهبت إلى أكبر طبيب أفرنجى مشهور وسألته أن يذهب معى مبكراً ، ورأى لوعتى فقبل رجائى ، وحضر معى إلى البيت و كشف على المريض ، فلما

تبعته أخبرنى أنه انفجار فى المخ نشأ عنه شلل فى النصف الأيسر ووصف له الدواء فأحضرته . وقمت على علاجــه أُعنَى بشأنه ، وأناوله الدواء فى موعده حتى أخذ يتحسن فى بطء ، وتحرك لسانه فى ثقل ، وحرّك يده ورجله فى تخاذل ، ومشى مشية الصبى بدأ يتعلم وخرج من البيت يجر رجله وحالته فى تحسن مستمر ، والطبيب يعوده من حين إلى حين ، ولــكن ما لبث نحو شهرين حتى انتكس ، وأصيب ثانياً أشد مما أصيب أوّلا ، واستحضرت له الطبيب نفســه فقلب كفيه يخبرنى أن لا أَمَلَ وكانت النهاية ، وكان الحزن شديداً وكانت المصيبة قاسية ، وكانت النصال تتكسر على النصال ، ولم يجد أبى وأمى من سلوى إلّا أَنْ يحجا و يقفا بعرفة و يزورا المدينة و يضعا أيديهما على ضريح النبى صلى الله عليه وسلم يسألان الرحمة للفقيدين والصبرَ للأبوين .

(١٧)

لم يعبأ ناظر مدرسة القضاء بالترتيب فعيننى مع الثلاثة الأول — و إن كنت السادس — مدرساً فى المدرســة بعد شهرين من تخرجى ، وابتدع فى المدرسة نظاماً لم يكن معروفاً فى مصر ، وهو نظام المعيدين ، فأتبع كلّ معيد بأستاذ كبير يحضر معه الموضوع

ويدخل معه فى الدروس ، ووزع المعيدين على الأساتذة بحسب كفاياتهم وميولهم ، فهذا معيد مع أستاذ الفقه وهذا معيد مع أستاذ الأدب ، واختارنى معيداً معه فى دروس الأخلاق ، وهذا كان سبباً فى شدة اتصالى به واستفادتى منه ، فكنت أذهب إلى بيته فى كثير من الأيام عند تحضير درس ، وكان يحضّره من كتب الأخلاق الإنجليزية ، فكان يقرأ بالإنجليزية ويمليني بالعربية ، وأحياناً ينفرد هو بالترجمة ثم يسمعنى ما ترجم ، وكنا نتناقش فى الدروس قبل إلقائها ، وأحياناً يجرنا الحديث من موضوع الدرس إلى موضوع آخر اجتماعى أو دينى أو سياسى ، فيعرض آراءه ويستمع إلى مجادلتى ، وقد أثَّر فىَّ أثراً كبيراً من ناحية تحكيم العقل فى الدين ، فقد كنت إلى هذا العهد أحكّم العواطف لا العقل ، ولا أسمح لنفسى بالجدل العقلى فى مثل هذه الموضوعات ، فالدين فوق العقل ، فإن جاء فيه ما لا يدركه العقل آمنا به ، لأن علم الله فوق علمنا ، وهو أعلم بما يصلحنا وما يضرنا ، وهو يأبى إلا تحكيم العقل والبحث عمّا لا نفهم حتى نفهم ، وكان له غرام بالبحث ، وصبر على الجدل وطول نَفَس فى المناقشة حتى ليفضّل من يناقشه أن يسكت أخيراً وإن لم يقتنع ، من طول ما أدركه من التعب والعناء . كان من أثر هذا الجدل الدينى أنى أعملت عقلى

فى تفاصـيل الدين وجزئياته ، أما جوهر الدين من إيمان بالله وجلاله وعظيم قدرته فظل سا كناً فى أعماق قلبى لم ينل منه أى جدل ولم يتأثر بأى قراءة ، وكل ما فى الأمر أنى صرت أكثر تسامحا مع المخالفين ، وأوسع صدراً للمعارضين .

واستفدت منه سعة فى الأُفق ، فقد كان — بحكم تربيته فى الأزهر وفى دار العلوم وفى انجلترا ، وبحكم بيئته التى يعيش فيها ، ومجالسه التى يجلس إليها ، ومخالطته أَمثال سعد زغلول وفتحى زغلول وقاسم أمين — مطلعاً على كثير من الشئون — معتنقاً لـكثير من الآراء القيمة بعد البحث والدرس واستعراض الآراء المختلفة . كما قبست قبسة من خلقه ، فقد كان صريحاً صراحة قد تجرح ، صادقا فى قوله ولو آلم ، مشتدا فى العدل ولو على نفســه ، ملتزماً النظام ولو ضايق نفسه وضايق من حوله — أذكر مرة أنه طُلب للشيخ محمد المهدى أعلى درجة مالية فى المدرسة ، وأوصى الخديو بمنحها له ، وكان عاطف بك يرى أن غيره أحق منه ، فاجتمع مجلس الإدارة برياسة شيخ الجامع الأزهر ، وعضوية عبد الخالق باشا ثروت وغيره وكلهم يرى أن المسألة صغيرة لا تستحق مغاضبة الخديو من أجلها ، فوافقوا على إعطائه وصمم عاطف على رأيه ، فلما لم تنجح حجبه طلب أن تدوَّن فى المحضر معارضته ، ومُنح الشيخ المهدى الدرجة

بالأغلبية فذهب الشيخ مهدى ليشكره ، فقال عاطف لا تشكرنى يا أستاذ فقد كنت معارضاً ، قال الشيخ مهدى إذن فلأشكر الله . وهو لا يقبل الرجاء يمس به العدل ولو خاصم فى ذلك أكبر كبير .

ولما كان وكيلا للمعارف تقدم طالب إلى مدرسة وسنه تزيد عن السن القانونية فأبى ، وألح سعد باشا فى قبوله فأبى إلا أن يعدَّل القانون ويقبل جميع من كانوا فى مثل سنه .

لازمت عاطف بك فى دروس الأخلاق هذه سنين ، وكنت كلما تقدمت فى تحضير الدروس معه حمّلنى عبء تدريس هذا العلم تدريجاً . هذا إلى دروس أخرى كنت أستقل بتدريسها من فقه أحياناً ، وتاريخ إسلامى أحياناً وغير ذلك . وكان عنائى بالدرس أيام كنت مدرساً لا يقل عن عناء الدرس أيام كنت طالباً ، فقد أقضى الساعات الطويلة فى تحضير الدرس الواحد من مصادره المختلفة ، وأكتب المذكرات للطلبة فى كل مادة أدرّسها .

واتصلت بصديقى وأستاذى أحمد بك أمين ، فقد درَّس لنا بعض المواد القانونية أيام كنت طالباً ، فلما تخرجت انقلبت الأستاذية إلى صداقة ، ففى إجازة من الإجازات الصيفية اتفقنا على أن نقرأ كتاباً فى أصول الفقه ليقارن بينه و بين أصول القوانين فى التشريع المدنى ، فكنا نجتمع كل يوم صباحاً

ونقرأ نحو ساعتين فى كتاب «الموافقات» للشاطبى ، و بعد أيام من قراءتنا فى هذا الكتاب اقترح علىّ اقتراحا غريباً ، وهو أن نضيف إلى قراءتنا فى أصول الفقه قضاء ساعة فى دراسة الآثار الإسلامية ، فأحضرنا خطط على باشا مبارك نقرأ فيها كل يوم الآثار الموجودة فى شارع من شوارع القاهرة ، من مساجد وتكايا وأسبلة وبيوت أثرية ونحو ذلك ، فإذا جاء العصر التقينا فى أول هذا الشارع ، ومررنا على كل مسجد ، ندخله ونطبق ما كتبه على باشا مبارك فى خططه ، ونعرف تاريخه ومن بناه ، ونقرأ اللوحات الرخامية التى تمدنا بهذه المعلومات ، واستمررنا على ذلك نحو ثلاثة أشهر أتممنا فيها كل شوارع القاهرة ، وألممنا فيها بكل آثارها ، فكان درساً غريباً مفيداً .

و إلى جانب ذلك اشتقت جداً إلى أن أعرف لغة أجنبية . فهؤلاء أساتذتى العصريون يُدلّون بمعرفتهم لغة أجنبية — هذا يُدل بلغته الفرنسية ، وهذا يدل بلغته الإنجليزية ، وكل يعتمد عليها فى تحضير دروسه ، ويذكر لنا أنها تساير الزمان ، حتى إن الكتاب المؤلف فى علم منذ عشر سنوات لا يصلح أن يكون مرجعاً اليوم إلا بعد التعديل ، لا كالكتب الأزهرية التى يدعى أنها تصلح لكل زمان ومكان ، ولأن هؤلاء الأساتذة كانوا

يقولون دائما إن من اقتصر على اللغة العربية يرى الدنيا بعين واحدة ، فإذا عرف لغة أخرى رأى الدنيا بعينين . لهذا فكرت أن أتعلم لغة أجنبية ، وحرت بين الإنجليزية والفرنسية ، ثم فضلت الفرنسية اعتماداً على أنى تعلمت مبادئها فى صغرى وأتممت دروسها إلى السنة الرابعة يوم كنت فى مدرسة والدة عباس باشا ، فاستذكار القديم والبناء عليه أهون من الابتداء فى تعلم لغة جديدة ، وبحثت عن مدرس واتفقت معه على أن يدرس لى أربعة دروس فى الأسبوع ، واشتريت الكتب ، وبدأت أذاكر الدروس الأولى ، ولكن — للأسف — وقع اختيارى على مدرس خائب ، فهو لا يحتفظ بموعد ، ولا يهتم بدرس ، وصبرت عليه صبراً طويلا حتى مللت وانصرفت عن الدرس إلى حين .

وفى هذه المدة اتصلت بحزب الأمة الذى تكوّن بجانب الحزب الوطنى ، وحزب « الإصلاح على المبادئ الدستورية » ، وعلى الأصح اتصلت بجريدته المسماة « بالجريدة » التى كان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفى السيد بك ، وكانت حجرته فى الجريدة منتدًى لجمهرة من الشبان المثقفين ، ومن حين لآخر كانت تلقى فى فناء الدار محاضرات سياسية يدور حولها الجدل . ولست أنسى يوماً كان يحاضر فيه الشيخ على يوسف صاحب

جريدة المؤيد ، وكان يحضر الحفل عدد كبير من رجال السياسة منهم إبراهيم بك الهلباوى ، فما نشعر إلا وقد أطار جماعة من طلبة الحقوق حماماً أعدوه معهم لهذا الوقت تنكيلاً بإبراهيم بك الهلباوى إذ كان محامياً عن الإنجليز فى حادثة دنشواى التى كان سببها الحمام ، وساد الهرج والمرج ، وخيف على الشيخ على يوسف وإبراهيم بك الهلباوى من الاعتداء . فحضر البوليس ومكنهما من الخروج آمنين ، وقد استفدت من هذا الاتصال شيئاً من الثقافة السياسية والاجتماعية بفضل أحاديث أستاذنا لطفى بك ، ومحاضرات المحاضرين والاتصال بنخبة من خيرة المثقفين .

استمررت مدرساً فى مدرسة القضاء سنتين . وكانت هناك مشكلة وهى أنى لم أنجح فى الكشف الطبى لقصر النظر ، فعينت (ظهورات) حسب اصطلاح المستخدمين ، ومعنى هذه الكلمة أن الموظف الذى يعين على هذا الشكل ليس له حق فى المعاش عند بلوغه السن ، وليست له ضمانات فى بقائه فى الوظيفة ، إذ يكفى إشارة من الرئيس بالاستغناء عنه فيستغنى . أما الموظف الثابت أو على حد تعبيرهم (المثبّت) فله الحق فى المعاش ، ولا يُخرج من الخدمة إلا بمجلس تأديب يقرر فصله ، وهى ميزات لا يستهان بها ، وأنا من طبعى تفضيل التدريس على القضاء

ولكن أود لو كنت مدرساً (مُثَبَّتًا)، ففكر عاطف بك حرصاً على مصلحتى أن أعين قاضياً لمدة قصيرة — والقاضى يعين بمرسوم، ولا يحتاج من يعين بمرسوم إلى كشف طبى — فإذا عينت قاضياً كنت (مثبتاً)، فإذا انتقلت إلى مدرسة القضاء نقلت (مثبتا) وكذلك كان. ولكن أتت مشكلة أخرى وهى أن مدير المحاكم الشرعية أبى إلا أن يعيننى قاضياً فى الواحات الخارجة، وهى بلد بعيد يشق انتقالى إليها على أبى وأمى اللذين أصبحا لا يجدان عزاءً من فقد أخوىّ إلا بقائى بينهما، فحاولت ما استطعت وحاول عاطف بك ما استطاع أن يغير الواحات بأى بلد آخر فلم نستطع، فتوكلت على الله وقبلت الوظيفة واستعددت للسفر إلى الواحات.

وقد قضيت فيها ثلاثة أشهر، ولا أدرى ما الذى بعثنى على أن أدوِّن مذكرات يومية لهذه الرحلة فلأنقل هنا بعضها:

الأربعاء ٢٣ أبريل سنة ١٩١٣:

اعتزمت السفر إلى الواحات الخارجة، وذهبت إلى المحطة وودعنى عدد كبيرمن طلبة المدرسة ومدرسيها، واعتذر الناظر لارتباطه بموعد آخر، وكان وداعاً مؤثراً حقًّا اختلط فيه شعور الفرح الشديد بالحزن الشديد — فرحت لما رأيت من مظاهر الوفاء والإخلاص، حتى

جرى الطلبة مع القطار فى بدء تحركه وآثار الحزن بادية على وجوههم ، وحزنت لحالة أبى وأمى وفراقهما من غير عائل يعولهما ، ووصلت إلى أسيوط فى الساعة الثالثة بعد نصف الليل وذهبت إلى أقرب فندق ، وفى الصباح سألت عن المحكمة الشرعية فوجدتها فى بناء جميل فرش فرشاً جميلا ، واستقبلنى رئيس المحكمة استقبالا حسناً ودعانى للغداء معه ، وعرض علىّ فى المساء أن يزيرنى بعض بيوت الكبراء ، وتقابلنا وأزارنى بيت الهلالى ، و بيت خشبة ، وعندما زرنا البيت الثانى وجدنا مدير أسيوط هناك ، يحف به كثير من الأعيان ، فاستقبلنا استقبالا فاتراً ، ثم جلس يتحدث والقوم منصتون كأن على رؤوسهم الطير ، يؤمّنون على كلّ ما يقول ولا يجرؤ أحد أن يخالفه فى قول ، وكان موضوع حديثه المقارنة بين أقباط أسيوط ومسلميها ، وأن الأقباط أكثر جدا فى الحياة وسعياً فى طلب الرزق ، وحرصاً على ما يدخل فى يدهم من مال وأكثر تعليما لأولادهم ، وأكثر قبولا للمدنية الحديثة ، وأن المسلمين يجب أن يسيروا سيرهم و يعنوا بأمورهم وهم أولى بذلك .

٢٦ أبريل :

بعد أن قضيت يومين فى أسيوط رأيت فيهما المدينة ومبانيها ومتاجرها ومساجدها وخزّانها . ركبت قطار الصعيد

فى الساعة الثالثة بعد نصف الليل ؛ فوصلت مواصلة الواحات فى الساعة السابعة صباحا ، ثم انتقلت إلى قطار الواحات ، فسار القطار سيراً بطيئاً و بدت لى الصحراء متسعة الأرجاء ، طوراً يمد الناظر نظره فلا يرى إلا أرضاً منبسطة كلها رمال ، وطوراً يرى هضبات مرتفعة ، ومررت على أرض يسمونها «غيط البطيخ» ، لأنها أرض رملية واسعة بعثرت فيها أحجار مكوَّرة كأنها البطيخ ، وكان لون الرمال يختلف كلما سرنا فتارة أحمر وتارة أصفر وتارة غيرهما ؛ وظلَّ هذا منظر الصحراء حتى وصلت بلدة المحاريق فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكان يقيم فيها المنفيون ، ثم وصلت الخارجة فى الساعة الرابعة ، فكانت مدة الطريق نحو تسع ساعات ، ولو أسرع القطار لقطعها فى ثلاث أو أقل ، وكان يحزننى أثناء الطريق ذكرى أبوى الشيخين وحنينى إلى وطنى وألمى من غربتى ، فلما قاربت الوصول إلى الخارجة ، مررت على مركز لشركة إنجليزية أنشئت لتستغل أرض الواحات ، فرأيت إنجليزيين يقفان فى الشمس يشرفان على العمال ، فقلت فى نفسى أيأتون من إنجلترا الباردة إلى الواحات المحرقة طمعاً فى الكسب وأملا فى النجاح ، و يعيشون عيشة فرحة مستبشرة ، وتأتى أنت من بلدة فى مصر إلى بلدة أخرى فى مصر ، ليس بينهما إلا أقل من يوم ثم تحزن وتبكى ؟ — خجلت من نفسى وتبين لى سبب

من أسباب نجاحهم و إخفاقنا وغناهم وفقرنا . وعاهدت الله ألا أحزن بعد ذلك ولا أبكى .

٢٩ أبريل :

نزلت يومين ضيفاً على معاون الإدارة ، إذ لم يكن للواحة مأمور و إنما يقوم مقامه معاون ، و بحثت عن بيت أسكنه ، وأخيراً اهتديت إلى بيت هو خير ما رأيت ، أجرته ثمانون قرشاً فى الشهر دوران بنيا بالطوب النيء ، وسقفا بجذوع النخل . إذا فُتحت شبابيكه أسندت بقطع حجرية، أحسن ما فيه أنه بسيط خلا من كل مظاهر المدنية والحضارة ، يطل من ناحيته البحرية على بساتين زرعت نخيلاً ومشمشاً و برتقالاً ، و يطل من ناحيته الجنوبية على الصحراء الرملية ، و بعد أن استرحت فيه قليلاً سمعت الباب يدق ، فجاءنى الخادم يقول إن أخا المأذون بالباب ، فأذنت له ، فدخل ووراءه غلام يحمل صفحتين فى يديه ، فى إحداهما لحم نىء ، وفى الأخرى أرز غير مطبوخ . قلت : ما هذا ؟ قال هى هدية من أخى المأذون ، فاعتذرت فى رفق . فأخذ يتلو علىّ الأحاديث الكثيرة فى فضل الهدية وقبولها ، فاضطررت أن أعتذر فى عنف ، و بعد ساعة أو ساعتين دق الباب ثانية ، فإذا بخادم العمدة يحمل معه عشر برتقالات ، وهى فى نظرهم هدية ثمينة ، لأن

زمن البرتقال قد انقضى من الواحات وأصبح فيها تحفة ثمينة ، فاعتذرت أيضاً .

٣٠ أبريل :

زرت الخارجة ، وقد علمت أن عدد سكان بلدانها كلها ٨٣٨٣ نفساً ، وأكبر بلادها الخارجة ، فهى تزيد عن خمسة آلاف ، ثم باريس فهى ألف و بضع مئات ، ثم بولاق وهى تزيد عن الألف ، ثم جناح وهى تزيد عن أربعمائة . أكثر كسبهم من النخيل فى موسم البلح ، وهم يزرعون القمح والأرز والشعير والفول السودانى والمشمش والزيتون والبرتقال وقليلاً من البطيخ ، وحب القمح والأرز ضئيل كأهلها وحيواناتها ، وقد أُخبرت أنهم إذا أرادوا أن يزرعوا قمحاً فلا بد أن يأتوا بالتقاوى من الصعيد ، ولا يبذرون قمحهم لأنهم إن فعلوا ذلك خرج المحصول فى غاية الضعف والصغر ، و بيوتها كبيوت قرى الريف المصرى الحقيرة ، مبنية بالطين مسقوفة بجريد النخل ، و بعض شوارعها مسقوف و بعض أجزاء هذا السقف واطئ حتى يضطر السائر أن ينحنى وهو يسير انحناءً يقرب من الركوع ، وترى الرجال والأطفال إذا مرّوا فى هذه الشوارع مساءً يحملون أعواداً من الخشب يشعلونها ليهتدوا بها و يتقوا العقارب .

فيها طائفة من العميان يعملون سقائين وهم يسيرون جماعات وعلى ظهورهم القرب ، يحملون الماء من العيون إلى البيوت ، وليس بها سقّاء إلا أعمى ، وأغرب مناظرها منظر العيون تنبع من الأرض وتجرى فى الجداول ، وبعضها طبيعى و بعضها مصنوع ، و بعضها كبير وبعضها صغير ، و بعضها قد بذل فى عمله جهد كبير ، و بعضها يدل مظهره على أنه من أثر الرومان ، والناس يملكون ماء العين بالساعات ، قسم الأسبوع إلى ساعات ، فمنهم من يملك العين ساعتين أو ثلاثاً أو أكثر فى الأسبوع ، يسقى فيها أرضه وزرعه .

٧ مايو :

زرت كُتَّاباً فى الخارجة ، وهو أسطوانى الشكل بنى على صخرة وليس فيه منفذ للضوء إلا الباب ، أرضه طين جاف ليس مفروشاً بشىء إلا بعض أبراش فى جوانب الحجرة يجلس عليها الأطفال ، وسألت عن الفقيه فلم أجده ، ورأيت الأطفال يقرأون فى ألواح من الصفيح طليت بالطَّفل وهم يطلونها كلما مسحوا اللوح وجددوا الكتابة ، ولفت نظرى طفل كبير ، أخذت لوحه فوجدته قد كتب فيه المعوذتين و بعدهما : « وقد تم طبع هذا المصحف الشريف فى مطبعة كذا » . وهو يحفظه على أنه من القرآن الكريم .

٩ مايو :

صليت الجمعة فى مسجد البلدة ، وأغرب ما سمعت أن الخطبة كلها كانت حثًّا على الزهد وتحذيراً من السفر إلى أوروبة لقضاء الصيف . مع أن أهل الواحات زهّاد بطبعهم لا يجدون ما يأكلون إلا بعد العناء ، وما سمعوا قط باسم أوروبة إلا من الخطيب وما حدثتهم أنفسهم حتى ولا بالسفر إلى الصعيد ، ولكن لا عجب فالخطيب يحفظ خطبته من ديوان مطبوع من غير نظر إلى ما يلائم وما لا يلائم . وطلب منى أن أقرأ درساً بعد الجمعة فقرأت درساً موضوعه « الحث على العمل ومضار الكسل » واعتقادى أن لا قيمة لهذا الحديث وهذا الدرس ، فهم لا يصلحون إلا بإصلاح بيئتهم .

١٠ مايو :

اليوم جلست أول مرة فى مجلس القضاء فتهيبته ، لأنى مع دراستى الفقه بأكمله دراسة واسعة عميقة ، وأصول الفقه بأكملها دراسة واسعة عميقة كذلك ، ونظام القضاء والإدارة سواء فى ذلك القضاء الشرعى والأهلى والمختلط ، ونظام المرافعات وما إليها ، وعرضت علينا نماذج كثيرة من القضايا وحيثياتها وأحكامها ، وزرنا بعض المحاكم واستمعنا لبعض قضاياها ، ودرسنا بعض

القضايا العويصة ذات المبادىء ، مع كل هذا تهيبت هذا المجلس وخجلت من نفسى ، وخجلت ممن حولى ولم أدر ماذا أفعل ، وكان موضوع القضية طلب امرأة نفقة من زوجها الغائب ، وجلس الكاتب عن يمينى ونادى الحاجب المدعية فحضرت ، ونادى المدعى عليه فلم يحضر ، و إلى هنا ارتبكت ولم أدر ماذا أملى على الكاتب ، فهربت من الإملاء عليه وحكمت فى القضية حيثما اتفق وأمرت الكاتب أن ينتظر ورفعت الجلسة ، ثم عدت إلى سجل القضايا أبحث عن قضية مثلها لأتعرف كيف كتب فيها ، ثم أمليت على الكاتب على نمط ما فى السجل مع تغيير أسماء الأشخاص ومقدار النفقة وكان موقفاً مخجلاً حقاً يدل على أن العلم غير العمل .

١٣ مايو :

كتب إلىّ صديقى وأستاذى أحمد بك أمين كتاباً ظريفاً مفيداً ، ومما جاء فيه : « إن كلمة واحة مصرية قديمة ، وإن الواحات الخارجة هذه كان اسمها « واحت رست » أى الواحات الجنوبية ، وإن كلمة واحة كان معناها فى الأصل الكفن أو المومياء ثم صارت تطلق على مقر الأبرار من الأموات ، لأن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن الواحات الخارجة هى مقر الأبرار ، وأن الواحات الداخلة مقر الأرواح ، وقد قرأت فيما قرأت أن

عندكم بلداً اسمه تادروه به ثلاثة معابد ، أحدها من عهد البطالسة والآخر من عهد الرومان ، وقرأت أيضاً أن الواحات الخارجة كانت فى أول عصر المسيحية مقراً للزهاد من المسيحيين الذين انقطعوا عن العالم للعبادة ، ولهم من الآثار بتلك الجهة مقبرة كبيرة تسمى البجوات بها نحو مائتى قبر ، ولا يزال ببعض هذه القبور نقوش حسنة » ، وقد أثّر فىّ هـذا الخطاب فعزمت أن أزور الآثار القديمة الموجودة بالخارجة ، كما فعلت مع صـديقى هذا فى زيارة الآثار الإسلامية .

١٤ مايو :

بعض موظفى الحـكومة هنا يتزوجون زواجاً يشبه زواج المتعة ، فالموظف يختار فتاة يستجملها و يتزوج بها ، فإذا حلَت فى عينه فتاة أخرى طلق الأولى وتزوج الثانية ، وتبقى معه الزوجة إلى أن يصـدر الأمر بنقـله من الواحات فيطلقها و يرضيها بقليل من المال . وقد تأتى منـه بولد أو أ كثر ، فبعضهم يترك الزوجة وأولادها ، و بعضهم يأخذ أولاده معـه ، و يترك زوجته بعد أن يطلقها ، ولـكن أ كثرهم يتحرجون من الإنسال ، و يتخيرون الفتاة العاقر أو المرأة المرضعة حتى لا تنسل .

وعرفت هنا ستة موظفين تزوج منهم هذا الزواج ثلاثة ،

وقد عرض علىَّ مثل هـذا الزواج فأبيت لاعتقادى أنه مناف للمروءة وأنا قادر على ضبط نفسى ولله الحمد .

٢٦ مايو :

أنا هنا فى جماعة من الموظفين أستغيث بالله منهم ، كلما اجتمع بعضهم ذكروا الغائبين بالسوء فى سيرتهم و بيوتهم ، و يظهر أن سبب ذلك أن الحكومة تجعل من بين عقوباتها نقل الموظف الذى أساء السيرة إلى الواحات أو إلى أقصى الصعيد، فكأن سكان هذه البلاد قد حكم عليهم ألا يروا موظفاً صالحاً ، ولم ينطبق علىّ هذا القول لأن القضاة الشرعيين كانوا إذا نقلوا إلى هذه البلاد البعيدة أتوا بشهادات طبية تثبت أن جو هذه البلاد لا يلائمهم . فلما ضاق مدير الإدارة الشرعية ذرعاً بذلك عزم أن يعين فى الواحات الجدد الذين يقدّمون عند تعيينهم شهادات صحية تثبت لياقتهم ، وقلما اجتمع هؤلاء الموظفون من غير أن يتسابوا أو يتضاربوا ، وقد وضعت لنفسى خطة ألا أسايرهم فى القول ولا العمل وأن أتحاشى الاجتماع بهم إلا عند الضرورة .

٢٨ مايو :

عملى فى المحكمة قليل جداً ، فكثير من الأيام يمر من غير عمل ، أو بإمضاء ورقة أو ورقتين ، وعدد القضايا قليل ، وأكثر

المنازعات يفصل فيها العمدة أو الرجال المعروفون بينهم ، ومن عادتى أن أذهب إلى المحكمة كل يوم فى الساعة التاسعة والنصف صباحا ، وكثيراً ما يأتى زائرون من موظفين وأهال فأجالسهم إلى الساعة الثانية عشرة ثم أعود إلى منزلى وأتغدى وأنام قليلا ، ثم أصحو فأقرأ فى بعض الكتب إلى الساعة السادسة ، فأجلس أمام الباب أو أقابل زائراً أو أرد زيارة زائر أو أخرج إلى الصحراء ، ثم أعود إلى بيتى فأتعشى وأقرأ فى الكتب إلى الساعة العاشرة فأنام ، وأصحو قبل طلوع الشمس فأقرأ جزءاً من القرآن ثم أقرأ فى بعض الكتب حتى يأتى ميعاد المحكمة وهكذا ، والحياة يوم واحد متكرر ، ويوم الثلاثاء هو اليوم الذى تحوطه هالة كبيرة ، فهو اليوم الذى أرقبه طول الأسبوع ، فاليوم يوم السبت ، إذاً بقى على يوم الثلاثاء يومان ، واليوم يوم الأحد إذاً بعد غد يوم الثلاثاء ، وهذا يوم الثلاثاء ، فمتى يكون عصره ؟ إنه الوقت الذى يحضر فيه البريد من القاهرة كلّ أسبوع .

٣١ مايو :

شاهدت أمس أوروبيا فى الخارجة ومعه رجل من أهلها ، وقد علمت أنه يأتى كل سنة للتجارة فى نوع من النبات ينبت حول الخارجة وفى بعض جبالها واسمه « السَّكَّران » يجمعه له

بعض الناس و يبيعونه له كل قنطار بعشرين قرشاً ، وهو يصدرها إلى الخارج لاستعماله فى بعض الأدوية والله أعلم بكم يبيع القنطار، وهكذا يستغفلنا الأجنبى دائما ، ونقنع بالربح القليل دائما ، و يعيش هو من مجهودنا فى القصور الفخمة والثروة الضخمة .

ليس فى الواحات بق ، و إنما يكثر فيها الذباب والناموس فى موسم البلح ، وفى الأسبوع الأول من سكنى فى بيتى رأيت فيه عقربا فقتلته ، ومساء أمس وجدت بقرب بيتنا حية يبلغ طولها نحو خمسين سنتيمتراً . وقطرها نحو سنتى ونصف ، سمعها الخادم وهى تنفخ فى الظلماء ، فأتى بمصباح وتتبعها وقتلها ، ورأيتها بعد قتلها وهى تتلوى ، فنغص ذلك علىّ وربّى لى الوسواس ، فأنا كل ساعة أتخيل عقربا أو حية .

عجبت للإسلام واللغة العربية وقوتهما وانتشارهما ، فليس فى الواحات إلا مسلم ، وليس فيها إلا من يتكلم العربية وحدها.

***

لا أطيل على القارئ بهذه اليوميات التى استمرت ثلاثة أشهر ، وقد أحسست فيها بفراغ طويل عريض ، لأن القضايا التى عرضت فى هذه الأشهر الثلاثة كانت تسعاً فقط من أبسط الأنواع ، و يكفى فى الفصل فيها ساعة من الزمان ، فملأت فراغى

بشيئين : الرحلات إلى الآثار الموجودة بالخارجة ، وقراءة الكتب ، فأما شغفى بالآثار فكان عجيباً حقا ، لأن الآثار الموجودة آثار قديمة وثقافتى فيها محدودة أو معدومة ، وربما كان السبب فى شغفى بها ما تولد عندى من حب الآثار والإعجاب بها يوم كنت أزور الآثار الإسلامية مع صديقى أحمد بك أمين ، وقد كنت فى كثير من الأحيان أصحب مفتش الآثار ليدلى إلىّ بمعلوماته عن الآثار ، وقد كنت أدوّن فى يومياتى وصف كل أثر رأيته وما تركه فى نفسى من أثر ، وكانت هذه الآثار بعضها فارسية من عهد احتلال الفرس لمصر ، و بعضها من آثار قدماء المصريين ، و بعضها رومانية ، و بعضها مقابر مسيحية لا تزال تحتفظ بجثث الموتى وأكفانها ، بل لا يزال بعضها محتفظاً بشعر الرأس والذقن من جودة التحنيط ، و بعضها أسود الوجه غائر الجبهة بارز الأسنان ، و بعضها — وهو الأكثر — أبيض الوجه منفرج زاوية الوجه .

وكانت أمتع رحلة من هذا القبيل رحلتى إلى باريس ، وهى بلدة حقيرة تحمل اسماً كبيراً ، و بدائية بدوية تحمل اسم أكبر مدينة مدنية ، ولا أدرى كيف أطلق عليها الاسم ، وهى تبعد عن الخارجة نحو مائة وعشرين كيلو .

أعددنا العدة لهذه الرحلة من ماء وزاد ، وخرجنا على ثلاثة من الإبل من نوع الهجين ، طبيب الواحات وملاحظها وأنا . وكنا نسير عصراً و بعض الليل وصبحاً و بعض النهار ، وننصب خيمة فى الظهيرة نأوى إليها عند اشتداد الحر .

ولست أنسى مرة ونحن فى الطريق فى يوم اشتد حره وجف هواؤه ، وقد أكلنا أكلة ثقيلة لا تناسب السفر ، ثم ركبنا واشتد بى العطش ، وكلما شربت تقلقل الماء فى بطنى من هزة الهجين ، ثم أعطش فأشرب ، فلما مللت الشرب أخرجت ليمونة من جيبى وقطعتها ، وأخذت أمصها من حين إلى آخر . فما هو إلا أن رأيتنى وقد انقبضت حنجرتى ولم أستطع أن آخذ نَفَسى من فعل الليمون مع جفاف الهواء ، فالتفت إلى الطبيب أستنجده بالإشارة ، فأسرع إلى الزمزمية وصب الماء فى حلقى . . . ولو تأخر ذلك بضع ثوانٍ لهلكت ، ولكن الله سلم !

ورأينا فى الطريق بعض آثار قيمة وعيوناً رومانية وشجر الدوم الكثير . وقد وصلنا البلدة ثانى يوم مساء ، ورأينا أرضها المحيطة بها من أجود أنواع الأرض ، مساحات واسعة ليس ينقصها إلا الماء لتنتج أحسن الزرع . ورأينا البلدة مملوءة بالأطفال الذين لا عائل لهم على أثر حمى تيفودية اكتسحت آباءهم فى العام الماضى .

وفى قومها كرم عربى ولهجة عربية جميلة ، كنت أتلذذ من سماعها وخصوصاً من النساء اللائى كن يترافعن إلىّ فى شكوى أزواجهن ، ورأيت أهلها فى نزاع طويل شديد ، حتى علمت أنهم فى السنة الماضية لم يزرعوا أرضهم عناداً فيما بينهم . ورأيت بها آثاراً قيمة زرتها وأعجبت بها .

ولأهلها بعض عادات غريبة ، فإذا مات منهم كبير لبس النساء أحسن لباس عندهن وأجده ، وإذا كان له سيف أو بندقية أمسكتها زوجته أو قريبته بيدها ووقفت تندب الميت وقد تصاب بجروح مما فى يدها .

وفى عودتى من باريس رأيت السراب وما كنت رأيته ، كنت أرى بحراً متسعاً زرعت عليه أشجار ، ولا بحر ولا أشجار. ولاتساع الصحراء وتلاعب الرياح فيها كنت أتخيل أحياناً أن أحداً وراءنا يجرى ويتكلم ، ثم ألتفت فلا أرى شيئاً ، فظننت أن هذا هو ما كانت تزعم العرب أن الجن حدثتها أو هتفت بها.

وفى الطريق دروب ، وهى خطوط صنعتها أقدام السائرين ، وإذا وصلنا إلى أرض حجرية ضاع الأثر ، وكان السائر عرضة أن يضل الطريق . وقد سمعت وأنا بالخارجة حديث قوم ضلوا فماتوا عطشاً . وقد انحرفنا نحن فى سيرنا مرة انحرافاً قليلا سرنا

من أجله ساعة حتى وصلنا إلى الطريق السوىّ .

أما الأمر الثانى الذى كنت أقضى فيه وقتى فمطالعة الكتب . ومن أحسن ما قرأت فى هذه الفترة كتب ثلاثة مختلفة الأنواع والألوان : كتاب تاريخ الفلك عند العرب للأستاذ نللينو ، قرأته بإمعان واستفدت منه كيف يبحث كبار المستشرقين ، وكيف يصبرون على البحث ، وكيف يعيشون فى المادة التى تخصصوا فيها ، وكيف يسيرون فى بحثهم من البسيط إلى المركب فى حذر وأناة . فإذا قلت إننى استفدت منهج البحث من هذا الكتاب لم أبعد عن الصواب .

والكتاب الثانى أصول الفقه للشيخ الخضرى ، كنت قرأت بعضه وأنا طالب ، فأعدت قراءته على شكل آخر أطبق فى قراءته ما استفدته من عاطف بك بركات من حرية فى النقد وإعمال العقل فيما يقرأ ، فكنت أقرأ الفصل وأديره فى ذهنى ، وأتساءل : هل هذا حق أو باطل وخطأ أو صواب ؟ فإن كان خطأ فما وجه الصواب ؟ وأكتب فى آخر كل فصل رأيى فيه ونقدى له .

وأما الكتاب الثالث ففى الأدب وهو ديوان الحماسة وشرحه . أقرأ القصيدة أو المقطعة وأعرف معنى ألفاظها اللغوية

ومعنى البيت فى الجملة ، ثم أعيد قراءته ، وما استحسنته من الديوان حفظته .

وفى هذين الأمرين كانت سلواى .

و بعد ثلاثة أشهر بينهما إجازة شهر جاءنى كتاب من محكمة أسيوط الشرعية ، يخبرنى بنقلى من القضاء إلى مدرس بمدرسة القضاء .

(١٨)

عدت إلى مدرسة القضاء كما كنت ، ودرَّسْتُ كما كنت أدرِّس ، أهم دروسى دروس الأخلاق ، و بجانبها فقه أو تاريخ أو منطق .

وأحسست ثانية حاجتى الشديدة إلى لغة أجنبية ، فدروسى فى الأخلاق مصدرها مذكرات عاطف بك التى نقلها عن الإنجليزية ، وأنا شيق إلى أن أتوسع فيها . ومَنْ حولى من الأساتذة العصريين يستفيدون أكبر فائدة فى مادتهم التى يدرسونها من اللغة الإنجليزية أو الفرنسية . وقد أخفقت فى تعلم الفرنسية ، فلأجرِّب حظى فى الإنجليزية .

و يوماً قابلت صديقى أحمد بك أمين ، وجلسنا فى مقهى ،

وذهب الحديث فنوناً إلى أن وجدته يقول إنه عثر على كتاب إنجليزى قيم لمستشرق أمريكى اسمه مكدونالد[١] ، وأنه قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام : قسم يتعلق بنظام الحكم فى الإسلام ، وقسم فى تاريخ الفقه الإسلامى ، وقسم فى المذاهب والعقائد الإسلامية . وأخذ يطرى الكتاب ويحكى بعض آرائه ، فاستفزنى الموضوع وقلت : هل تستطيع الآن أن تذهب معى إلى مدرسة (برليتز) لأرتب دروساً لى فى الإنجليزية فقبل ، وأقسمت أن أتعلم وأن أقرأ هذا الكتاب فى لغته ، وذهبنا إلى المدرسة ورتبنا دروساً ثلاثة فى الأسبوع بمائة وخمسين قرشاً كل شهر . واشتريت الكتاب الأول ، وتولى تعليمى سيدة انجليزية يظهر عليها أنها فقيرة الحال ، تحسن الإنجليزية لأنها إنجليزية ، وإن لم تكن مثقفة إلا الثقافة الضرورية . وبذلتُ فى ذلك مجهوداً شاقا ، أقرأ فى البيت وأحفظ فى الطريق وأذاكر إذا كنت مراقباً فى الامتحان أو مشرفا على حصة ألعاب رياضية ؛ والدراسة بهذا الشكل عسيرة إذ لم أكن فى فصل يتعاون الطلبة فيه على التعلم ، ولم أكن فى بيئة تُعَوِّدُ سمعى اللغة ، ويقول لى الشيخ الخضرى : لقد جرَّب هذه التجربة مئات من طلبة دار العلوم ،

---

(١) هذا الكتاب هو Theology of Islam.

فساروا خطوات ثم وقفوا ، ولم ينجح منهم إلا من كان
بعثة إلى إنجلترا ، فقلت له سأجرب كما جربوا ، لكن سأنجح
إذا فشلوا .

وبعد شهرين فى هذا الجهد أحضرت كتَيِّبًا صغيراً عنوانه
« الإسلام Islam » للسيد أمير على ، وقلت إن موضوعه معروف
لى ومعرفة الموضوع تعين على الفهم . ولكنى قرأت الصفحة
الأولى فلم أفهم ، فظللت أصرف أكثر من ثلاث ساعات فى
الصفحة ، أكشف فى المعجم الإنجليزى العربى عن كل كلمة حتى
« من » و « عن » وأنا جادّ صابر . ومكثت على ذلك سنة ،
أتممت فيها الجزء الأول والثانى من كتب برليتز وبدأت الجزء
الثالث فى السنة الثانية . وفيه بعض فصول فى الأدب الإنجليزى
وتاريخه ، فأحسست أن هذه المدرِّسة غير ملمة بتاريخ الأدب وأنها
لا تصلح لتدريس هذا الكتاب ، فبحثت عن مدرس آخر
أو مدرسة أخرى .

ووفقت إلى سيدة إنجليزية كان لها أثر كبير فى عقلى ونفسى .
مس پوَر (Power) سيدة فى نحو الخامسة والخمسين من عمرها ،
ضخمة الجسم مستديرة الوجه ، يوحى مظهرها بالقوة والسيطرة ،
بسيطة فى ملبسها وزينتها . مثقفة ثقافة واسعة ، تجيد الإنجليزية

والفرنسية والألمانية ، ذات رأى تعتد به جريدة التيمس فترحب بمقالاتها ، عرفت الدنيا من الكتب ومن الواقع ؛ أقامت فى فرنسا سنين وفى ألمانيا سنين وفى أمريكا سنين فكملت تجاربها واتسع أفقها ؛ حضرَت إلى مصر ووافقها جوها فأقامت فيها ولكن ليس لها من المال ما يكفيها للإقامة طويلا ، فهى تستأجر بيتاً خاليا فى ميدان الأزهار وتفرش حجراته ، وتؤجرها للراغبين فتكسب من ذلك نحو ثلاثين جنيهاً فى الشهر تكون أساس عيشتها ، ثم هى رسامة فنانة ، تأخذ أدواتها إلى سفح الهرم فترسم الصور الزيتية لمنظر الأهرام والفيضان وما يحيط بهما من منظر جميل أو نحو ذلك من مناظر طبيعية جميلة ترسمها بالزيت وتتأنق فيها ، وتقضى فى رسمها الأيام والأشهر وتبيعها بثمن كبير ، ثم هى تدرِّس الرسم والتصوير لبنات رئيس وزارة ، ثم هى تقبل أن تدرِّس لى درساً فى اللغة الإنجليزية بجنيهين كل شهر ، ولا تعاملنى معاملة مدرِّسة لتلميذ ، بل معاملة أُمٍّ قوية لابن فيه عيوب من تربية عتيقة .

ابتدأت أدرس معها الجزء الثالث من سلسلة كتب بيرليتز ، أقرأ فيه وتفسر لى ما غمض وتصلح لى ما أخطأت ، ثم أضع الكتاب وأحدثها وتحدثنى فى أى موضوع آخر يعرض لنا .

ولا أدرى لماذا لا يعجبها منى أن أضع العمامة بجانبى إذا اشتد الحر ، بل تلزمنى دائما بوضعها فوق رأسى ، ونستمر على ذلك نحو الساعتين أتكلم قليلا وتتكلم كثيراً ، وتنفق أكثر ما تأخذه منى فى أشكال مختلفة لنفعى ، فهى تدعو بعض أصحابها من الإنجليز رجالا ونساء إلى الشاى ، وتدعونى معهم لأتحدث إليهم ويتحدثوا إلىّ ، فأسمع لهجاتهم ويتعود سمعى نطقهم ، وأصغى إلى آرائهم وأفكارهم وأقف على تقاليدهم ، ومرة ترسلنى إلى سيدة إنجليزية صديقة لها أكبر منها سنا قد عدا عليها المرض فألزمها سريرها لأتحدث إليها . تقصد بذلك أن هذه المريضة تجد فىَّ تسلية لعزلتها وفرجا من كربتها ، وأنا أجد فيها ثرثارة لا تنقطع عن الكلام ، فأستمع إلى قولها الإنجليزى الكثير رغم أنفى .

وتوثقت الصلة بيننا فكأننى كنت من أسرتها ، وهى لا تعنى بى من ناحية اللغة الإنجليزية وآدابها فحسب ، بل هى تشرف على سلوكى وأخلاقى . لاحظت فىَّ عيبين كبيرين فعملت على إصلاحهما ، ووضعت لى مبدأين تكررهما علىَّ فى كل مناسبة .

رأتنى شابا فى السابعة والعشرين أتحرك حركة الشيوخ ، وأمشى فى جلال ووقار ، وأتزمت فى حياتى ، فلا موسيقى ولا تمثيل

ولا شيئاً حتى من اللهو البرىء ، وأصرف حياتى بين دروس أحضِّرها ، ودروس ألقيها ، ولغـة أتعلمها . ورأتنى مكتئب النفس منقبض الصـدر ينطوى قلبى على حزن عميق ، ورأتنى لا أبتهج بالحياة ولا يتفتح صدرى للسرور ، فوضعت لى مبـدأ هو : « تذكرْ أنك شاب » تقوله لى فى كل مناسبة وتذكرنى به من حين إلى حين .

والثانى أنها رأت لى عيناً مغمضة لا تلتفت إلى جمال زهرة ولا جمال صورة ولا جمال طبيعة ولا جمال انسجام وترتيب ، فوضعت لى المبدأ الآخر: «يجب أن يكون لك عين فنية» فـكنت إذا دخلت عليها فى حجرتها و بدأت آخـذ الدرس وأتـكلم فى موضوعه صاحت فِيَّ : « ألم تر فى الحجرة أزهاراً جميلة تلفت نظرك وتثير إعجابك فتتحدث عنها » وكانت مغرمة بالأزهار تعنى بشرائها وتنسيقها كلَّ حين ، وتفرقها فى أركان الحجرة وفى وسطها ، و يؤلمها أشد الألم أن أدخل على هذه الأزهار فلا أحييها ولا أبدى إعجابى بها و إعجابى بفنها فى تصفيفها .

و يوماً آخر أدخل الحجرة فأتذكر الدرس الذى أخذته فى غزَل الزهور فأحيي وردها و بنفسجها و ياسمينها وكل ما أحضرت من أزهار ، فتلتفت إلىَّ وتقول : « أليست لك عين فنية ؟ »

أعجب من هـذا الاستنكار ، وقد حييت الأزهار ، فتقول : ألم تلحظ شيئاً ؟ فأجيل عينى فى الحجرة فلا أرى شيئاً جديداً غير الزهر الجديد ، فتقول : ألم تلحظ الحجرة وقد غيِّر وضع أثاثها ؟ لقد كان الـكرسى هنا فصار هاهنا ، وكانت الأريكة هنا فصارت ها هنا ، وتقول : قد سئمْتُ الوضع القديم وتعبت عينى من رؤيته ، فغيرت وضعه لتستريح عينى ، وهكذا . . .

لازمتها أربع سنوات ، استفدت فيها كثيراً من عقلها وفنها ، ولـكنى لا أظن أننى استفدت كثيراً من تكرارها على سمعى أن أتذكر دائماً أنى شاب .

انتهيت من الجزء الثالث ، واخترت أن أقرأ معها كتباً أخرى، فى الأخلاق أحياناً وفى الاجتماع أحياناً ، وفى آخر المرحلة قرأت معها فصـولا كثيرة من جمهورية أفلاطون بالإنجليزية ، فـكان هذا الـكتاب مظهر سعة عقلها وكثرة تجاربها ، فـكنت أقرأ الفصل فتشرحه لى ، وتبين ما طرأ على فـكرة أفلاطون من التغير وما بقى من آرائه إلى اليوم ، وكيف طبق هـذا المبدأ فى المدنية الحديثة فى الأمم المختلفة ، وهكذا .

ولا أدرى ما الذى انتابها ، فقد رأيتها تكثر من القراءة فى كتب الأرواح ، ثم تمعن فى قراءتها ، ثم تذكر لى أنها

خصصت كل يوم ساعتين تغلق عليها حجرتها ، وترخى ستائرها ، وتغمض عينيها ، وتركز روحها فى مريض تعالجه وهو فى داره وهى فى دارها ، أو تجرب تجربة أخرى أن ترسل من روحها إشارة لاسلكية لصاحب لها تنبئه أن يحضر أو لا يحضر ، وأن يُعِدّ كذا أو لا يُعِد وهكذا ، وقد نجحت فى بعض الأحوال دون بعض فلم تشأ أن تعتقد أن هذا مصادفة ، ولكنها اعتقدت أنَّ ما نجحت فيه فإنما نجحت لأن الأمر قد استوفى شروطه ، وما لم تنجح فيه لم تستكمل عدته ، فزاد اجتهادها ، وطالت ساعات عزلتها ، وأمعنت فى تركيز روحها ؛ كل ذلك وأنا أنصحها ألا تفرط فى هذا خشية عليها فلا تسمع ، لأنها تأمل أن تصل من ذلك إلى نجاح باهر .

وذهبت إليها يوماً فرأيتها مصفرة الوجه مضطربة الأعصاب خفاقة العينين ، فسألتها عما بها ، فأخبرتنى أنها ذهبت اليوم صباحاً إلى كوبرى قصر النيل وهمَّت أن ترمى نفسها فى النيل ، ثم رأيتها تذكر لى أنها أخفقت هذه المرة فى الانتحار ، ولكنها ستنجح فى مرة أخرى ، فخرجت من عندها آسفا باكياً ، واتصلت بطبيب للأمراض العقلية فحضر ورآها ، وأخبرنى أنه لابد من إرسالها فوراً إلى مستشفى المجاذيب ، وكذلك كان . وكنت أعودها من حين

إلى حين ، فإذا جلستُ إليها تحدثَتْ كعادتها حديثاً هادئاً معقولاً ، وسألتها مرة : ماذا بها ؟ فقالت : لاشىء بى إلا أننى فقدت الإرادة فإذا أطلق سراحى الآن لا أدرى أين أتجه . ثم تولت أمرها القنصلية الإنجليزية فأسفرتها إلى بلدها . وأخيراً — وبعد نحو سنتين — جاءنى خطاب بعنوانى بمدرسة القضاء عليه طابع إيطالى ففضضته فإذا هو من «مس پوَر» تخبرنى أنها شفيت من مرضها ، وأنها الآن فى روما تتمتع بجمال مناظرها ودقة فنونها وروعة كنائسها ، فرددت عليها فرحا بشفائها ، ثم انقطعت عنى إلى اليوم أخبارها . رحمها الله .

وفى هذه الفترة التى كنت أدرس فيها مع «مس پوَر» جاءنى صديق وقال إنه يعرف أسرة إنجليزية تتكون من زوج وزوجة يريدان أن يتعلما العربية وأنا أعلّم الزوج فهل لك أن تعلّم الزوجة ؟ قلت : لا أعلمها بمال ولكن أتبادل معها ، فأعلمها العربية وتعلمنى الإنجليزية ، وعرض عليها ذلك فرضيت .

سيدة إنجليزية فى ريعان الشباب جميلة الطلعة لها عينان تبعثان فى النفس معنى الصفاء والطهارة والثقة ، تعيش مع زوجها الإنجليزى المدرس بالمدرسة الخديوية الثانوية عيشة أرستقراطية فخمة ؛ مولعان بركوب الخيل والتروض عليها عصرَ كل يوم ،

يستمتعان بالزواج الجديد السعيد ؛ كنا نقضى ساعتين فى الدرس مرتين فى الأسبوع ، ساعة تعلمنى الإنجليزية وساعة أعلمها العربية واختارت لى أن أقرأ معها كتاب « قصص شيكسبير للام »[١].

وكنت أرتقب موعد هذا الدرس بشوق ولهف ، وكانت هذه السيدة تغذى عواطفى برقتها وجمالها وكمالها ، كما كانت « مس بوَر » تغذى عقلى بثقافتها واطلاعها وتجاربها .

كنت أحدثها يوماً ، وقد قامت الحرب العالمية الأولى فزلَّ لسانى ونقدت الإنجليز نقداً خفيفا أمامها ، فما كان منها إلا أن دمعت عينها وقالت فى رقة : « أتعيب قومى وأمتى ! » فخجلت خجلا شديداً وقدَّرت وطنيتها التى يجرحها النسيم ، ولم أعد بعد لمثلها . واستمررت على ذلك أكثر من سنة قرأت معها هذه القصص ، وعلّمتها قدراً لا بأس به من العربية . وكان يصعب عليها النطق بالعين فكانت تقول : إن عينكم تؤلمنى ، وكنت أقول فى نفسى مثل قولها . وكان لها نقد لطيف لما تتعلمه من العربية — نقد لا ندركه نحن لأنها لغتنا . نشأنا فيها ورضعناها مع لبن أمنا وألفناها منذ صغرنا . قالت لى مرة : إن اللغة العربية غير منطقية ، ألا تراها تؤنث الشمس وهى قوية جبارة وتذكّر القمر

---

(١) Tales from Shakespeare by Lamb.

وهو لطيف وديع ، فأولى أن نذكر الشمس ونؤنث القمر كما نفعل نحن فى لغتنا . وقالت مرة : ألا تعجب من لغتكم ، تقول ثلاثة كتب ، وتقول ألف كتاب ، وكان الأولى ما دامت تقول ثلاثة كتب أن تقول ألف كتب . وهكذا من طرائفها الظريفة .

واشتدت الحرب فجُند زوجها ، وانقطع عنى خبره وخبرها .

ماذا كنت أكون لو لم أجتز هذه المرحلة ؟ لقد كنت ذا عين واحدة فأصبحت ذا عينين ، وكنت أعيش فى الماضى فصرت أعيش فى الماضى والحاضر ، وكنت آكل صنفا واحداً من مائدة واحدة فصرت آكل من أصناف متعددة على موائد مختلفة ، وكنت أرى الأشياء ذات لون واحد وطعم واحد ، فلما وضعت بجانبها ألوان أخرى وطعوم أخرى تفتحت العين للمقارنة وتفتح العقل للنقد . لو لم أجتز هذه المرحلة ثم كنت أديبا لكنت أديبا رجعيا ، يعنى بتزويق اللفظ لا جودة المعنى ، ويعتمد على أدب الأقدمين دون أدب المحدثين ، ويلتفت فى تفكيره إلى الأولين دون الآخرين ، ولو كنت مؤلفا لكنت جمّاعا أجمّع مفترقا أو أفرق مجتمعا من غير تمحيص ولا نقد . فأنا مدين فى إنتاجى الضعيف فى الترجمة والتأليف والكتابة إلى هذه المرحلة بعد المراحل الأولى ، وهذه الزهرة الجديدة ألّفت باقة مع الأزهار القديمة .

(١٩)

ثم إن لهذه المرحلة تكملة . فقد كانت السنة سنة ١٩١٤ وقد تخرج من مدرسة المعلمين العليا بضعة من خيار الطلبة عرفوا بالتفوق فى العلم والخلق ، كان أكثرهم مرشحا للبعثة إلى انجلترا ثم منعهم قيام الحرب ، وكان بعضهم من القسم العلمى و بعضهم من القسم الأدبى ، شاءت الظروف السعيدة أن أتعرف بهم وأن أصادقهم ، رأيتهم مثقفين من غير جنس ثقافتى ، ثقافتهم عصرية بحتة ، وثقافتى شرعية كثيرا وعصرية قليلا ، منهم الذى بلغ درجة جيدة فى الجغرافيا والتاريخ العام والأدب الإنجليزى ، ومنهم من بلغ هذه الدرجة فى الرياضة والطبيعة والكيمياء ، وكلهم يعرف من الدنيا الجديدة والمدنية الحديثة أكثر مما أعرف ، بحكم ثقافتهم وثقافتى ، وقد اخترنا قهوة تطل على ميدان عابدين صاحبها لغوى شاعر ، يتلقفنا إذا حضرنا ليعرض علينا رأيه فى كلمة اكتشف أنها غير صحيحة لأنها لم ترد فى معاجم اللغة ، أو ليسمعنا قصيدة من نظمه يحملنا على الإعجاب بها ولو من باب المجاملة . على كل حال كان يجتمع هؤلاء الصحاب فى هذه القهوة عصر بعض الأيام فنتكون منهم مائدة شهية مختلفة الطعوم متعددة الألوان .

هذا مغرم بالقصص الإنجليزية والمجلات الإنجليزية يقرأ منها الكثير، وله ذوق حسن فى الاختيار وشهوة قوية فى التحدث عما اختار، وتحمس لما يقول ومايعرض، ولا يرضيه إلا أن يتحمس السامعون حماسته و يبتهجون بما يقول ابتهاجه، وكان يقول إن الاستماع إلى الحديث فن كفن الإلقاء، من الناس من يجيده ومنهم من لا يجيده، و إنما يجيده السامع إذا تجاوب مع القائل فى شعوره وعواطفه وانفعالاته، يضحك للحديث المضحك و يبكى للحديث الباكى وتظهر على أسارير وجهه كل هذه الاستجابات . وكان يعتقد فىّ أنى أجيد الاستماع فيتحدث إلىّ بأكثر مما يتحدث به مع غيرى؛ فهو يقول مثلا : « اليوم قرأت قصة فى مجلة نيشن Nation تتلخص فى أن طفلا رُبى فى قصر كبير له حديقة واسعة ولم ير الدنيا خارج القصر ولم يعلم عنها شيئا حتى شب، ثم رأى الدنيا خارج القصر دفعة واحدة من غير تدرج . ثم تصف القصة أثر مناظر الدنيا فيه عندما رآها وهو مكتمل العقل، وكيف تختلف عن أثرها فى الصبى قد رآها تدريجاً وهو قاصر العقل الخ » ... واليوم قرأت رواية لديكنز بديعة لطيفة ميزتها كذا وهو يرمى بها إلى كذا، واليوم قرأت مجلة مضحكة، وللانجليز طابع فى النكت والنوادر غير الطابع المصرى، فأكثر نكتهم ملفوف، مبنى على

الذكاء ، والقليل منه يعتمد على اللعب بالألفاظ ، ومن خير النكت التى قرأتها اليوم كذا ، ثم يفيض فيما قرأ منها ونضحك ونتبعها أحيانا بالنقد أو الاستحسان ، وكان خفيف الروح فى الإلقاء فيعجبنا بنكته ويعجبنا بقَصّه — ثم كانت له مغامرات شبابية يخصنى بذكرها والحديث عنها وألمه منها واستمتاعه بها .

وهذا الآخر هوايته التاريخ ، يطيل القراءة فيه ويُفتن بأسلوب الأوربيين فى كتابته وقدرتهم على التحليل الدقيق ورجوع الجزئيات إلى كلياتها وحريتهم فى تقدير الأبطال والاعتداد بشخصيتهم ، فقد يهدم بعضهم بطلا أجمع الناس على بطولته ، أو يشيد بذكر مغمور أجمع الناس على خموله ، وينقد كتابة التاريخ عند العرب ، فقد أحسنوا فى رواية الأحداث ولم يحسنوا فلسفتها إلا ما كان من ابن خلدون فقد أحسن فى فلسفة التاريخ وقصّر فى تطبيقها على الأحداث ، ثم هو يحاول أن يطبق هذا المذهب فيعرض علينا نمطا من بحثه فى عمر وعلىّ — مثلا — على نمط جديد فيه التقدير وفيه النقد .

وهذا عالم تخصص فى الطبيعة والكيمياء جعل مسلاته الأدب ، فهو يقرأ فى ديوان أبى الطيب وأبى فراس ويتخير من شعرهما ويحفظه وينشده ، وتلتهب عاطفته فيحاول أن يقول

شعرا بعضه لا بأس به . وهو فكه النفس لطيف المحضر تأنس لقربه وتستوحش لبعده ، يتحدث فيودع قلبه حديثه .

وهذا عالم آخر طبيعى كيماوى أيضا جعل علمه ونفسه وكل ما يملكه من ملكات وثقافات لخدمة دينه ؛ أثر فى كثير من الطلبة فى مدرسته العالية فديّنهم ، وملأ المسجد به وبهم ، قد حفظ القرآن وأطال قراءته وبذل جهدا فى فهمه ، فهو يفهمه كما يقول المفسرون ويزيد عليهم مايفهمه من نظريات الطبيعيين والكيماويين وما يقتبسه من أقوال المتدينين من العلماء الأوربيين ، يحلو له الكلام فى الدين وهداية الضالين ، ويعز عليه أن يسمع إلحادا أو كلمة يشم منها إلحاد بل لا يسمح أن ينقد أحدٌ أمرا من أمور الدين ، ولو كان فى التفاصيل ؛ وهو فى كل ذلك مخلص لا يقول كلمة بلسانه ينكرها قلبه ، قوى الحجة طويل النفَس فى المناظرة مؤثر إذا قال ، جزل الأسلوب إذا كتب ، يدرس الكيمياء والطبيعة فتكون دينا ، ويشرح النظرية الكيماوية فتكون من سنن الله الكونية ، يتحرج صحبه أن يذكروا أمامه شيئا يمس شعوره الدينى وعاطفته المسلمة ، ويهابونه فى طربوشه أكثر مما يهابوننى فى عمتى .

وهذا عالم فى الرياضة ولكنه لا يقل ثقافة أدبية عن المختصين

فى الثقافة الأدبية يقرأ فى الأغانى والعقد الفريد كما أقرأ و يتذوقها و ينقدها ، و يقرأ الكتب الكثيرة فى الثقافة العامة الإنجليزية فى الأخلاق والاجتماع وعلم النفس ، و يتأثر بما يقرأ إلى حد كبير، ويقتنع بما يقرأ و يتحمس له ، و يأتى فيحدثنا بخلاصة ما قرأ وما فكر فيما قرأ ، وله أسلوب لطيف ساخر جامح فى نقد ما يرى وما يسمع ، تطبيقا لنظرياته التى اعتنقها من قراءاته ، ولا بأس أن يغلو فى الهدم ، ولا بأس أن يغلو اليوم فى عكس ما غلا فيه بالأمس. وهذا وهذا مما يطول شرحه .

كل أولئك كانوا مدرسة لطيفة مفيدة لى ، مدرسة خلت من عبوس الجد وثقل المدرّس وسماجة تحديد الموضوع والزمان والمكان، ونعمَتْ بالبعد عن الامتحان وصداع الجرس ، مدرسة فيها الجد والفكاهة ، والعلم والأدب ، والدين والشعر ، والتقريظ والنقد ، مدرسة يكون فيها التلميذ أستاذاً والأستاذ تلميذا ، و إن شئت فقل إن كل من فيها أستاذ تلميذ ، مدرسة فيها حرية القول وحرية السماع وحرية الموضوع وحرية كل شىء ، تقارب فيها سن الأساتذة والتلاميذ فتجانست مشاعرهم ، وتشابهت آمالهم ومطامحهم ، وتفتحت نفوسهم للاستفادة من تنوع مواهبهم .

وكان لهذه المدرسة التفاتة لطيفة إلى تقويم البدن كتقويم

النفس ، والعناية به كالعناية بالعقل ؛ فما لنا نقضى نهارنا فى المدرسة ندرس ، وعصرنا فى القهوة نجلس جلسة الكسالى العجائز نتحدث ، وليلنا على المكتب نحضر! أين الهواء الطلق ؟ أين جمال الطبيعة ؟ أين الرياضة البدنية ؟ أين الرحلات ؟ إن كل هذه تجدّد النفس وتنعش الروح وتبعد العجز ، وتخدم العقل كما تخدم الجسم ، وتغذى الروح كما تغذى البدن .

إذن — فلنشترك فى ناد من نوادى الألعاب الرياضية ، ولننظم رحلات أسبوعية ، ولأحقق أنا بعض ما كانت تقوله لى المدرِّسة الإنجليزية « تذكر أنك شاب » .

وذهبنا إلى نادى الألعاب الرياضية بالجزيرة واشتركنا فيه ، وكانت عِمتى أول عمة اشتركت فى النادى ، وربما كانت آخرها أيضاً ، وأخذت خزانة فيه ككل عضو ، أضع فيها « الفانيلا والشورت والجزمة الكاوتش » ، فإذا حضرت خلعت عمامتى وجبتى وقفطانى ولبست الشورت وما إليه وتسابقت فى العدو مع العدائين ، ولعبت كرة القدم والعُقْلة مع اللاعبين ، حتى إذا تعبنا جلسنا على الحشيش فى الهواء الطلق نتحدث ونضحك ، وقد كنت أول الأمر ألهث إذا جريت ، وأخفق إذا لعبت ، ثم استقام أمرى ، وإن لم أبلغ فى خفة الحركة مبلغ صحبى ، لأنى أحمل من

أوزار تربيتى الأولى ما لا يحملون ، فإذا فرغنا من ذلك كله ذهبنا إلى خزائننا وخلعت « الشورت » ولبست الجبة والقفطان والعمامة وخرجت من النادى شيخاً وقوراً .

ويوم الجمعة أحيانا كنا نخرج إلى رحلة فى جبل المقطم فى الشتاء ، فيوما إلى الغابة المتحجرة ، ويوما إلى وادى دجلة أو وادى حُوف فى نواحى حلوان ، ويوما إلى العين الساخنة وهكذا ، وكانت رحلات قاسية وقائدنا فيها عنيف لا يرحم ، وكم قلت له : « رفقاً بالقوارير » وهو لا يسمع ، فكنا نمشى فى الوديان ونتسلق الجبال من طلوع الشمس إلى غروبها ، نحمل معنا غداءنا وشرابنا على ظهرنا ونسير سيراً حثيثاً لا نستريح إلا ساعة نأخذ فيها غداءنا ثم نسير سيرتنا وأعود إلى البيت مضنى متعباً ، ثم أنام ملء جفونى ، وأعرُج بعدها فى مشيى ثلاثة أيام أو أربعة ، ولكنى أحس صفاء نفسى وصفاء رأسى ، وكنت فى هذه الرحلات كشأنى فى الألعاب ، أخيبَ عضو فى الأولى وأبطأ عضو فى الثانيـة ؛ ولست أنسى يوما عصيباً ذهبت فيه مع صحبى إلى وادى حوف ، فلما بدأنا فى العودة تخرق نعل جزمتى فسددتها بورق مقوًّى كنا أحضرنا فيه بعض الفطائر والحلوى ، فلم يفد ذلك إلا قليلا ، ثم برزت رجلى وسرت على الحصى ، ودميت أصبعى ، وأبطأ القوم

فى سيرهم ورثوا لحالى ، وأخيراً وأخيراً جداً عثرت على حمار قبل مدخل حلوان ، وطلبت من صاحبه أن يحملنى إلى المحطة بأى أجر شاء ، ودخلت حلوان على حمار وحولى الحواريون يمتزج شعورهم نحوى بالضحك منى والرثاء لى .

وتحررت بعض الشىء ، فكنا نذهب أحيانا إلى صالة « منيرة المهدية » لسماع غنائها ومشاهدة رواياتها ، وكنت أتأثر من بعض نغماتها أثراً يرن فى أذنى طول الأسبوع .

فإذا أحب بعضهم أن يذهبوا إلى أكثر من ذلك تواصوا فيما بينهم ألا يخبرونى ، لأنى لا أصلح لمثل موقفهم .

وانضم إلى جماعتنا ثلاثة من نوابغ خريجى مدرسة الحقوق كانت لهم ثقافتهم القانونية والسياسية ، ودب فى الجماعة روح التفكير القومى ؛ فهذا البلد ضعيف مسكين متأخر فى جميع مرافقه ، ونحن الشباب يجب أن نفكر ونعمل فى تقدمه و إعلاء شأنه رغم الاحتلال وسيطرته ، فلنؤلف لجاناً لدراسة مصر من نواحيها المختلفة : لجنة للناحية الاقتصادية ، وأخرى للناحية السياسية ولجنة للتربية والتعليم ، ولتفعل كل لجنة فعل الطبيب يشخص المرض ويصف العلاج ، وفعلت اللجان ذلك وبدأت الجماعة تعمل ، ولكن عصفت الرياح باللجان كلها ، و بقيت — بحمد

الله — « لجنة التأليف والترجمة والنشر » سَن قانونها أحد الأعضاء القانونيين ، وقرئ على الأعضاء مجتمعين ، وعدل ونقح ، والتزم كل عضو أن يدفع عشرة قروش فى كل شهر ، وأن يجتمع مجلس إدارتها فى بيت عضو من أعضائها ، و بدأ بعض الأعضاء العلميين يؤلف كتابا فى الكيميا لطلبة المدارس الثانوية ، يحضّر كل بابا و يقرؤه على الآخرين فينقحونه و يهذبونه ، فإذا فرغوا منه قدموه للطبع ، فإذا لم يكف ما جمع من عشرات القروش أقرض اللجنة بعض الأغنياء من الأعضاء ليتم طبع الكتاب ، فكان هذا أول حجر فى بناء اللجنة .

بهذه المدرسة أحسست أنى أقرُب من عقلية أصحابها ومزاجهم وثقافتهم شيئا فشيئا ، وأبتعد عن عقلية زملائى الأقدمين ومزاجهم شيئاً فشيئاً ، ورأيتنى — بفضل ما شوقونى من كتب — أكوّن لنفسى نواة من الكتب الإنجليزية بجانب الكتب العربية ، وأحضِّر دروسى منها فى الأخلاق والمنطق ، وأملأ الفراغ بالمطالعة فى هذه وتلك ، و إذا العين تتفتح والأفق يتسع .

(٢٠)

وبدأت أستغل ما تعلمته من الإنجليزية ، فصارت لى مكتبتان أشترى منهما الكتب ، مكتبة عربية بالسكة الجديدة ،

بحى الأزهر ، ومكتبة إنجليزية بشارع المغربى فى الحى الإفرنجى ،
فأما المكتبة العربية فصاحبها رجل غريب الأطوار من أصل
أناضولى ، كان ربيب نعمة ، تربى فى المدارس الفرنسية
وهو يجيدها قراءة وكتابة ، وتفلسف فى الحياة فلسفة تشاؤمية
على أثر صدمة صُدمها ، فقد تاجر فى القطن ودخل البورصة
وكسب حتى صارت النقود فى يده كالتراب ، ثم خسر فلم يبق
فى يده شىء ، وفتح دكان بقال فلم تنجح ، ثم صار كتبيا لا يعبأ
بالمال ولا بالحياة ، ولا بالناس ؛ دكانه كأنها منظرة فى بيت
أو قهوة فى شارع ، يأتى إليه هواة الكتب فيجلسون مطمئنين
ويتحدثون فى كل شىء ، ويشربون القهوة والسجاير ، ويقضون
الساعة والساعتين ، ثم قد يشترون وقد لا يشترون ، والكتب
مكدسة فى الدكان حيثما اتفق ، فكتاب نحو بجانب كتاب
تاريخ ، وهو لا يعرف موضع الكتاب إلا ظنا ، وقد تسأله عن
كتاب فيؤكد أنه عنده ثم يصعد السلم يبحث عنه فلا يجده ،
ويغير موضع السلم من اليمين إلى اليسار ثم يبحث عنه فلا يجده ،
فيرجوك أن تمر عليه بعد يومين أو ثلاثة من غير اكتراث ؛
ومن طول ما مارس السوق كانت عنده فراسة قوية فى المشترين ،
شاهدته مرة وقد جاءه شيخ يسأل عن كتاب فقال له ليس عندى

والكتاب أمامه ، فعاتبته فى ذلك فعدا خلف الشيخ فناداه وعرض عليه الكتاب ، فأخذ الشيخ يماكس ويمارس ويطيل المماكسة ، ثم انصرف من غير أن يشتريه ، فالتفت إلىَّ وقال : صدَّقت ؟

وله علم بالكتب وموضوعاتها وقيمتها ، وله ميزة عن غيره من تجار الكتب العربية بأنه يعرف الكتب العربية التى طبعها المستشرقون فى أوربة ، يستجلبها فى سهولة ويسر لحذقه الكتابة باللغة الفرنسية ، وناشرو هذه الكتب يثقون به لصدق معاملته ، كما أن له ميزة أخرى وهى معرفته بهواة الكتب من زبائنه ، فهذا الكتاب يناسب فلاناً ، وهذا الكتاب لا يناسب فلاناً ، وإذا أتاه كتاب حجزه للذى يظن به الانتفاع منه ؛ وله فى ذلك طبع غريب ، فهو يرضى أن يبيع الكتاب لهاويه الذى ينتفع به بجنيه ، ولا يرضى أن يبيعه لمن لا ينتفع به بجنيهين . وهو مشهور بين زملائه بالزندقة ، لأنه لا يعترف بالأولياء ولا بالأضرحة ولا بزيارة القبور ونحو ذلك ، ثم هو لا يكتم عقيدته فى نفسه ، بل يكررها فى كل مناسبة ؛ ركب مرة قطاراً من مصر إلى الإسكندرية ، وجلس مع جماعة فى صالون فلما وصل القطار إلى طنطا قال أحد الحاضرين : الفاتحة للسيد البدوى ، فصاح هذا الكتبى : ومن يكون السيد البدوى وما كراماته وما قيمته ! وطال لسانه فقام عليه الحاضرون

وأوسعوه ضرباً ، ولم ينجُ منهم إلا بعد عناء ، وهكذا وهكذا من فصوله الغريبة . وهو أمين صادق المعاملة يقنع بكفاف العيش ، وبساطة اللباس ، إن ضاقت عليه الدنيا لبس جلباباً بدل البدلة ، ولم يعبأ بأسرته الكبيرة تتعير من شكله .

ولست أنسى مرة حادثاً غريبا فى بابه حدث لى من جراء هذه المكتبة ، و بعض أحداث الدنيا يحدث على غير انتظار ومن غير سبق مقدمات ، و إذا كان الموت — وهو القاضى على الحياة — قد يحدث فجأة فى أشد أوقات السرور ، فأولى أن تحدث الأزمات مما دونه من الحوادث . لقد كان عندى كتاب « نفح الطيب » طبعة برانية وأردته طبعة أميرية ، ووجدت عند صاحبنا هذا نسخة لطيفة مجلدة تجليداً فخماً ، فاشتريتها منه وهى فى أربع مجلدات وضعتها تحت إبطى الأيسر ، وأمسكت جريدة المؤيد بيدى اليمنى ، وانتظرت عربة كانت تسمى عربة سوارس — عربة كبيرة تجرها الجياد من سيدنا الحسين إلى العتبة الخضراء — فجاءت مزدحمة ، وركبتها فوجدت فى ممشاها قُفَفاً لفلاحات وأخراجاً لفلاحين ، ورفعت رجلى أتخطى قفة من القفف فمست سيدة جالسة تلتفع بملاءة لفّ وعلى وجهها برقع بقصبة ، فصاحت بى وأمطرتنى وابلاً من السباب ، فغضبت ، وضربتها ضربة خفيفة

بجريدة المؤيد على فمها أقول لها اسكتى ، فراعنى أنها صوتت صوتاً مرعباً لفت كلَّ من فى الشارع ، ووقفت العربة واجتمع الناس يتعرفون الخبر ، ونادت البوليس وصممت عليه فنزلت ونزلت وحضر البوليس وركبنا عربة إلى القسم ، ودخلنا غرفة المعاون ، فسمع منى وسمع منها ، ورأى المسألة بسيطة فطلب منى أن أعتذر وسألها أن تقبل العذر ، فلم تقبل ، فألحّ عليها فلم تقبل أيضاً ، فاضطر أن يحرر بذلك محضراً رسميا ، وأخذ أقوالى وأقوالها ، وألحت أن تحال على طبيب المحافظة لأن بها خدشاً فى أنفها من ضربة الجريدة ، ففعل وخرجَتْ ، وخرجتُ مضطرباً مرتبكا خجولاً خائفاً ، فقد كان هذا أول حادث لى من نوعه ، فلم أدخل يوماً مركز البوليس فكيف والشاكى امرأة !! ولعنت الكتب ونفح الطيب وأشباه نفح الطيب مما جرَّ علىَّ هذا البلاء المبين ، و بقيت أياماً قلقاً مضطربا لا أدرى ماذا يُفعل بى ، و إذا بإعلان يجيئنى بأنى اعتديت على السيدة اعتداءً أحدث بها عاهة قد قرر الطبيب لعلاجها واحداً وعشرين يوماً ، فاعتُبرت الجريمة جنحة لا مخالفة ، وحدد للجريمة جلسة فارتجفت وقضيت ليلة أليمة لم تذق فيها عينى النوم ، وفى الصباح ذهبت إلى صديقى أحمد بك أمين أستشيره فيما أفعل فذهب معى إلى وكيل نيابة الأزبكية وقصصنا عليه الأمر ، فقال

إن المسألة قد خرجت من يده ، ولو كان قرار الطبيب عشرين يوماً فأقل لعدّت مخالفة وكان فى يدى حفظها ؛ أما وهى واحد وعشرون يوماً فجنحة ، والأمر فوق سلطانى ، فزادنى ذلك ارتباكا واضطراباً بالنهار وأرقا بالليل ، وأخيراً ذهبت بعريضة الدعوى إلى عاطف بك وشرحت له القصة فضحك منها ومنى وأخذنى معه إلى وكيل وزارة الحقانية فتحى باشا زغلول فبذل فى ذلك مجهوداً حتى انتهى الأمر ؛ فويل للناس من النساء إذا انتقمن .

وأما المكتبة الإنجليزية فمكتبة مرتبة منظمة ليس فيها موضع لجلوس ولا قهوة ولا تدخين ، ولا حديث لصاحبها إلا كتاب يباع وثمن يدفع ، قد صفت فيها الكتب تصفيفاً علمياً ؛ فهذا مكان للقصص ، وهذا مكان لكتب الاجتماع ، وهذا مكان لعلم النفس وهكذا . وإذا سألت صاحبها عن كتاب اتجه يميناً أو يساراً ونظر نظرة فاحصة فى ثانية ومد يده فأخرج الكتاب أو قال لك ليس عندى . قد عشقت هذه المكتبة أول عهدى بالإنجليزية ، وتلذذت من زيارتها — ولكل جديد لذة — أزورها فأقضى فيها وقتاً طويلا أتصفح فيها الكتب وأشترى منها ما يروقنى ، وقد كونت منها نواة لمكتبتى الإنجليزية ، وأكثر ما اشتريت منها كتب فى علم الأخلاق لأستعين بها على تحضير دروسى ؛

وكتب فى علم الاجتماع ، إذ شوقنى إليها قراءتى مع « مس بور » جمهورية أفلاطون ، وكتب فى مبادئ الفلسفة ، إذ كانت الأخلاق والاجتماع فرعين من فروع الفلسفة ، وكتب فى المنطق لأنى أردت أن أعرف كيف يكتب الإفرنج فى المنطق بعد أن عرفت كيف يكتب العرب ، وكتب فى الإسلاميات مما كتبه المستشرقون لأن هذا موضوعى .

على كل حال بدأت أحضّر دروسى من الكتب العربية والإنجليزية معاً ، فأعددت محاضرات عامة فى تاريخ علم الأخلاق عند اليونان والرومان والعرب وفى العصور الحديثة ، استقيت أكثر موادها من الكتب الإنجليزية ، وشغفت أياما بنظرية النشوء والارتقاء لدارون ، فقرأت فيها كتب شبلى شميل بالعربية ، وبعض الكتب الإنجليزية التى تعرض للموضوع عرضاً مبسطاً ، وأعددت محاضرتين فيها ألقيتهما على طلبة مدرسة القضاء و بعض أساتذتها و بحضور ناظرها ، وكانت إحدى المحاضرتين فى معنى مذهب النشوء وما يرمى إليه ، والثانية فى تطبيق نظرية النشوء على الأخلاق ، كما اتجه إلى ذلك سبنسر وغيره ، وأحدثت هاتان المحاضرتان دوياً : كيف يلقى مثل هذا الموضوع على طلبة القضاء الشرعى ، كان من نتيجته أن أرسل شيخ الجامع الأزهر إلى ناظر

المدرسة يسأله : كيف أباح لمدرس فى المدرسة أن يلقى محاضرات فى مذهب الزنديق دارون ! فأهمل الناظر السؤال ولم يردّ عليه .

ويوماً لقيت فى هذه المكتبة الإنجليزية كتيباً صغيراً عنوانه « مبادئ الفلسفة » تأليف رابوبورت ، قرأته فأعجبنى لسهولته وبساطته وشموله ، كتبه مؤلفه لطلبة المدارس الثانوية يعرفون به معنى الفلسفة وموضوعها ، فشغفت بترجمته وكنت أقف فى جمل كثيرةٍ منه رجعت فيها إلى صديق لى أستوضحه ما غمض حتى أنهيت ترجمته ، وبذلت فيه جهداً كبيراً إذ كان أول عهدى بالترجمة ، ثم طبعته ونشرته فى لجنتنا لجنة التأليف ، فكان هذا أول نتاج لى وكان ذلك سنة ١٩١٨ ، وقوبل الكتاب بما شجعنى على أن أعيد النظر فى مذكراتى التى أعددتها للطلبة فى علم الأخلاق ، وأزيد عليها وأحوّلها إلى كتاب سميته كتاب الأخلاق ، وطبعته بعد مبادىء الفلسفة بقليل .

(٢١)

وكان لى بجانب هذه المدرسة من الأصدقاء — ذوى الثقافة الإنجليزية — جمعية من أصدقاء آخرين ذوى ثقافة فرنسية غالباً ، عميدها صديقى المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ومكانها فى

بيته ، وكان أعضاؤها أكثرهم من خريجى الجامعات الفرنسية وممن ألِفَ بينهم إقامتهم فى فرنسا وتعلمهم بها ، وإذا كان يكثر فى الجمعيات الأولى ذكر شيكسبير وديكنز وماكولى وبرنارد شو وه. ج ولز ، فقد كان يكثر فى هذه الجمعية ذكر جان جاك روسو وڤولتير وراسين وموليير ودركهايهم . وإذا كانت الجمعية الأولى تغلب عليها المحافظة والاعتدال فهذه يغلب عليها التحرر والثورة على القديم — كنا نجلس فى هذه الجمعية ، وقد يحضر فيها أحياناً بعض السيدات الفرنسيات زوجات بعض المصريين ، وبعض العلماء من الأزهر ، ويتشقق الموضوع ويثار الجدل ، ويكون الحديث مزاجاً بين حرية فرنسية واعتدال إنجليزى ومحافظة أزهرية ، نتحدث فى السياسة وفى حرية المرأة ، وفى المقارنة بين فرنسا ومصر .

وكان من أعجب من عرفت فى هذه الجمعية شاب تثقف ثقافة قانونية امتاز بالشجاعة الأدبية والصراحة ، فكان لا يقول إلا ما يعتقد ، ولا يعمل إلا وفق ما يعتقد ، على حين أن كثيراً من الشبان يرون الرأى ثم لا يقولونه ، وإذا قالوه لا يعملون على وفقه ، كالذى سمعت أن جماعة كانوا يجتمعون فى منظرة فى بيت وكانوا يتجادلون فى سفور المرأة وحجابها ، وكان صاحب البيت أكثرهم

تحمساً للسفور ودفاعاً عنه وتأييداً له ، فبينما هم فى المناظرة إذا بصوت سيدة عجوز هى جدة صاحب البيت يصل إلى آذان المتناظرين فى المنظرة ، فيخجل صاحب البيت و يصعد إلى جدته يؤنبها على علوّ صوتها وقد نسى محاضرته فى السفور .

أما صاحبنا هـذا فـكان شجاعاً جريئاً فى كل ما يقول ويعمل ، تزوج فتاة مصرية ، و إذ كان يعتقد السفور حملها على السفور فأطاعته ، فى وقت عزَّ فيه السفور ، وعلا الصوت فى نقده ومقته ، فـكان يخرج بها فى المجتمعات و يزور معها الأصدقاء و يجلس هو و إياها فى مقهى ولا يعبأ بنقد الناقدين ولا عيب العائبين ، وكان وكيل نيابة فى أسيوط وأسيوط بلد محافظ فعابوا عليه تصرفه وشكوه للحقانية فلفتت نظره فصمم على عمـله فنقل إلى الأسكندرية ولم يتحول عن طريقته ، وأخيراً رماه الزمان الذى لا يرحم بداء السل وألحّ عليه المرض فألزمه السرير ، وتفرق عنه أهله وأقرباؤه ، فعكف وهو على سرير الموت يكتب كتاباً عنوانه « كلمتى إلى أمتى » ثم لفظ النفس الأخير[1] .

كنا نجلس يوماً مع نخبة من هـذه الجماعة وكان أحدها يصدر جريدة اسمها السفور يدافع فيها عن رأى قاسم أمين و يدعو

(١) هو المرحوم كامل بك حسين .

إليه ، فدعانا أن نأخذ الجريدة ونساهم معه فى إخراجها ونتولى تحريرها فقبلنا هذا العرض ، وتألفت لجنة من الجمعيتين ، جمعيتى الأولى المثقفة ثقافة إنجليزية وجمعيتى الثانية المثقفة ثقافة فرنسية ، وتسلمنا الجريدة نحرّرها ، وكانت جريدة أسبوعية ، فكنا نجتمع يومين أو ثلاثة فى الأسبوع نقرأ فيها بريد الجريدة ونقرأ فيها ما حرره كلٌّ منا من مقالة وننقد ما نسمع ونجيز أو لا نجيز ما ينشر ، وجهدت أن أكتب مقالة كل أسبوع ، فكان ذلك أول عهدى بالصحافة وبالكتابة ، وكان ذلك أيضاً على ما أذكر سنة ١٩١٨ .

وفى هذا العهد كثر الحديث فى مجالسنا عن الزواج والأزواج والزوجات وسعادة الزوجية وشقائها وضرورتها أو الاستغناء عنها والزواج بالأجنبيات والمصريات ، ورويت الأحاديث المختلفة عن فلان المتزوج الذى سعد فى زواجه ، وفلان المتزوج الذى شقى بزواجه ، وفلان الذى أضرب عن الزواج واستمتع بالحياة فى أولها وشقى فى آخرها وهكذا ، وجال الموضوع فى ذهنى فى قوة ووجدتنى قد بلغت التاسعة والعشرين ، فصممت أن أبت فى الموضوع هل أتزوج أو لا أتزوج ، وأخيراً وبعد تردد طويل قررت أن أتزوج ، ولكن نشأت العقدة الثانية : من أتزوج ؟ .

وكان السفور فى هذا الزمن فى أول أمره لم يجرؤ عليه إلا عدد محدود من المثقفات ، فكان الزواج غالباً يخضع للتقاليد القديمة يسمع الشاب من صديقه أو أحد أقاربه أَنَّ لفلان بنتاً فى سن الزواج ، وقد يبلغه هذا الخبر من محترفة لهذه الوظيفة وهى التى تسمى « الخاطبة » وهى امرأة تزور البيوت وتتعرف أخبارها وترى من فيها من الشابات فى سنِّ الزواج أو من الشباب الذين يريدون الزواج ، وتكون واسطة بين أهل الزوج وأهل الزوجة فى تعريف هؤلاء بأولئك ، فيتقدم أحد أقارب الشاب إلى أبى الشابة أو ولى أمرها يعرض عليه الرغبة فإذا قبل أرسل الشاب أُمَّه و بعض قريباته من النساء لرؤية الفتاة ، فإذا وصفوها وصفاً اقتنع به تقدم للزواج من غير أن ينظرها و يعرف شكلها وطباعها وأخلاقها . و إنما يعرف ذلك كله بعد عقد العقد و بعد الزفاف .

هكذا كان الزواج فى عهدى فى مثل طبقتى ، وكنت شابا لا بأس بشكله ولا بأس بأسرته ، فأنا و بيتى نعد من الأوساط وأنا أحمل شهادة عالية ، ومرتبى نحو ثلاثة عشر جنيهاً وهو مرتب لا يستهان به فى ذلك العصر ، وكنت أتلمس الزواج فى أمثالى من الأوساط ، لا أطلب الغنى ولا أطلب الجاه ، ومع ذلك كله وقفت العمامة حجر عثرة فى الطريق ، فكم تقدمت إلى بيوت

رضوا عن شبابى ورضوا عن شهادتى ورضوا عن مرتبى ، ولكن لم يرضوا عن عمامتى ، فذو العمامة فى نظرهم رجل متدين ، والتدين فى نظرهم يوحى بالتزمت وقلة التمدن والالتصاق بالرجعية والحرص على المال ونحو ذلك من معانٍ منفرة ، والفتاة يسرها الشاب المتمدن اللبق المساير للدنيا اللاَّهى الضاحك ، فكم قيل لى أن ليس عندهم مكان للعمة ، ورضى بى قوم أولاً وأحبوا أن يرونى ، فأحببت أن أريهم أنى متمدن ، وذهبت إليهم أحمل كتاباً انجليزياً وجلست إليهم وجلسوا إلىّ وتحدثت إليهم حديثاً عصريا على آخر طراز وحشرت فى كلامى بعض كلمات إنجليزية فاستغربوا لذلك ، وفهمت أنهم أعجبوا بى ورضوا عنى ، ولكن بلغنى أن الفتاة أطلت علىَّ من الشباك وأنا خارج فرأت العمامة والجبة والقفطان فرعبت ورفضت رفضاً باتاً أن تتزوجنى رغم إلحاح أهلها . وشاء القدر أن تتزوج هذه الفتاة — فيما بلغنى — شابا أنيقاً كاتباً فى وزارة ولكنه سكير معربد أذاقها المرار فى حياتها الزوجية ثم طلقها ، وما زال يسوء حالها حتى تزوجت بعامل فى التلغراف وجاءت إلىَّ وأنا قاض فى محكمة الأزبكية تطلب من زوجها النفقة .

وهكذا لقيت العناء فى الزواج . فكلما دلنى صديق على فتاة فإما إن أجد مانعاً منها أو تجد مانعاً منى ، فمن أرضاه لا يرضانى

ومن يرضانى لا أرضاه . وأخيراً دلنى مدرس معى فى مدرسة القضاء على بيت رضينى ورضيته ، فأرسلت أمى وأُختِى وزوجة الأستاذ لرؤية الفتاة فرأينها ووافقن عليها ، وجعلت أسأل أمى وأختى أسئلة عن شكلها وملامح وجهها وطولها وعرضها وفراستهما فى أخلاقها ونحو ذلك ، وأستمع لإجابات لا تصور شكلا ولا توضح حقيقة ، وأجلس إلى نفسى وأُعمل خيالى فيما سمعت . فأصوغ من ذلك شكلا ، وقد أجلس معهما مرة أخرى أسمع منهما حديثاً آخر ووصفاً آخر ، فأتخيل من ذلك صورة أخرى وهكذا ، وأخيراً سلمت الأمر لله وتركت التصوير حتى ترى العين ما رسم الخيال . وتمّ عقد الزواج يوم ٣ ابريل سنة ١٩١٦ وقد أخذت يوم العقد مائة جنيه انجليزى ذهباً فى علبة جميلة قدمتها مهراً للزوجة وانتظرت نحو أربعة أشهر حتى يتم أهل الزوجة الجهاز .

وكانت هذه الأشهر الأربعة مجال تفكير فى السعادة المرجوة والأحلام اللذيذة ، وبناء القصور على الآراء الفلسفية أو النظريات المدونة فى الكتب ، فأنا أزور المكتبة الإنجليزية وأبحث عما كتب فى الزواج ، فأعثر — مثلا — على سلسلة من الكتب أحدها فيما ينبغى للزوج أن يَعلم ، وثانيها فيما ينبغى للزوجة أن تعلم وهكذا . ثم أجد كتابا فى الزواج السعيد وآخر فى الأسرة ، وثالثاً فى تربية

الطفل فأقرؤها وأفكر فيها وأستخلص منها ما يجب أن أعمل لأسعد وعلى أى الأسس أبنى أسرتى وهكذا .

وقد ذهبت بُعَيد عقد الزواج إلى مصوّر ماهر صوّرنى صورة تذكارية احتفظت بها ، ووجدتنى قد كتبت على ظهرها العبارات الآتية : « هذه صورتى أخذت يوم الجمعة ٧ ابريل سنة ١٩١٦ وسنى تسع وعشرون سنة وستة أشهر ، عقب عقد زواجى بأربعة أيام ، وقد اتخذت الكتب شعارا لى فى الصورة ، فوضع المصور أمامى كتبا من عنده وأمسكت بيدى اليسرى كتاب « مبادئ الفلسفة » وكنت قد اشتغلت بتعريبه وأوشك على الانتهاء ، وقد لاحظت أن أصوَّر صورة فى غاية من البساطة فلم أتعمل شيئا إلا اختيار الثوب الذى اخترته يوم عقد الزواج ، وربما كان الباعث لى على هذا التصوير ما أشعر به من أنى قادم على حياة جديدة ومرحلة جديدة ، فقد أنهيت حياة الوحدة وسأقدم على حياة الأسرة ، وأنا مقتنع أن هذه البيئة الجديدة سيكون لها أثر كبير فى نفسى وجسمى وعقلى ، وسأقارن بين المعيشتين وأثرهما إذا كان فى الأجل متسع — ومن البواعث على هذا التصوير أيضا علمى أن السنة المتممة للثلاثين تختم حياة الصبا والفتوة وتفتح حياة يغلب عليها العقل والروية ، على أنى — والأسف يملأ

فؤادى — لم أنتفع بزمن الصبا والفتوة كما كان يجب . فلم يجد المرح والنشاط واللهو — ولو كان بريئا — ولا الحب إلى قلبى منفذا ، بل تشايخت منذ الصبا — وهذا ولا شك أثر التربية المنزلية ، فقد كانت تربية أساسها التخويف والإرهاب ، ولم يكن فى بيتى أى مظهر من مظاهر البهجة والسرور ، وإنى فى هذه السنة أحس شيئا من النشاط على أثر دروسى الإنجليزية مع مدرسة انجليزية كانت تُصلح من نفسى كما تصلح من لسانى ، وكانت تنتقد فىّ الهدوء والسكينة ، كما كان لدروس الأخلاق مع عاطف أثر كبير فى نفسى ؛ ومما أحسه أيضا أننى أكثر حرية فى الفكر وأكثر نقدا لما يعرض لى ؛ وأكثر ميلى هذه السنة إلى القراءة فى علمى الأخلاق والاجتماع مع ما أجد من الصعوبة فى فهم ما أقرأ ، لقرب عهدى بتعلم الإنجليزية ، فقد بدأت تعلمها فى يناير سنة ١٩١٤ فلى الآن نحو سنتين ونصف سنة وهى مدة لم تكف فى التبحر فيها .

وأنا الآن مدرس بمدرسة القضاء ومرتبى ١٣٢٠ قرشا فى الشهر ، ولم أمَلَّ التدريس ولا زلت أفضله على القضاء — وأنا أرجو من الله أن يعيننى على القيام بعمل عظيم أخدم به أمتى من الناحية الخلقية والاجتماعية » . (كتب فى ٢٠ يوليه سنة ١٩١٦)

وليس لى تعليق على ما كتبته خلف الصورة إلا على قولى

« إن الحب لم يجد إلى قلبى منفذا » فهو تعبير غير دقيق وقول لا يصدق إلا على رجل جامد العواطف ، بل كانت عواطفى أقرب إلى أن تكون حادة وخاصة فى أيام الشباب الأولى — ظهرت حدتها فى العاطفة الدينية فقد كانت مشبوبة حادة ، وفى حبى لأصدقائى فقد كنت آنس بقربهم وآلم لبعدهم ، وفى عاطفة الرحمة والشفقة على الفقراء والبائسين ونحو ذلك من مظهر للعواطف ، بل قد تحركت فىّ عاطفة الحب منذ الصبا ، فقد أحببت وأنا فى نحو الخامسة عشرة ابنة جار لنا والتهبت عاطفتى فأرقت كثيرا وبكيت طويلا ، وكل ما كان من وصال أن أجلس أنا وهى على كرسيين أمام دارها نتحدث فى غير الغرام ، فلما وسوس الشيطان لأبيها حجبها عنى وشقيت زمنا بذلك ثم سلوت ثم أحببت المدرّسة الإنجليزية الشابة حبا ضنيت به ولم تشعر به ، وكل ما سعدت به ساعات الدرس أتحدث إليها وتتحدث إلىّ وتنظر إلىّ بعينيها الصافيتين الأمينتين ، ولكنه كان حبا يائسا ، فهى متزوجة مخلصة لزوجها سعيدة بزواجها . فعاطفة الحب كانت فى أعماق نفسى ولكنها مكبوتة ، حال دون ظهورها وسطى ، فالفتاة لم تكن سافرة سفور اليوم ، وكان الشاب لا يعرف من الفتيات إلا أقاربه ، وكانت تربيتى الدينية تعد الحب فجورا ، والنظر إلى الفتاة وحديثها إغواء

شيطانيا ، ومدرستى كبيتى متزمتة متعنتة ، لا ترتاح لأن يجلس طالب فى قهوة ، وتعاقب من وجد فى صالة غناء . وحدث مرة أن شوهد متخرج حديثا من المدرسة يجلس فى مقهى بالأزبكية مع صاحبيه من غير المدرسة وأمامهم كاسات من البيرة ، فكان من سوء الحظ أن مر عليهم عاطف بك ورأى هذا المنظر ، ومع أنه لم يتحقق من شرب هذا الشاب البيرة فقد حرمه من تولى القضاء سنين ، ورفض كل رجاء فى العفو عنه ، ولم يعين بعدُ إلا بضغط عليه شديد أو رغما عنه .

كل هذا لم يهبنى مجالا للحب ، بل كبتُّه فى أعماق نفسى إلى أن تزوجت .

و بعد العذاب فى اختيار الزوجة وعقد العقد و إعداد الجهاز اخترت بيتاً أسكن فيه وحدى مع زوجى قريباً من بيت أهلى ، وحرصت على ذلك حتى أتجنب الأقوال الشائعة والحكايات التى لا تنتهى فى النزاع بين الزوجة والأم . وكذلك تمت هذه المرحلة .

— ٢١ —

تزوجت وكان كل اعتمادى فى الزواج — كما ذكرت — على الخيال لا على الواقع . الخيال هو الذى رسم صورة زوجتى وأخلاقها

وصفاتها معتمدا فى رسمه على أحاديث النساء اللاتى شاهدتها ، والخيال هو الذى رسم صورة لحياتى المستقبلة اعتماداً على ما سمعته من أحاديث عمن سعدوا فى زواجهم ومن شقوا ، وأسباب سعادتهم وأسباب شقائهم ، واعتماداً على ما قرأت فى الكتب الإنجليزية عن الحياة الزوجية .

ولكن شتان بين الواقع والخيال ؛ فالخيال يرسم الصورة وهو حر طليق محلق فى السماء ، والواقع يلتصق بالأرض و يتقيد بالظروف والبيئة والمكان والزمان وغير ذلك . وقد أذكرنى الفرق بين الواقع والخيال بحادث حدث لصديق لى سافرت معه إلى الإسكندرية لنستجم من متاعبنا ، وكنت أعرف العوم ولم يكن يعرفه ، فغاظه ذلك وصمم على أن يتعلم العوم ، وصادف أن مر أمام مكتبة إنجليزية فرأى فى ظاهرها كتاباً فى العوم فاشتراه — وكان قويا فى اللغة الإنجليزية فسهر عليه ليلة حتى أتمه قراءة وفهما وعرف منه تمام المعرفة نظرية العوم وكيفيته وطرقه ، وأيقن أنه بذلك يستطيع أن يغالب أكبر عوام ، وحدثنى بذلك فى الصباح فضحكت من حديثه ، فلما ذهبنا إلى حمام البحر تبخرت كل نظرياته وعلمه ، ووضع «قرعتين» على ظهره ، وأمسك بالحبل الممدود ، وطمأن رجليه على الرمل ، ولكن سرعان ما اصفر وجهه واضطرب جسمه

وخاف أن يفارق الحبل ليسبح وفقاً لنظريات الكتاب .

قابلت زوجي فكنت كمن يفض غلاف «حلاوة البخت» أو كمشترى ورقة « اليانصيب » حين يقرأ جدول النمر الرابحة ، وحمدت الله على ما وهب ، وبقى أن أعرف صفاتها التى تظهر يوما فيوما كلما حدثت مناسبة أو جَدَّ جديد .

لقد عشنا زمنا عيشة هادئة سعيدة فيها لذة الاستكشاف أتكشف أخلاقها وتصرفاتها وتتكشف أخلاقى وتصرفاتى ، وفيها لذة تحقيق الشخصية فقد لبثت طويلا فى كنف أبَوىّ ، وأنا الآن رئيس البيت حر التصرف إلى آخر ما هنالك .

ولكن صدم زوجى بعد قليل أن رأتنى هادئا غير مرح ، قليل الكلام ، وقد تربت فى بيت مرح ، مملوء بالضحك والبهجة ، يكثر فيه الحديث فى الفارغ والملآن ، فظنت أنى لا أقدرها أو أنى نادم على الزواج بها . وأؤكد لها أن هذا طبعى كسبته من بيتى فلم تصدق ولم تطمئن إلا بعد طول العشرة ووثوقها من أنى كذلك مع غيرها لا معها وحدها .

ومشكلة أخرى عرضت لها ولى ، وهى أنى رجل مدرس مضطر إلى تحضير دروسى فى المساء لألقيها فى الصباح ، وفوق ذلك أحب القراءة فى غير دروسى أيضاً ، فأنا فرح بتعلمى الإنجليزية مشغول أول عهدى بالزواج بإنهاء ترجمة كتاب «مبادئ الفلسفة» ،

وزوجتى مثقفة ثقافة محدودة ، تقرأ القصص والروايات الخفيفة من غير شغف ، فهى تحتمل الصباح وحدها لإعداد ما نأكل وتنظيف ما ينظَّف ، ولكن كيف تحتمل المساء أيضاً وحدها وأنا فى غرفة بجانبها أقرأ وأكتب والأيام هى الأيام الأولى لزواجنا ؟ وحدث مرة أن أعدّت العشاء وفتحت علىّ الباب وأخبرتنى بأن العشاء معد ، وكنت أمام جملة فى مبادئ الفلسفة صعبة ، أحاول ترجمتها وأحاور عبارتها وأتذوق صياغتها ، فلم أسمع النداء والإخبار ، ولم أشعر بفتح الباب ، فكان خصام وكان نزاع وكانت شكوى إلى أهلها لم تنته إلا بعناء ، ولم أستطع التحول عن طبعى وغرامى . ثم حلت المشكلة بعض الشيء بالولد الأول واشتغال أمه به ثم بما تتابع من أولاد ، ثم باضطرارها إلى قبول الأمر الواقع والرضا بما قدر الله من عيش فى شبه عزلة بما أقرأ وأكتب .

وكانت نظريتى فى الأولاد تخالف نظريتها ، فكان من رأيى الاقتصار على ولد أو ولدين ، شعوراً بمسئولية التربية وتوفيرا للزمن الذى أحتاجه فى التحصيل والدرس ، وتمشياً مع النظرة التى أراها وهى أن الأمة المصرية مكتظة بالسكان وأن كثرتهم تحول دون العناية بتغذيتهم تغذية صحيحة وتربيتهم تربية صحيحة ، فلو قل عدد الأسرة كانت أقدر على أن ترفع مستواها فى أمور الاقتصاد

والتربية ؛ ولكن زوجتى لا ترى هذا الرأى ، وقد نصحتها بعض قريباتها بالمثل المشهور وهو « قُصِّيه لئلا يطير » فالطائر إذا نزع ريشه أو قصَّ لا يطير ، والزوج إذا خف حمله لقلة الأولاد كان عرضة أن يطير و يتزوج ثانية وثالثة ، وقد غلبت نظريتها نظريتى ، ولم تعبأ بالمتاعب التى كانت تلاقيها فى الولادة والتربية ، فرزقتُ بعشرة أولاد — ولله الحمد — مات منهم اثنان فى طفولتهما ، و بقى لى ثمانية أسأل الله أن يمد فى عمرهم و يسعدنى بهم ، ستة أبناء و بنتان . و إنى لأعجب لنفسى و يعجب لى غيرى كيف استطعت أن أؤلف ما ألفت وأ كتب ما كتبت وأقرأ ما قرأت مع ما تتطلبه تربية الأولاد من جهود لا نهاية لها . و يرجع الفضل فى ذلك إلى الأم وحملها عنى الأعباء التى تستطيع القيام بها ، وا كتفائى بالإشراف على تربيتهم العلمية والخلقية ، ثم تقصيرى فى إطالة الجلوس معهم ومسامرتهم و إطالة عزلتى على مكتبى .

على كل حال بعد أن عرفت زوجى أخلاقى وعرفت أخلاقها وتكشفت لها ميولى وتكشفت لى ميولها ، حدثت المصالحة والتفاهم فتنازلَتْ عن بعض رغباتها لرغباتى ، وتنازلْتُ عن بعض رغباتى لرغباتها ، فكانت عيشة هادئة سعيدة نرعى فيها أ كثر ما نرعى مصلحة الأولاد وخلق الجو الصالح لتربيتهم .

وأحيانا كان يعكر صفونا شيئان لعـله لم يخل بيت منهما إلا فى القليل النادر .

أحدهما مسألة الخدم ، فالبيت لا يستغنى عنهم ولا يرتاح بهم ، وكانت مشكلتهم عندنا مزمنة وخاصة فى الخادمات .

فزوجى غضوب ، تريد أن تنفذ جميع أوامرها فى دقة ، والخادمة لا تعمل أو لا تستطيع أو تعاند فيكون الغضب ، أو تريد أن تعاملها معاملة السيد للعبد ، وتأبى هى إلا أن تعامَل معاملة الند للند ، أو تريد زوجى أن تكون الخادمة نظيفة والخادمة قذرة ، أو مرتبة منظمة وهى لا تفهم ترتيبا ولا نظاما ، وهكذا . كثيراً ما يكون للزوجة الحق وكثيراً ما يكون للخادمة الحق ، فإذا تدخلت انقلب مركز النزاع من الخادمة إلىّ . وزوجى غيور ، فهى لا تحب بطبيعتها أن يكون للخادمة أية مسـحة من جمال ، فإن كانت كذلك فالويل لها . والحديث يطول بيننا حول خادمة خرجت وخادمة جاءت وخادمة أساءت وخادمة سرقت . وأخيراً قررت إخلاء يدى من الخادمين والخادمات ، وتركت لهـا مطلق الحرية أن تخرج من تشاء وتدخل من تشاء على شرط ألا تذكر لى شيئاً من أخبارهم وأحوالهم .

والثانى مشكلة وسائل التفاهم ، فقد كنت من غفلتى أعتقد

أن العقل هو وحده الوسيلة الطبيعية للتفاهم ، فإن حدثت مشكلة احتكمنا إليه وأدلى كل منا بحججه فإما اقتنع و إما أقنع ، و إما أصر و إما عدل . ولكنى بعد تجارب طويلة رأيت أن العقل أسخف وسيلة للتفاهم مع أكثر من رأيت من السيدات ؛ فأنت تتكلم فى الشرق وهن يتكلمن فى الغرب ، وأنت تتكلم فى السماء فيتكلمن فى الأرض ، وأنت تأتى بالحجج التى تعتقد أنها تقنع أى معاند ، وتلزم أى مخاصم ، فإذا هى ولا قيمة لها عندهن . تقول : إن الأوفق أن نتصرف فى هذا الأمر بكذا لكذا من الأسباب . فترد عليك بأقوال متأثرة بعواطف ساذجة . وتقول : هذا التصرف لا يصلح لما يترتب عليه من أضرار تعينها . فترد عليك بأن العرف والعادة غير ذلك . وتعاقب ابنك لتؤدبه فتفسد العقوبة بتدخلها لمجرد العطف الكاذب . وتتصرف التصرفات الحكيمة فتؤولها بنظراتها العاطفية تأويلات غريبة . وهكذا أدركت أن من الواجب ألا ألتزم المنطق ، وأنى إذا أردت الراحة والهدوء فلأضحِّ بالمنطق أحيانا ، وأتكلم الكلمة السخيفة إذا كان فيها الرضا، وألعب بالعواطف رغم المنطق إذا أردت السلامة .

وهكذا ، كانت حياتنا كالبحر الهادئ ، ولكن من حين لآخر تثور مشكلة من هذه المشاكل ، فيتكهرب الجو ويموج

البحر ثم تنتهى العاصفة و يعود إلى البحر هدوؤه .

ولم تكن لنا مشكلة مالية مما تشقى به بعض العائلات ، فقد وسع الله علىّ فى الرزق ، ولم يأت علىّ يوم اقتصرت فيه على مرتبى الحكومى ؛ فعند تخرجى من مدرسة القضاء انتدبت مدرساً للأخلاق بمدارس الأوقاف الملكية بمرتب آخر ؛ ولما عينت قاضياً فى مصر انتدبت مدرساً بمدرسة القضاء ، ثم درّ علىّ الرزق بما أربح من كتبى ومقالاتى ؛ فمع ما تتطلبه الأولاد الكثيرة من نفقات كثيرة لم أشعر بحاجتى إلى الاستدانة ولا مرة ، و إلى جانب ذلك فأنا رجل ليس لى كيف من الكيوف إلا الدخان ، ثم معتدل فى الإنفاق ، وأنا أَمْيَلُ إلى التبذير ، وزوجتى أميل إلى التدبير ، ولو ترك الأمر لى ما أبقيت على شىء ، ولكن زوجتى لكثرة الأولاد ، وما يتطلبه ذلك من حساب المستقبل ، احتاطت ودبرت وادخرت .

وكذلك حمانا الله من مشاكل أخرى أصيبت بها بعض الأسر لا داعى لذكرها لأنها لم تدخل فى تجاربنا .

ورزقت بالولد الأول عقب زواجى ، فأوليته كل عنايتى وطالعت من أجله بعض الكتب الإنجليزية والعربية فى تربية الطفل ، وكنت أشترى له اللعب الأجنبية الموضوعة للتسلية وتربية

العقل ، ولم أرتض له المدارس المصرية ، فعلمته فى المدارس الفرنسية — فى الفرير — ثم حولته بعد السنة الثالثة الثانوية إلى مدرسة مصرية ليتقوى فى اللغـة العربية والإنجليزية ، فلما نجح فى البكالوريا ، وكان ترتيبه متقـدماً يسمح له أن يكون فى الطب أو الهندسة ، اختار الهندسة .

وعنيت بالولد الأول أكبر عناية ، علماً بأنه سيكون نموذجاً لإخوته .

وقد كنت قاسياً على أولادى الأولين ، شديد المراقبة لهم فى دروسهم وأخلاقهم ، أعاقبهم على انحرافهم ولو قليلا ، ولا أسمح لهم بالحرية إلا فى حدود ، حسب عقليتى إذ ذاك ، ولـكنها على كل حال قسوة لا تقاس بجانب قسوة أبى علىّ ؛ وكلما تقدمت فى السن واتسع تفكيرى أقللت من تدخلى وأكثرت من القدر الذى يستمتعون به فى حريتهم ، فلم أجد كبير فرق بين الأولين والآخرين لشدة تأثر من لحق بمن سبق .

وما أكثر ما لقيت من متاعب الأولاد فى صحتهم وفى دراستهم وفى سلوكهم ، وكان لـكل سن متاعبها ، فأكثر متاعب الطفولة فى الصحة والمرض ، وأكثر متاعب المراهقة فى الدراسة والسلوك ، وأكثر متاعب الشباب فى طرق الوقاية والمهارة فى الإشراف من

بعيد . وكثيراً ما كان عندى الأسنان كلها أحمل متاعبها المتنوعة جميعها . وأحمد الله فقد نجحت فى تحمل أعبائهم ، وحسن توجيههم إلى حد كبير ؛ فالآن وأنا أكتب هذا زوجت بنتىّ زواجاً يعد بقدر الإمكان سعيداً ، وأتم ثلاثة دراسة الهندسة والرابع فى طريق إتمامها ، ولما ضقت ذرعاً بالهندسة وكرهت سماع النغمة الواحدة تدخلت فى الأمر بعد أن كنت أترك لهم الاختيار ، فوجهت الخامس لدراسة الحقوق ، وسأوجه السادس وجهة أخرى إن كان فى العمر متسع .

وكان حنوى وحنو أمهم عليهم بالغ الحد ، حتى لكثيراً ما ضحينا سعادتنا لسعادتهم ، وتعبنا لراحتهم ، وأنفقنا من صحتنا محافظة على صحتهم ، ونحن نطمع أن يتولى الله وحده الجزاء . أما هم فقد يحاسبوننا على الكلمة الصغيرة يظنون أنها تجرح إحساسهم ، وعلى التقصير القليل يظنونه مساً بحقوقهم ، وعلى العمل يسيئون تفسيره ، وقد يكون الغرض منه خيرهم ؛ ولكن الموقف النبيل يقضى بأن تربية الأولاد ليست تجارة ، تُعطى لتَأْخُذَ وتبيع لتربح ، إنما هى واجب يؤديه الآباء لأبنائهم وأمتهم ، فإن قدَّره الأبناء فأدوا واجبهم نحو آبائهم فبها ، وإلا فقد فعل الآباء ما عليهم ، والمكافئ الله .

(٢٢)

جاءت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، وكانت أحداثها وقوداً لإلهاب الشعور الوطنى ، فخلع الخديوى عباس وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، فحزَّ ذلك فى نفوسنا ، وولى الأمير حسين كامل سلطاناً على مصر ، فأثرت فى شعورنا الطريقة التى عين بها ، فقد كان والى مصر يعين من قبل سلطان الآستانة بفرمان يحمله مندوب سامٍ من قبل السلطان ، فرأينا فى هذه المرة أن تعيين سلطان مصر يتم بخطاب يوجهه إليه متولى أعمال الوكالة البريطانية . وعانت مصر ويلات الحرب من سوء الحالة الاقتصادية ومن اعتداء الإنجليز على الأهالى ، وتشغيل العمال المصريين رغم أنوفهم ، وأخذ السلطة الإنجليزية الدواب والمحصولات جبراً ، وتحليق الطيارات الألمانية فوق القاهرة وإصابتها بعض الأهالى ، وتسفير العمال المصريين إلى فرنسا والعراق ، ونزع السلاح من المصريين . كل هذا وأمثاله ربى شعورنا الوطنى ، وكبت العواطف انتظاراً للهدنة وتنفيذ انجلترا ما وعدت به مصر ، وإن كان وعداً غامضاً ، وقد أفسح هذا الأمل عند المصريين تصريحات ولسن والحلفاء بأنهم إنما يحاربون دفاعاً عن الحرية ، وأنه إذا انتهت الحرب فلا استعمار ولا استغلال ،

وإنما تقرر كل أمة مصيرها وتدير أمورها بنفسها ؛ خاب أمل مصر إذ رأت أن الأحكام العرفية لا تزال باقية والحالة الاقتصادية لم تتغير ، واحتكرت السلطة البريطانية محصول القطن وحددت ثمنه ، ولم تبد أية علامة تدل على أنَّ فى نية انجلترا أن تمنح مصر شيئاً من استقلالها ، اتجهت أفكار بعض الزعماء إلى مطالبة الإنجليز بوفاء ما وعدوا ، وتألف الوفد المصرى وعلى رأسه سعد باشا زغلول ، ثم قبض عليه وعلى بعض صحبه ، وقامت المظاهرات وكثر التخريب واشتعلت البلاد ناراً ، وعاقب الإنجليز الأهالى عقاباً شديداً بإطلاق الرصاص على المتظاهرين والتنكيل ببعض القرى تنكيلاً يذيب القلوب ، إلى آخر ما يعرفه القراء من الأحداث السياسية القريبة العهد .

وكانت مدرسة القضاء تغلى من هذه الأحداث كما يغلى غيرها من المدارس العليا ، وزاد غليانها أيام تكوّن الوفد وعلى رأسه سعد باشا زغلول ، إذ كانت المدرسة تعد نفسها صنيعة من صنيعاته وعملا من أعماله الجليلة ، وأن الوطنية والوفاء معاً يوجبان عليها تأييده ما استطاعت ، وعلى رأس المدرسة عاطف بك بركات من أقرباء سعد باشا ومن أقرب المقربين إليه .

لهذا كله ساهمت — وأنا مدرس فى مدرسة القضاء — فى

الناحية السياسية . وظهرت هذه المساهمة من يوم تكون الوفد واعتقل سعد .

فجمعيتنا الثقافية التى سبق أن تحدثت عنها والتى كانت تخرج جريدة السفور كثيراً ما كانت تتحدث فى السياسة ، وتقلب ما جد من الأمور على وجوهه ، فلما بدأ الوفد يتكون قالت هذه الجماعة : لم َلا يكون لنا ممثل فى الوفد ؟ وانتدبت اثنين كنت أحدهما لمقابلة سعد باشا وعرض الفكرة عليه فذهبنا إليه ، ولكن وجدناه مشغولا فأحالنا بعد أن عرف مطلبنا على أستاذنا أحمد لطفى السيد بك ، فحادثناه فى الأمر ، فسأل : وباسم من تتكلمون ؟ قلنا : باسم جماعة العقليين . وناقشنا طويلا ثم عرض الأمر على سعد باشا زغلول بعد أن عرف أسماء الجماعة ، فاختار منا الشيخ مصطفى عبد الرازق ليمثلنا فى الوفد المصرى ، ولكن الشيخ مصطفى اعتذر بعد أن شاور أسرته .

ولما اشتعلت نيران الثورة كنت من المتصلين بعبد الرحمن بك فهمى سكرتير الوفد ، وكان يضم إليه جماعة من الشبان يوزع عليهم الأعمال ، فاختارنى للإشراف على عملين : الأول إلقاء الخطب السياسية فى المساجد عقب صلاة الجمعة ، فكنت أجتمع مع بعض الزملاء وأنظم معهم إلقاء هذه الخطب وأوزعهم على

المساجد وأعيّن معهم موضوع ما يقولون . والأمر الثانى كتابة المنشورات نذكر فيها أهم الأحداث ، ومن أهم ما أذكره من هذه المنشورات منشور كتبته على أثر مظاهرة السيدات ؛ ففى يوم ١٦ مارس سنة ١٩١٩ ، اجتمع لفيف من الآنسات والسيدات الراقيات وألفن مظاهرة سارت فى شوارع العاصمة ، وكان منظراً جريئاً مدهشاً لم يرو التاريخ مثله فى مصر ، وأخذن بنادين بالحرية والاستقلال و بسقوط الحماية والظلم ، و يلوّحن بأعلام صغيرة ، فلما سرن طويلا ووصلن إلى ميدان من ميادين العاصمة ضرب الإنجليز عليهن نطاقا وصوبوا إليهن البنادق ، فلم يرهبن هذا التهديد وقالت إحداهن أطلق بندقيتك فى صدرى لتجعلوا منى مس كافل أخرى . ثم انصرفن بعد أن وقفن فى الشمس نحو ساعتين ، فكتبت فى فى ذلك منشوراً مطولا فى وصف هذه المظاهرة وأثرها والتهييج بها ، وطبع ووزع .

وقد كانت فى مكتب عبد الرحمن بك فهمى مذكرة بأسماء الذين يشتغلون معه فى هـذه الأعمال فلما قبض عليه وختم مكتبه بالشمع الأحمر كسر بعضهم الباب وأخذ الأوراق التى يظن أنها توقع الأذى ببعض الأشخاص ومنها هذه المذكرة ، ولولا ذلك لسجنت كما سجن غيرى من زملائى .

وكنت شديد الصلة بسكرتير سعد باشا زغلول (كامل بك سليم) ، فلما أطلق سراح سعد وذهب (كامل بك) مع الوفد إلى باريس كان عليّ أن أصف الحالة فى مصر من حين لآخر ، وأرسل بذلك تقريرات إلى سكرتير سعد ليطلعه عليها ، وكانت هذه سبباً فى معرفة سعد باشا بى ، فكثر اتصالى به ، بل كان يرسل إلىّ الشِّيفرة الجديدة إذا غيرت لأوصلها إلى بعض الأعضاء فى مصر ، إذ كنت شيخاً مدرساً فى مدرسة القضاء لا يظن أحد أن أمراً خطيراً كهذا يأتى إلىّ .

ولما انقسم الوفد واتهم عدلى باشا وصحبه ببعض الاتهامات كنت فى صف سعد باشا ومن مؤيديه والداعين له ، ومع ذلك لم يضع استقلالى فى التفكير ، فأذكر مرة أن كان سعد باشا فى حجرته فى منزله ، وتناول عدلى باشا بالتجريح قبل أن يهاجمه علناً ، فسألته الأدلة على هذا التجريح ، فأتى بأدلة لم تقنعنى ، فرددت عليه فغضب منى وقال لى : « إنك اليوم سيئ المنطق » .

على كل حال انغمست فى السياسة واشتركت فى المظاهرات وخاصة فى المظاهرات التى ترمى إلى التقريب بين الأقباط والمسلمين ، فكنت أتلمس المظاهرة ، فأركب عربة وأنا

بعمامتى أصطحب فيها قسيساً بملابسه الكهنوتية ونحمل علماً فيه الصليب والهلال ونحو ذلك من أعمال .

واشتدت الحركة الوطنية فى مدرسة القضاء وأفلت زمامها من يد عاطف بك بعد أن كان لا يسمح بمظاهرة ما ولا إضراب ، إلى أن جاء يومٌ انعقد فيه مجلس الإدارة فى المدرسة ، وكانت الوزارة وزارة نسيم باشا الأولى وهى ليست على وفاق مع سعد ، وكان وزير المعارف محمد توفيق رفعت باشا عضواً فيه ، فاجتمع بعض الطلبة فى جزء من فناء المدرسة تحت شباك الحجرة التى ينعقد فيها المجلس وهتفوا بحياة سعد وسقوط وزارة نسيم ، فاتهم رفعت باشا عاطف بك بأنه دبّر هذه المؤامرة مع أنه برىء من ذلك فيما أعتقد ، ولم يأت المساء حتى أعلن قرار مجلس الوزراء بإحالة عاطف بك على المعاش .

أثر هذا الحادث فى نفسى أثراً كبيراً وحزنت له حزناً عميقاً ، فقد لازمت عاطف بك نحو خمسة عشر عاما فى مدرسة القضاء ، تلميذاً ومدرساً ، وأنا أستفيد من روحه ومن خلقه ، فلما خرج منها أحسست أن بناء المدرسة قد هدم على رأسى .

وعين للمدرسة ناظر جديد لا أعرفه ولا يعرفنى ووجدت لمدرسين فى المدرسة يقابلونه مقابلة حسنة ويسيرون معه كما كانوا

يسيرون مع عاطف بك فإن حزنوا لخروج عاطف فحزن فى نفوسهم من غير أن يكون له مظهر خارجي ، أما أنا فلسذاجتى لم أستطع أن أكتم عواطفى ، فلم أستقبله عند حضوره ولم أسلم عليه إلا إذا قابلته عرضاً ، وكانت تأتيه الأخبار أنى أذهب كل يوم عصراً إلى عاطف بك فى منزله ، فكرهنى أشد كره ، وأعلن ذلك فى جمع من الأساتذة ، وقال إنه يحب أن يتعاون مع كل المدرسين إلا إياى ، وساءت حالتى فى المدرسة . وحدث أن قرّر مجلس الإدارة يوما تعيين متخرج من مدرسة القضاء مدرساً بالمدرسة بشرط ألا يدرس الفقه ، فرأيت القرار نابياً ، وأنه يمس مدرسة القضاء فى صميمها ، فتحدثت بذلك مع المدرسين والطلبة وترتب على ذلك أن هاج الطلبة لما أن سمعوا كلامى ، و بلغ ذلك الناظر الجديد فركب عربة وذهب إلى رئيس الوزراء عدلى باشا يكن وأبان أنه لا يستطيع العمل معى ، فأصدر أمره بنقلى إلى القضاء . فعينت قاضياً فى محكمة قويسنا الشرعية ، وكان هـذا آخر العهد بتدريسى بالمدرسة .

وانتهت بذلك مرحلة طويلة ، هى زهرة العمر تقريباً : خمسة عشر عاما من سنى الشباب بين طالب ومدرّس ، نلت فيها أكثر ثقافتى ، وجربت فيها أكثر تجاربى فى الحياة ، وتعلمت ما استطعت

من العلم ومن الناس ، ولقيت فيها أكبر الشخصيات التى أثرت فى نفسى ، وطبعت فيها بطابع لازمنى طول حياتى — دخلتها مغمض العينين ليس عندى إلا قليل من التجارب ، وخرجت منها شيئاً آخر ، لذلك بكيت عليها كما أبكى على فقد أب أو أم أو أخ شقيق ؛ ومما آلمنى أننى تركت التدريس وهو ما أحبه إلى القضاء وهو ما لا أحبه ، وظللت أعزى نفسى بالاتصال بعاطف بك و بعض الأساتذة الذين أحبهم اتصال صداقة ، كما ظللت أساهم فى السياسة وأشارك بعض من صاروا من زعماء السياسيين ، ولكن لم أندفع اندفاعهم ، ولم أظهر فى السياسة ظهورهم ، لأسباب أهمها أنى — على ما يظهر — لم أتشجع شجاعتهم ، فكنت أخاف السجن وأخاف العقوبة ، ولعل من أهم أسباب خوفى إشفاقى على والدىّ وقد أصبحت ابنهما الوحيد ، إذا سمعا بحبسى أو عقابى هدّ ذلك من كيانهما الذى أشرف على السقوط . وقد علمنى أبى الإفراط فى التفكير فى العواقب ، ومن فكر فى العواقب لم يتشجع . والسبب الثانى أن مزاجى مزاج علمى لا سياسى ، ولهذا كنت أختلف عن زملائى السياسيين بأنهم كانوا يؤمنون بسعد باشا كل الإيمان ، و يعتقدون صحة كل ما ذهب إليه وارتآه ، و يؤولون ما يصدر عنه من خطأ و يلتمسون الحجج لتبر يره ،ولم أكن على

هذا المذهب ، بل كنت أؤيد سعداً وأنقده ، وأؤيد عدلى وأنقده ؛ وليس هذا هو المزاج السياسى الذى يؤمن بكل ما يصدر عن الحزب و يتحمس له ، و إنما هو المزاج العلمى الذى يزن الشىء مجرداً ثم يحكم له أو عليه فى أناة .

لهذا لم أظهر فى السياسة ظهور غيرى ، ولم أكتو بنيرانها ، وأنعم بجنانها كما فعل غيرى .

ظللت فى القضاء أربع سنين ، سنة فى قويسنا ، وسنة فى طوخ ، وسنتين فى محكمة الأزبكية ، ومع ذلك فلم أستمرئ القضاء ولم أسعد به : كل ما أراه أُسَرٌ قد خربت ، أما الأسرة السعيدة فلا أراها . زوجة تطلب نفقة من زوجها ، وزوج يطلب الطاعة من زوجته ، ونحو ثمانين فى المائة من القضايا من هذا القبيل ، فيحكم بالنفقة على الزوج ، فإن لم يدفع فيحكم بالحبس ، ويحكم بالطاعة على الزوجة ، وظللت أحكم بالطاعة وأنا لا أستسيغها ولا أتصورها ، كيف تؤخذ المرأة من بيتها بالبوليس وتوضع فى بيت الزوج بالبوليس كذلك ؟ وكيف تكون هذه حياة زوجية ؟ إنى أفهم قوة البوليس فى تنفيذ الأمور المادية ، كردّ قطعة أرض إلى صاحبها ، ووضع محكوم عليه فى السجن ، وتنفيذ حكم بالإعدام ونحو ذلك من الأمور المالية والجنائية . أما تنفيذ المعيشة الزوجية

بالبوليس فلم أفهمه مطلقاً إلا إذا فهمت حباً بإكراه ، أو مودة بالسيف . ولهذا كنت أصدر هذه الأحكام بالتقاليد لا بالضمير ، وبما فى الكتب والقوانين واللوائح ، لا بالقلب ، وكنت أشعر شعور من يمضغ الحصى أو يتجرع الدواء المر . وباقى القضايا على هذا المنوال أيضاً : امرأة يدعيها زوجان ، زوج بورقة عرفية ، وزوج بورقة رسمية ؛ ودعوى زوجة طلاقاً ينكره الزوج ، ونحو ذلك من أمور لا تختلف عن الأكثرية كثيراً . فإن استفدت شيئاً من عملى فى هذا المنصب فدراسة اجتماعية عملية للأسر المصرية . وقد ظهرت على عهدى هذا ظاهرة جديدة لم تكن معروفة كثيراً قبل هذا العهد ، وهى تقاضى الأسر المتوسطة والأسر العالية أمام المحاكم . وقد كان هذا فيما مضى يعد عاراً كبيراً ، ولا يلجأ إلى المحاكم إلا الأسر الفقيرة وأمثالها .

ومما أفادنى أنى كثيراً ما كنت أنحى المحامين عن الكلام وتزويقهم للأمور وادعاء بعضهم ما ليس بصحيح ، وأطلب حضور المتخاصمين شخصياً فى جلسة سرية ، وأستمع إلى كل منهما فى تؤدة وتقص لمعرفة الأسباب الأساسية التى أدت إلى هذا النزاع مما لا يذكره المحامون عادة . فكنت أعرف سر الخصومة ، وذلك شىء ليس فى الأوراق ، ثم أعالج هذا السر بما أراه ناجحاً ، وأكثر

ما يكون بالصلح بين المتخاصمين ، إما بالفرقة إذا لم يكن أمل في نجاح الأسرة ، و إما بالنصح بما يحسم الخلاف ، كأن يسكن الزوجان بعيدين عن أهل الزوج أو أهل الزوجة أو نحو ذلك .

ثم استفدت المران على الحكم على الأشياء . فالقضاء لا يكون إلا بعد فهم الدعوى ، ولا يكون الفهم حتى يسمع كلام الطرفين ، ولا يكون الحكم حتى تدرس القضية من جميع نواحيها ، ولا يكون حتى يتكون الرأى بناءً على أسباب معقولة ، وكل هذه دروس منطقية عملية تطبع الشخص بطابع خاص لا يجده فى التدريس ولا فى غيره من الوظائف . فأربع سنين يشغل فيها الذهن ليل نهار بتفكير فى قضايا وتحليل لها وتأمل فى أحكام هذه القضايا ووضع أسباب لما وصل إليه من حكم لا بد أن تترك فى النفس أثراً عميقاً .

ولقد هممت فى بعض أيامى فى القضاء أن أدرس الأسرة دراسة علمية ، فأعددت كتباً كثيرة فيها باللغة الإنجليزية ، وأردت تطبيق ذلك على ما أراه من الأسر المصرية ، واستخراج الإحصاءات الرسمية فى عدد ما يحدث فى مصر من زواج ومن طلاق ونسبة الطلاق إلى الزواج ونسبة من يتزوج أكثر من واحدة إلى غير ذلك من إحصاءات ، لأستنتج منها النتائج الاجتماعية

التى تدل عليها ، ولكنى مع الأسف لم أتم هذا البحث .

وفى سنى القضاء نسيت ما كانت توصينى به السيدة الإنجليزية ، من قولها تذكر أنك شاب ، بل كنت أتذكر دائماً أننى شيخ ، فالقضاء الشرعى يتطلب وقاراً وجلالاً ومشياً بطيئاً وحركة جامدة و إلا كان أهوج أرعن ، والقاضى الشرعى — بجانب ذلك — ينظر إليه على أنه رئيس دينى ، فيجب أن يتحرج من الجلوس فى قهوة أو أن يكون فى نادٍ تشرب فيه خمر أو يلعب فيه ميسر ؛ و إذا جلس فى قوم فلا بد أن يتحدث حديثاً دينياً أو أخلاقياً وعلى الأقل أن يكون جاداً لا يمزح ووقوراً لا يضحك . وحدث مرة وأنا قاض فى قويسنا حادث مربك ، فقد دعانى إلى العشاء طبيب المركز مع كبار الموظفين و بعض كبار الأعيان ، وأنا أعلم أن بعض المدعوين يشرب خمرا ، فتأخرت فى الذهاب إلى بيت الطبيب حتى يأخذوا حريتهم قبل حضورى ، فلما ذهبت وجدت الباب مفتوحاً والمدعوين فى حجرة أمام الباب فانتظرت حتى يأتى الخادم فلم يحضر ، فدخلت عليهم فى الحجرة و إذا هى معمعة و إذا هى حانة ، و إذا الأكؤس تملأ ، فبهت الحاضرون و بهت وخجلوا وخجلت ، و إذا بعضهم يأخذ الزجاجة والكأس و يخفيهما تحت المائدة ، وزاد اضطرابى واضطرابهم وارتبا كى وارتبا كهم ،

فقصدت إلى الطبيب صاحب الدعوة وأفهمته أنى حضرت لأعتذر .
فقد حدث ما يضطرنى أن أكون فى بيتى الآن ، ففهم ما أريد وألحّ علىّ أن أنتظر فى حجرة أخرى لحظات قليلة حتى تنظف المائدة ، فأصررت وخرجت وكان صواباً مافعلت ، فلو جلست معهم لخرجت الشائعات بأنى كنت أشرب مع الشاربين ، وألهو مع اللاهين ، ولسقط مركزى الدينى ومركزى الخلقى ومركزى القضائى معاً .

(٢٣)

فى فترة القضاء هذه مات أبى رحمه الله وأنا قاض فى قويسنا عن نحو ثمانين عاما إثر عملية جراحية ، فقد أصيب « بفتق » وهو فى نحو الأربعين من عمره فلم يفكر فى عملية يعملها ، وظل يلبس الحزام الجلد يضغط به على موضع « الفتق » يخلعه مساء و يلبسه صباحا ، ويعانى فى ذلك مشقة كبيرة يتحملها فى صبر ، وكثيرا ما كانت تخرج من الفتق بعض الأمعاء و يحاول إدخالها ولبس الحزام فيمتنع عليه ذلك فأُسرعُ إلى طبيب يعالجه ، وكان هذا سببا كبيرا فى ضيق خلقه والتنغيص عليه وعلينا — يضاف إلى ذلك ما أصيب به من إمساك مزمن ، فكان إذا طال به الزمن ساء مزاجه وتلمس أى شىء يغضب عليه — ولعل بيتنا مدين

لهذين السببين فى التنغيص عليه من حين إلى حين ، وما حُرمه من ضحك ومرح وسرور ، وما كان من معيشة انفصالية يميل فيها أبى إلى العزلة والانفراد بنفسه وآلامه — وطالت به هذه الأمراض من غير أن يعرض نفسه على طبيب إخصائى ، فلما كبرت عرضته على أكبر طبيب فقرر أنه كان يجب أن يعمل العملية وهو فى قوته وشبابه ، أما وقد تقدمت به السن إلى هذا الحد فلا يحسن عملها ؛ وأخيراً اشتد به الألم وضجر من حالته ، فانتهز غيابى فى قويسنا وذهب إلى طبيب جراح فى المرتبة الثانية أو الثالثة ، وكان تلميذا له قديما فحسّن له عمل العملية ، وتجرأ فعملها من غير أن أعلم أو يعلم أحد فى البيت ، ولم أدر إلا وتلغراف يأتينى بقويسنا يحمل الخبر ، ففزعت لذلك وحضرت إلى مصر وذهبت إلى العيادة وطمأننى الطبيب أن العملية ناجحة ، ولكن لم يمض يوم حتى أصيب بالتهاب رئوى قضى عليه فى ساعات ومات وأنا بجانبه يوصينى بأمى وأختىّ ويدعو لى « أن يكون الله فى عونى » .

وبذلك انتهت حياة حافلة شاقة ملئت بالكد الدائب والسعى المتواصل فى طلب العلم وطلب الرزق ، فقلّ أن يفارقه كتاب يقرؤه أو يكتبه ، ورزقه متصل بعلمه من درس يدرّسه أو كتاب يصححه أو نحو ذلك ، لا يمنعه عن ذلك مرضه

أو كارثة نزلت به ؛ متدين أشد التديّن ، يكثر من الصلاة ومن قراءة القرآن والحديث ، ويزكى ويصرف زكاته على الفقراء من أقاربه ، ويصوم ويحج ويتهجد بالليل ويبتهل إلى الله . وإذا صدرت منه سيئة أو ما يظنها سيئة أكثر من الندم والاستغفار والتوبة ؛ زاهد فى الدنيا ، زاهد عن السعى فى طلب الرزق إلا بمقدار ما تحتاج إليه أسرته ، فإن زاد شيئا فبقدر ما يدخره ليوم الحاجة — يكثر من ذكر الموت ويتبع ذلك بأحاديث يحفظها فى تفاهة الدنيا وحقارة شأنها وهوانها على الله ، ويبنى مقبرة له يذهب إليها ويتلو عندها القرآن يرجو بذلك أن تكون منزلا مباركا له عند وفاته . يهزأ بالدنيا وزخرفها ومباهجها ، رأيته مرة يلبس كسوة تشريف ليذهب إلى حفلة المحمل ثم يقف فى الغرفة قليلا متردداً ثم يخلعها ويرميها بيده إلى أحد أركان الغرفة ويقول : إنما الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة . ويجلس بعد ذلك يتلو القرآن .

وهو فى حيه محترم ، إذ هو أكبر رجل دينى فى الحى . يقوم له الناس إجلالا إذا مر عليهم ، ويفزع إليه الأغنياء والفقراء فى أمورهم الدينية وفى الفتيا فى مسائل الزواج والطلاق والميراث ، ويسأله أعيان الحى أن يقرأ لهم درسا دينيا فى بيت من بيوت أحدهم ، ويهدون له الهدايا الكثيرة فى الأعياد والمواسم .

وهو بسيط فى أكله وشربه ولبسه ونومه ، حتى ليأكل ماقدم إليه من غير ضجر ، وينام على حشيّة من غير سرير ، ويلبس فى دقيقة ملبسه البسيط فى غير أناقة .

يشتد على أولاده فلا يعطيهم من المال إلا بقدر الحاجة حتى لايفسدوا ، ويحاسبهم على تعلمهم محاسبة عسيرة ، فهو يمتحنهم دائماً فى حفظ القرآن وحفظ المتون وفى فهم دروسهم ، فإذا أخطئوا حَسْبَلَ وحوقل وقد يغضب ويضرب ، وكل صحبتنا له صحبة درس جديد أو امتحان فى درس قديم ، ولا أذكر أنه مزح معنا وقلّ أن ضحك فى وجوهنا . ولذلك كان اطمئناننا ومرحنا القليل ساعة يغيب عن البيت ، وخوفنا ورهبتنا وحبس أنفاسنا ساعة يحضر ؛ ومن مزاياه أنه كان يرى تعليم البنت كما يعلّم الابن ، فأرسل أختى الكبرى إلى المدرسة السيوفية وكانت المدرسة الوحيدة المصرية لتعليم البنات ، فى حين أن أكثر الناس كان يرى تعليم البنت فى المدارس جريمة لا تغتفر .

دنياه التى يعرفها أزهره ومسجده وكتبه ومن يتصل به من أهل حيه . أما السياسة والاحتلال وأما شئون الاقتصاد وأما الحياة الاجتماعية والمدنية مما يجرى وراء حيه فلا يعلم عنها شيئاً ، فهو لا يقرأ الجرائد إلا إذا وقعت فى يده عرضا ، ولا يجتمع بالناس

يتكلمون فى الشئون العامة إلا قليلا .

يحب الريف ويحن إليه ، وفى بعض الأيام كان عندنا حمار يركبه ويركبنى معه فيخرج به إلى الجزيرة أو الجيزة ، ونقضى النهار تحت شجرة أو بجوار ساقية أو على شاطئ النيل ومعه كتاب يقرؤه ، ثم يعود وقد غذى عواطفه ، وهذه هى كل رياضته ، فإذا لم يكن حمار فمشى على الأقدام إلى كبرى قصر النيل حيث يختار مكانا يجلس إليه .

وله صديقان من الفلاحين فى جزيرة أمام مصر القديمة يزورهما — وأنا معه — من حين إلى حين ، وخاصة فى موسم الشمام والبطيخ ، فنقضى هناك اليومين والثلاثة بين المزارع وعلى شاطئ النيل ، ولا ندخل البيوت — حتى الليل نقضيه تحت سقف السماء — كأنه لما حرم مزارعه فى بلده كان يعوّضها بمثل هذه الجولات .

ذكى يجيد فهم الكتب الأزهرية ، وله شوق إلى قراءة الكتب الأدبية والتاريخية من غير تعمق فيها أو قراءة منظمة لها ؛ يقرض الشعر أحيانا فى مناسبات ولا يقرضه حتى يتخير قصيدة من ديوان شعر يحاكيها فى الوزن والقافية ويتخير من معانيها فتأتى أشعاره متكلفة لا روح فيها . ولا أدرى لماذا لم يحاول التأليف

فى أى فرع من فروع العلم مع توفر الأسباب لديه .

ومع شدته على أولاده كان رحيما بهم ، وتظهر رحمته فى قلقه على ولده إذا مرض وحرقة قلبه إذا مات ، وحنينه إليه إذا غاب ونحو ذلك .

وكان يؤثرنى على إخوتى فى العناية بتعليمى لما كان يظهر له من استجابتى وطاعتى ؛ فإليه يرجع أكبر الفضل فى أساس تعلمى من يوم أن ذهبت إلى الكتّاب إلى يوم أن دخلت مدرسة القضاء ، ولولاه لم أنجح فى دراستى الأزهرية لصعوبتها وكثرة العوائق فيها ، فقد سهّلها علىّ بأسلوبه وقرب عبارته ووضوح معانيه ، ولولا نجاحى على يده فى العلوم الأزهرية ما نجحت فى الدخول فى مدرسة القضاء ؛ بل منه تعلمت الصبر على الدرس واحتمال العناء فى التحصيل ، ومنه كسبت وضوح العبارة و بساطة الأسلوب ، ومن مكتبته المتنوعة الغنية بكتب الأدب والتاريخ نبت فى نفسى حب الأدب والتاريخ ؛ وعلى الجملة فقد ورثت منه — إلى حد ما — كثيراً مما لى من مزايا وعيوب .

لهذا كله بعد أن كبرت ودخلت مدرسة القضاء وتحررت من رعايته لى وقسوته علىّ بدأت أشعر بفضله ، و ينقلب خوفى منه إلى حب و إجلال له ، و بعد أن أصيب بفقد ولديه زاد عطفى عليه

وبذل كل جهد فى عمل مايرضيه . ومن جانبه بادلنى عطفاً بعطف وحنانا بحنان ، وترك لى التصرف فى ماله وشئونه ، وتفرغ لحزنه ومرضه ودينه .

فلما مات أحسست لذعة أليمة وركنا تهدم ولم يعوَّض ، وفراغا لم يملأ — رحمه الله .

و بعد قليل من وفاة أبى يموت أبى الروحى الثانى (عاطف بركات) فأحزن عليه حزنا قريباً من حزنى على أبى ، وأقف على قبره عند دفنه وأرثيه بكلمة أودِعُها قلبى ، وأنظر إليه فى كفنه وهم ينزلونه إلى قبره فيصفر وجهى ويسيل دمعى وأجز بأسنانى على سبابتى فأكاد أقطعها ، وينظر أقرباؤه إلىّ فيجدوننى أحزن أكثر مما يحزنون ، وألتاع أشد مما يلتاعون فيرثون لحالى ويشفقون مما بى .

لقد تسلمنى من أبى بعد أن ربانى التربية الأولى فربانى التربية الثانية ، وقد عاشرته نحو ثمانية عشر عاما من سنة ١٩٠٧ إلى وفاته سنة ١٩٢٥ منها أربعة وأنا طالب وهو ناظر وأستاذ ، وعشرة وأنا مدرس وهو — أيضا — ناظر وأستاذ ، وأربعة وهو يشتغل بالأمور السياسية وأنا أتلقى عنه دروسها — فبعد خروجه من المدرسة على النحو الذى أشرت إليه قبل ، تفرغ للسياسة

وانضم إلى الوفد ونفى إلى « سيشل » ولما عاد وتولى سعد باشا الوزارة عين « عاطف » وكيلا لوزارة المعارف ، وتولى أمر الوزارة كلها ، وقد عرض علىّ إذ ذاك أن أكون مفتشا فى الوزارة معه فاعتذرت ، ثم عرض علىّ أن أكون أستاذاً للشريعة فى مدرسة الحقوق فقبلت ، واتصل بناظر الحقوق واتفق معه على ذلك واختيرت دروسى ولكنه مات قبل أن يتم ذلك ، فقلب لى ظهر المجنّ وقطعت إجراءات التعيين وعين غيرى ، وانتهى كل شىء كأن لم يكن شىء .

ولم يطل أمده فى وزارة المعارف ، فقد دب داء السرطان إلى رأسه ، وعانى من الآلام المضنية الشىء الكثير . لقد كان يخصنى برعايته منذ كنت طالبا ، فلما كنت مدرسا أتبعنى به فى دروس الأخلاق ، فكنت ألازمه فى دروسه وقد أقضى النهار معه فى بيته بمصر الجديدة ، ولما نفى فى عزبته بجَمْجَرة كنت أقضى معه فيها الأيام . وكان يراسلنى من سيشل ويبعث إلىّ بصورته ، ولما مرض لم يكن يسمح بزيارته إلا لأقاربه واثنين من أصدقائه كنت أحدهما ، وهذا ما مكننى من الاستفادة منه .

كانت أكبر ميزة له فى عقله قوة التحليل وسلامة التفكير ، وحرية الرأى وقوة الحجة ، والإلحاح فى الإقناع وسعة الصدر للرأى

المخالف — وكانت حريته فى تفكيره أقوى من حريته فى عمله ، فهو فى إصلاحه متحفظ ، يقدر كل الظروف المحيطة ويعمل فى حذر ؛ وأكبر ميزة له فى خلقه أداء الواجب لأنه واجب من غير أى اعتبار آخر ، وعدله التام ولو لقى فى ذلك العناء ، فى بلد تسره المجاملة ولو بالظلم ، ويفرح بالوعد ولو بالكذب ؛ وحبه للنظام الدقيق ، فكان يشيد بذكر « كانت » إذ كان يرى أداء الواجب لذاته ، وإذ كان الناس يضبطون ساعاتهم على موعد خروجه ؛ وصدقه فى القول حتى لم يأخذ عليه طالب ولا أستاذ كذبة ، وحدثنى أنه وهو طالب فى انجلترا دخن يوما سيجارة فى حجرة لا يسمح فيها بالتدخين ، فلما أتم تدخينها دخل مراقب المدرسة الحجرة عليه وعلى صحبه فقال : إنى أشم رائحة دخان فمن الذى دخن « فسكت عاطف » ثم كرر المراقب القول وكرر « عاطف » السكوت ، ثم خرج المراقب فنظر الموجودون إلى « عاطف » نظرة ازدراء ، فعاهد الله من يومه ألا يكذب ؛ ورجولة تامة فهو يكره سفاسف الأمور وتوافه القول ، إذا تدنى محدثه رفعه هو إلى مستواه ، فكان بذلك مهيبا جليلا .

إن عيب عليه شىء فهو قلة مجاملته حتى حيث لا تضر المجاملة بالخلق ، وصراحته التى قد تجرح ، فى موقف لا يدعو إلى الصراحة

فيه دفاع عن حق ، ثم نظامه العسكرى فى غير ترفيه . رحمه الله فما أكثر ما نفع وأصلح .

(٢٤)

ودق جرس التليفون يوماً بمنزلى فى مصر الجديدة وأنا قاض بمحكمة الأزبكية سنة ١٩٢٦ ، وإذا المتكلم صديقى الدكتور طه حسين يطلب إلى مقابلته ، وذهبت لمقابلته فإذا هو يعرض علىّ أن أكون مدرسا بكلية الآداب ، فترددت قليلا ثم قبلت ، لنفورى من القضاء وحبى للتدريس ، وذهبت إلى الكلية حيث قصر الزعفران الآن ، فوجدت شيئا جديداً علىّ ، لا هو كالأزهر ولا كمدرسة القضاء . أساتذة كأنهم عصبة أمم ؛ هذا انجليزى وهذا فرنسى وهذا بلجيكى وهذا ألمانى وقليل من الأساتذة المصريين ، وليس فيهم معمم إلا أنا ، وعميد الكلية بلجيكى ، والطلبة أحرار ، يحضرون الكلية أو لا يحضرون ، ويحضرون الدرس أو لا يحضرون ، وأقسام الكلية متشعبة قسم للفلسفة يتزعمه الفرنسيون ، وقسم للانجليزية يتزعمه الإنجليز ، وقسم للغات القديمة ، وقسم للجغرافيا وآخر للتاريخ ... والطلبة موزعون على الأقسام ، ومن الطلبة عدد كبير يقضى سنة فى كلية الآداب إعداداً لكلية الحقوق ، وقد قضيت

زمناً حتى أفهم كل ذلك ، وأحسست أن الجو مبعثر ، ليس هناك ارتباط وثيق بين الطلبة بعضهم و بعض ولا الأساتذة بعضهم وبعض، لا كالذى كنت أرى فى مدرسة القضاء ، وأن الدراسة كالحرب المائعة ؛ فتبعثر الأقسام فى الدراسة وتبعثر الأساتذة فى الجنسية جعل نسيج الكلية مهلهلا ، وأقرب معنى حدث فى نفسى أننى فى أزهر بقبعة ، ولذلك لم آلف هذه الأوضاع إلا بعد عهد طويل .

وصدمنى أول أسبوع أنى أحسست حركة تذمر بين العميد البلجيكى والأساتذة لأسباب لا أدريها ، وجاءتنى بعد ذلك عريضة موقع عليها من بعض المدرسين والأساتذة يعلنون فيها ثقتهم بالعميد لميزاته و كفايته ، فلم أشأ أن أوقع عليها لأن الثقة إنما تبنى على المعرفة وأنا لم أعرفه — و إدارة الكلية فى يد مجلس لها ، ولست عضواً بالمجلس إذ لا يكون عضواً إلا أستاذ أومساعد أستاذ ، أما مدرس مثلى فلا . فكان امتناعى عن التوقيع سببا فى امتعاض العميد منى وتقديره لى معا ، وأخذت أهيئ نفسى للبيئة الجديدة على مضض حتى فهمت الأوضاع واستقامت الأمور ، وكان الطلبة كلهم ذكوراً ليس فيهم فتاة ، وشاهدت مرة ثلاث بنات فى قسم الفرنسية علمت أنهن نصف مصريات ، أبوهن طبيب مصرى كبير وأمهن ألمانية ، فساءلت نفسى : هل أعيش حتى أرى طالبات

مصريات صميات فى الـكلية ! ولـكن الزمن كان أسرع مما توقعت ، فامتلأت الـكلية بالبنات بعد قليل .

هأنذا أطلّق كتب الفقه ، وأعود إلى كتب اللغة والأدب والنحو ؛ ودرّست فى أول سنة درسين : درساً أقرأ فيه الـكامل للمبرد ودرساً أقرأ فيه البلاغة ، ومن قديم لم تعجبنى البلاغة العربية ، فبحثت فى المـكتبة الإنجليزية عن كتب فى البلاغة فأنا أقرؤها وأقارن بينها و بين ما كتب فى البلاغة العربية وأختار خيرها وأوفق بين مصطلحاتهما ، وأ كثرما كنت أ كره الدراسة فى الفصول الـكبيرة العدد لطلبة كلية الحقوق فأشعر إذ ذاك أنى أدرس فى الهواء لا رابطة بينى و بين الطلبة ، ولا أستطيع الإشراف عليهم إشرافاً جديا ، ولا أتبادل معهم عواطفهم ولا أحسن توجيههم لـكثرة عددهم ، ولذلك تخلصت من هذا الدرس أسرع ما يمكن وجهدت أن أدرّس فى فصول محصورة لعدد محصور .

وقبل بدء الدراسة فى السنة التالية دارت مناقشة طويلة بينى و بين صديق لى أستاذ فى كلية الحقوق [1] . قال يوماً : لماذا تصر على لبس العمامة ؟ والعمامة رمز لرجل الدين ولست الآن رجل دين . إنما أنت تعلّم اللغة العربية والأدب العربى كما يعلم الفرنسى اللغة

(١) هو الدكتور السنهورى .

الفرنسية والأدب الفرنسى ، وهذه أمور مدنية لا دينية ، ثم إن لبسك العمامة فى وسط كله برانيط وطرابيش يجعلك غريباً فى بيئتك الخ ما قال . وقد فكرت فى الأمر طويلاً فهذا الذى قاله حق ، ولكن إلف العمامة و إلف الناس لى معمما أخجلنى من التغيير ، فما زال يلح علىّ وما زلت أطيل التفكير حتى ملت إلى رأيه . وشجعنى على هذا ما كنت ألاقيه فى لبسى العمامة من عناء ، فعامة الناس فى مصر — وخاصة فى المدن — يجلون العمامة ظاهراً ولا يجلونها باطنا ، ويوقرون الطربوش غالباً ويستخفون بالعمامة غالباً . ويتغلغل فى نفوسهم مبدأ مقرر ، وهو أن صاحب الطربوش يُحترم إلا إذا ظهر عكس ذلك ، وصاحب العمامة يحتقر إلا إذا ظهر عكس ذلك ، وكم حدث لى من فصول كرهت من أجلها العمامة ؛ ذهبت إلى فندق مرة فقال لى صاحبه ليس عندى مكان خال ، وإذا بمطربش يأتى بعدى فيُخلَق له المكان . وأذهب مرة إلى مكتب البريد فأقف أنا ومطربش أمام الشباك وقد أتى المطربش بعدى ، فيقدمه رجل البريد علىّ و يجيب طلبه فأثور عليه وأطالبه بالعمل بالترتيب . وأتهيأ مرة لركوب الدرجة الأولى فى الترام فيقول لى الكمسارى : تعال هنا — مشيراً إلى الدرجة الثانية — فتلك الدرجة الأولى ، وأذهب مرة إلى كازينو فى ضاحية

من ضواحى الاسكندرية ومعى صديق مطربش فيسمح له بالدخول ويمنعنى فأعود معه مكتئباً خجولاً ، وهكذا وهكذا . كل هذا رجح عندى رأى صديقى فذهبت إلى الخياط وفصلت بذلتين وشريت طربوشاً . وعدت إلى هـذا النوع من اللباس بعد سبع وعشرين سنة منذ كنت تلميذاً فى مدرسة أم عباس . وقد كنت نسيت رباط الرقبة كيف يكون ، فكنت ألجأ إلى من يربطه لى إلى أن تعلمته . وانتهزت فرصة افتتاح الدراسة فى العام الجديد فذهبت مطربشاً ، وكنت أتعثر فى مشيتى فى الشارع وفى الكلية خجلا من الناس ، ومنهم من يستحسن ومنهم من يستهجن .

وقالت لى سيدة إنجليزية زوج صديق لى : إنى كنت أفضل لبسك العمامة . فقلت لها : لك الحق وإنما تفضلين العمامة على النمط الذى تفضلين به الطرف القديمة فى خان الخيلى على مخازن البيع فى شارع فؤاد . وعلى كل حال كنت بذلك أكثر اندماجاً فى الوسط الجامعى وأشد انسجاماً .

وتعلمت من هـذا الوسط أن ميزة الجامعة عن المدرسة هى البحث ، فالمدرسة تعلّم ما فى الكتب والجامعة تقرأ الكتب لتستخرج منها جديداً ، والمدرسة تعلّم آخر ما وصل إليه العلم والجامعة

تحاول أن تكتشف المجهول من العلم ، فهى تنقد ما وصل إليه العلم وتعدله وتحل جديداً محل قديم ، وتهدم رأياً وتبنى مكانه رأياً ، وهكذا ؛ هـذه وظيفتها الأولى والأخيرة ، فإن لم تقم بها كانت مدرسة لا جامعة . هذا مافهمته فى السنة الأولى من تدريسى فى الجامعة — فهمته مما سمعته عن أساتذة من الأجانب قاموا ببحوث مختلفة جديدة ، كل فى فرعه ومن مخالطتى فى الجامعة لبعض المستشرقين أتعرف منهم ما يعملون ، ومن قليل من الأساتذة المصريين يتبعون خطتهم ويسيرون على منهجهم ؛ لذلك بدأت فى هـذه السنة أجرب حظى فى البحث ، فاخترت درساً من الدروس أبحث فيه عن المعاجم اللغوية ، كيف بدأت فى اللغة العربية ، وكيف تكونت لأول مرة ، وطريقتها فى جمع الكلمات ، وتطورها فى العصور المختلفة وتغير أساليبها على تعاقب العصور ، والأخطاء التى وقعت فيها وحاجتنا إلى معجم جديد وما ينبغى أن يكون عليه هذا المعجم ، وأخذت فى ذلك سنة كاملة كانت بدء تجربتى فى البحث ، أعقبها بحث آخر قصير فى عكاظ والمربد وتصويرهما حسبما جاء فى الكتب وأثرهما فى اللغة والأدب .

وكان ذلك تمهيداً لمشروع واسع فى البحث وضعناه نحن الثلاثة الدكتور طه حسين والأستاذ عبد الحميد العبادى وأنا ،

خلاصته أن ندرس الحياة الإسلامية من نواحيها الثلاث فى العصور المتعاقبة من أول ظهور الإسلام ، فيختص الدكتور طه بالحياة الأدبية والأستاذ العبادى بالحياة التاريخية وأختص أنا بالحياة العقلية . فأخذت أحضر الجزء الأول الذى سمى بعد « فجر الإسلام » ، وصرفت فيه مايقرب من سنتين فرسمت منهجه ورتبت موضوعاته ، وكنت إذا وصلت إلى موضوع أجمع مظانّه فى الكتب ، وأقرأ فيها ما كتب على الموضوع وأمعن النظر ، ثم أكتبه مستدلاً بالنصوص التى عثرت عليها حتى أفرغ منه ، وأنتقل إلى الموضوع الذى بعده وهكذا . وكانت أكثر الأوقات فائدة الإجازة الطويلة التى تبلغ أكثر من خمسة أشهر ، إذ كنت أجمع الكتب التى يظن أنها تبحث فى الموضوع وأحملها على دفعتين أو ثلاث إلى مائدة وضعتها فى حديقتى خلف بيتى فى مصر الجديدة ، وأبدأ العمل فى الساعة الثامنة صباحا وأجلس على كرسى أمام الكتب أقلبها وأستخرج نصوصها وأستخلص من كل ذلك ما أكتبه إلى ما بعد الساعة الواحدة ، جلسة واحدة أنسى فيها نفسى وأنسى كل شىء حولى ، وهكذا أفعل فى أيام العمل التى لا يكون علىّ فيها دروس فى الجامعة حتى ينتهى الجزء . وقد تمّ هذا الجزء الأول من فجر الإسلام فى آخر سنة ١٩٢٨ ، وقد لقيت من حسن استقبال

الناس لهذا الجزء وتقديرهم له واهتمامهم به نقداً وتقريظاً ما شجعنى على المضىِّ فى هذه السلسلة ، وقد عاقت زميلىّ عوائق عن إخراج نصيبهما ، فاستمررت أنا فى إخراج ضحى الإسلام فى ثلاثة أجزاء وترقيت فى منهج التأليف فى ضحى الإسلام ، فقد رتبت موضوعاته التى تستغرق ثلاثة أجزاء ، وأحضرت ملفات كتبتُ على كل ملف اسم الموضوع ، ملف عليه اسم المعتزلة وآخر الخوارج ، وثالث أثر الجوارى فى الأدب ، ورابع الثقافة الهندية ... الخ . ثم حصرت أمهات الكتب التى تبحث فى هذه الموضوعات كالأغانى والحيوان للجاحظ وكتب ابن قتيبة ورسائل الجاحظ وكتب ابن المقفع ونحو ذلك أقرأها كلها فإذا وصلت إلى نصٍّ يتعلق بالمعتزلة كتبت فى ورقة صغيرة مغزى النص ، ورقم الصفحة فى الكتاب ووضعتها فى ملف الموضوع ، وهكذا حتى أفرغ من هذه الكتب كلها ، وهذا دور التحضير ، فإذا جاء دور الكتابة استخرجت ملف الموضوع وأعدت النظر فى الجذاذات ورتبتها حسب الترتيب المنطقى وفكرت فيها وبدأت أكتب ، وكلما عنت فكرة جديدة رجعت إليها فى مظانها . حتى ينتهى الموضوع ، فأنتقل إلى ما بعده وهكذا ، وعلى هذا النمط أخرجت الجزء الأول والثانى والثالث من ضحى الإسلام فى نحو ست

سنين . وهكذا تخصصت فى (الإسلاميات) .

وإلى جانب ما درسته فى هذه الموضوعات درست بعض الكتب فى النصوص الأدبية كطبقات ابن سلام ، وطبقات الشعراء لابن قتيبة .

وعلى أثر قراءتى كتابا فى اللغة الإنجليزية فى النقد الأدبى استحسنت الموضوع وفكرت فى تدريسه ، أستعين على ذلك بما وقع فى يدى من الكتب الإنجليزية وما أعرفه مما كتب فى اللغة العربية كالموازنة بين أبى تمام والبحترى ، والوساطة بين المتنبى وخصومه ونقد الشعر ونقد النثر لقدامة ، وظللت سنين أدرّس هذا الموضوع وأكتب فيه مذكرات . وكانت هذه أول دروس باللغة العربية للنقد الأدبى فى كلية الآداب .

— ٢٥ —

هيأت لى الجامعة فرصة جميلة لرحلات خارج القطر ، وقد كاد ينقضى شبابى ولم أبرح القاهرة إلا حين عينت مدرساً بطنطا والإسكندرية ، وحين عينت قاضياً فى الواحات الخارجة ، أما الرحلة خارج مصر فلم تخطر لى على بال ، وما كنت أظن أن الزمن سيسمح بها . وقد هيئت لى مرة فرصة السفر إلى باريس ،

وذلك أن أحد باشاوات القاهرة وأغنيائها أراد أن يرسل ابنه إلى باريس ليتعلم هناك ، وأراد ألا ينسى ابنه اللغة العربية ، فعرض علىَّ أن أصحب ابنه وأقيم معه وأعلمه اللغة العربية وأدرس أنا اللغة الفرنسية فالقانون ، وأعجبتنى الفكرة ولكنها زهرة محفوفة بشوك ، فمن الثقيل على نفسى جداً أن أكون موظفاً عند باشا ونفقتى عليه ، وابنه سيدى يستدعيني للدرس إذا شاء ويهجرنى إذا شاء . ومع ذلك استشرت عاطف بك فى الأمر ففضل الرفض فرفضت ، واختير غيرى لهذا العمل فدرس القانون ورجع محامياً فى المحكمة الشرعية والمختلطة ، ولو قبلت لتغير وجه حياتى .

على كل حال لم تتح لى فرصة السفر خارج مصر إلا سنة ١٩٢٨ ، وأنا مدرس بكلية الآداب ، ففى يوم استدعانى أستاذى لطفى بك السيد مدير الجامعة ، وقال : إن البرنس يوسف كمال يود البحث فى مكاتب الآستانة عن كتب جغرافيــة قديمة وخاصة كتاب بطليموس فى الجغرافيا ، وأنه طلب منى أن أختار له اثنين فوقع اختيارى عليك وعلى الأستاذ عبد الحميد العبادى — فترددت بعض الشيء وعاودتنى فكرة التوظف عند الباشا ، ولكن لطفى بك هوّن علىّ الأمر ، إذ أخبرنى أنه قال للبرنس إنه يرحب بالفكرة ولكن يرجوه ألاّ يجرح شعور الأستاذة بإعطائهم

أجراً على عملهم العلمى و إنما هى أجرة السفر وما إليها — فقبلت .

وشجعنى على القبول أنى منذ الصغر أسمع عن استانبول وعظمتها وأبهتها ، ولها صورة عظيمة فخمة فى نفسى ، فكل حين يذهب الخديو عباس إلى استانبول و يعود من استانبول ، وأعيان مصر يفخرون بسفرهم إلى استانبول ، وشوقى فى شعره يشيد بذكرها . ناهيك عن الباب العالى والقصر الشاهانى والبسفور و بحر مرمرة والسلطان عبد الحميد فى قصر يلدز ونحو ذلك — كل هذا شوقنى إلى رؤيتها .

أضف إلى ذلك ما وصل إلينا حديثا من ثورة مصطفى كمال وقلبه النظام الاجتماعى رأساً على عقب وما كان له من أثر ، فكنت أسمع ذلك وأشتاق إلى معرفة كنه هذا الانقلاب ومداه وصلاحيته .

هذا إلى ما أعتقده فى الرحلات من فوائد ، فأنا أرى أن الشيء لا تمكن معرفته معرفة حقة إلا بالمقارنة ، فالأبيض إنما يعرف بياضه بمقارنته بالأسود والأخضر والأصفر ، والأمة لا يعرف أنها متأخرة إلا بقياسها بأخرى متقدمة ، والنظام لا يعرف أنه فاسد إلا إذا عرف أو على الأقل تُخُيل بجانبه نظام صالح ، وهكذا فما دمت فى مصر ولم أر غيرها لم أستطع الحكم الصحيح عليها إلا عن طريق الكتب ، وهى أقل جدوى من المشاهدة .

وما أكثر من رأيت من الشبان يركبون البحر ويعودون إلينا ممتلئين إعجاباً بما رأوا من مدنية وحضارة وعلم ومناظر طبيعية وغير طبيعية ، ويملأون أفواههم بالكلام عما شاهدوا ، والإعجاب بما رأوا ، والاحتقار لما يرون فى مصر ، فإلى أى حد صدقت نظرتهم وإلى أى أحد صحّ حكمهم ؟ هـذا ما لا أستطيعه إلا إن رأيت ما رأوا . وكم قرأت من كتب فى الرحلات ، ولـكن الرحلة إذا تحولت إلى كتاب ذهبت حياتها وقلَّ خـيرها وأصبحت عقلاً لا قلباً ، ومعلومات لا إحساسات ، والرحلة الحقة ما جـددت النفس وأحيت القلب .

وقد مكثت فى رحلتى هـذه إلى الأستانة أربعين يوماً .
أخذنا الباخرة رشيد يوم السبت ٢ يونيه سـنة ١٩٢٨ ، وقد اعتزمت من يوم أن سافرت أن أدوّن لى مذكرات يومية ، فكنت أسجل قبل أن أنام ما فعلته كل يوم مؤرخاً بتاريخه ، ولا أطيل على القارئ بذكر هذه اليوميات إلا على سبيل المثال .

لم أر البحر قبـل إلا من شاطئ ، أما داخله وعظمته وتقلباته فلم أرها إلا اليوم — رأيت البحر عظيما جميلا أنيساً فى النهار ، ورأيته جليلا مهيباً موحشاً فى الليل ، ورأيتنى أشعر نحوه بلذة أليمة أو ألم لذيذ ، كشأنى عند رؤية أى منظر طبيعى جليل ،

كغروب شمس أو جبل ضخم أو أمام السماء فى ليلة تلمع نجومها . ولعل سبب اللذة ما أشعر به فى هذه المناظر من جمال ، ولعل سبب الألم ما أشعر به نحو نفسى أمام هذه المظاهر من ضعة .

كأن البحر استدرجنا ، فهو فى اليومين الأولين هادئ وديع ، فلما ألفناه كشر لنا عن أنيابه وهاج فى اليوم الثالث فأصابنى دوار وما يتبع الدوار ، وأطلت الرقاد فى سريرى خاضعاً مستسلماً ، وفى اليوم الثالث نزلنا أزمير وأخذنا سيارة تجولنا بها فى شوارعها مع بعض ركاب السفينة . وفى اليوم الرابع وصلنا إلى الأستانة .

تجولنا فى أنحائها ، وسكنا فى بيت من بيوتها ، وصدمت فى أول الأمر عند رؤيتها فلم أجد لها من الجلال والروعة ما سبق أن رسمه الخيال ، إنما أيقنت بجمالها وروعتها لما شاهدت ضواحيها ، وركبت البحر إلى أطرافها ، وأعجبنى فى الأتراك خلقان لطيفان : نظافتهم وهدوءهم ، فأما النظافة فقد تدخل بيت الفقير الذى يعيش أكثر أيامه على البقول الجافة فتراه قد فرش فرشاً بسيطا ولكنه نظيف ، وقد تفرش الحجرة بالحصير ، ولكن لا يسمح التركى لنفسه ولا لضيفه أن يدوس عليها بنعله ، وقد ركبنا القطارات والترام وأكلنا فى مطاعم المدينة على اختلاف أنواعها من الدرجة الأولى إلى الرابعة ، وجلسنا فى مقاهى الصناع والحمالين فما وجدنا فى كل

ذلك إلا نظافة يحمدون عليها ، وأما هدوءهم فقد أمضينا أربعين يوماً لم نجد فيها نزاعاً فى شارع أو خصاماً فى ترام ، وتدخل المقهى مملوءا بالناس ، فإذا أغمضت عينيك حسبت أن ليس بها أحد ، فهم فى الحق كما يقولون فى هذين الأمرين انجليز الشرق .
ولعل ما لفت نظرى إلى هذين الخلقين سوءهما فى مصر ، فعنايتنا بالنظافة ضعيفة ، وإذا رتبت الأمم فى النظافة لم نجد أنفسنا فى أعلى القائمة ولا أوسطها ، ويفوقنا فيها من الشرقيين اللبنانيون والسوريون ، وكذلك الشأن فى الهدوء ، فبلدنا حرمت هذا الهدوء فى القهوة وفى الشارع وفى الترام وفى كل مجتمع حتى فى البيت .

رأيت مذكراتى مملوءة بالذهاب كل يوم صباحاً أو صباحاً ومساء إلى مكتبات الآستانة ، وقد كان هذا عملنا الرسمى فى الرحلة وما أثقل الرسميات ! إنها عمل آلى لا دخل للقلب فيها وإن استفدنا كثيراً منها ، فقد قلبنا الكتب وتغلغلنا فى المكتبات وفتحت لنا منها ما لم تفتح لغيرنا ، ودوّنا أسماء الكتب القيمة التى عثرنا عليها ووصفناها وقيدنا أرقامها ، ولما عدنا إلى مصر قابلناها بما فى دار الكتب واستبعدنا الموجود وكتبنا تقريراً بما عثرنا عليه من جديد ، وأودعنا منه نسخة فى دار الكتب لتستفيد منه وقدمنا نسخة أخرى لسمو الأمير صاحب الفضل على الرحلة .

ولـكن ليست هذه هى الرحلة فلا أطيل على القارئ بتفصيلها .

إنما كان أهم ما فى الرحلة يوم نخرج لا لغاية ، ونتجول فى الشوارع لا لغرض ، ونزور القرى والضواحى ليتفتح قلبنا ، ونرى النـاس غادين رائحين ونحن مندمجون فيهم لا نعرف أحداً ولا يعرفنا أحد ، فيعجبنا منظر نقف عنده ما شئنا ونسير حتى نتعب ونركب حتى نملّ ونخزن فى أنفسنا ما نعى وما لا نعى . وقد نسمع كلمة عابرة من رجل تدلنا على الشىء الـكثير .

زرنا مرة مسجد السلطان أحمد وهو مسجد كبير عظيم ، وقابلنا بوابه فوقف يرثى لحاله وحال الدين فى العهد الجديد و يقول بلسانه التركى : بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما كان . يقولها و يلتفت عن يمينه و يساره خوفاً من أن يسمعه أحد .

ورأيت شخصيات أعجبتنى — رأيت رجلين ألمانيين مستشرقين يعيشان للكتب العربية وللعلم العربى ، لا لذة لهما فى الدنيا إلا هذا ، صباحهما فى المـكاتب ومساؤهما على مكتبهما يقرآن و يصححان . أحدهما يحضر بحثاً فى المقامات ، فيجمع المقامات التى كتبت من عهد البديع إلى اليوم ، و يصنفها و يتفهمها و يعلق عليها . والثانى مشغوف بكتب المذاهب الدينية ، فهو ينشر كتاباً لأبى الحسن الأشعرى و يرى فيه الأمرّين فى تصحيح جمله وتفهمها ، و يعرض علينا ما يقف

فيه ، فنطيل النظر لتفهم العبارة ، وقد نوفق وقد لا نوفق ، وكل منهما صبور أشد الصبر ، يتعبد بعمله كما يتعبد الراهب فى صومعته .

وهذا « إسماعيل أفندى صائب » رجل مسن وقور طيب القلب يعرف كلَّ ما فى مكتبات الأستانة من كتب ، وما فيها قيم ، ومافيها ليس بقيم ، ويقف نفسه لخدمة كل من أراد منه علماً بهذا الموضوع ، زاهد فى الدنيا راض بالقليل ، عرض عليه أن يكون أستاذاً للأدب العربى فى جامعة استانبول بمرتب كبير فرفض ، لأن هـذا المنصب منصب مدنى يضطر صاحبه فى العهد الجديد أن يلبس البدلة والقبعة ، وهو حريص جدّ الحرص على أن يكون شيخاً معمماً ، والعمة لا يسمح بها إلا لرجل له عمل دينى رسمى ، فهو يفضل العمل الدينى القليل الأجر على العمل المدنى الكبير الأجر .

وهذا الشيخ « رشيد الحواصلى » سورى الأصل عاش فى الأستانة زمناً طويلاً ، وصاحب السيد جمال الدين يوم كان فيها وسمع الكثير من أحاديثه ، ورأى الأستانة فى عهـدها القديم وعهدها الجديد ، وعرك الدهر وعركه الدهر ، وهو إلى جانب ذلك تاجر فى الكتب ماهر ، يعرف كيف يبيع وكيف يشترى وكيف ينتهز الفرص — وجدناه فرصـة لنا نعرف منه أحوال

الأستانة قديمها وحديثها والانقلاب الحديث وموقعه فى نفوس الناس ، إلى آخر ما عرفنا من شخصيات .

خير أوقاتنا ما نخرج فيه من الأستانة إلى الضواحى ، فيوماً نركب وابور البحر فى البسفور إلى شرشرصو ، وكانت رحلة ممتعة رأينا فيها جمال البسفور وما حوله ، والمساكن منتثرة فى الجبال المزروعة على شكل مدرج ، والجبال مكسوة بالأشجار ، أشجار الكريز ، والبندق ، والجوز ، وعيون الماء تنبع فيها ، فيخرج منها ماء بارد عذب زلال لذة للشاربين ، وفى الطريق بلاد يمر عليها وابور البحر ، فيقف عندها ، فنجد سوقاً نظيفاً فيه ما يحتاج إليه الإنسان من فاكهة نظيفة وفطائر و بقول ونحو ذلك .

الأطفال الصغار والرجال الكبار فى غاية النظافة ، وأكثر المبيعات تعرض من الداخل ، فالجزار مثلاً لحمه فى داخل دكانه .

ومرة ركبنا باخرة إلى جزيرة الأمراء ، وهى جزر ثلاث ، ذهبنا إلى أكبرها ، وهى جبل مدرج يحيط به الماء ، كسى بالأشجار والنبات ، بنى الناس فيه مساكن ظريفة على البحر ، وقد صعدناه إلى قمته وتغدينا هناك ، وأمتعنا نفوسنا بالمنظر الجميل والجو الجميل .

والأتراك حريصون على أن يقضوا يوم الجمعة فى الضواحى

إذ هو يوم العطلة الرسمية ، تغلق فيه الحوانيت وتعطل الأعمال ، فيخرجون زرافات ووحداناً إلى المنازه ومعهم أكلهم ، وقد يكون معهم موسيقاهم ، مرحين مبتهجين . ومرة خرجنا والجو صحو جميل ، فلما وصلنا إلى ضاحية من الضواحى أمطرت السماء مطراً غزيراً على المتنزهين ، فجروا كلٌّ يبحث عن ملجأ يلجأ إليه ، وهم ضاحكون مستبشرون ، يسخرون من الجو الذى سخر بهم ، ويضحكون من السماء التى تضحك منهم ، فكان يوماً جميلاً ومنظراً رائعاً .

والنساء فُتِنَّ بالحرية الجديدة والسفور الجديد ، فهن يمرحن ويبالغن فى المرح ، والفتيات الفنيات يرقصن حتى فى الشارع ، ويغنين فى المقاهى ، وكأنهن سجناء خرجن من سجنهن بعد طول العذاب ، ورأين أهلهن بعد طول الغياب ، إلى آخر ما رأينا من مناظر طبيعية وغير طبيعية ، وفنية وغير فنية .

ومن خير المصادفات أن رأيت فى الأستانة «على بك فوزى» أستاذنا القديم فى مدرسة القضاء ، وكان قد استقال من منصبه الحكومى ، وخرج من مصر لأنه لم يطق أن يرى الجندى الإنجليزى يحتل بلاده ، والجرسون الأجنبى فى القهوة يتمتع بامتيازات لا يتمتع هو بها ، فخرج من وطنه هارباً ، وطوّف

بالبلاد وحط رحاله فى الأستانة ، يقنع بخمسة وعشرين جنيها معاشاً له ، يصرف أقلها على نفسه وأكثرها على الفقراء من حوله . ظللت أبحث عنه فى الأستانة طويلاً حتى وجدته ، فوجدت لقيتى ، لأنى أعلم أنه أقدر الناس على أن يشرح لى الانقلاب الحديث فى تركيا ونتائجه وما فيه من خير وشر .

لقد أعلم أن قد حدثت فى تركيا انقلابات اجتماعية خطيرة تثير اهتمامنا ، لأن تركيا أول بلد إسلامى نزعت هذا المنزع وجربت هذه التجارب ؛ فقد خلعت الخليفة وألغت الخلافة ، وحرمت الخليفة المخلوع وأفراد أسرته وأصهارهم من الإقامة فى الجمهورية التركية ، وحوّلت الخلافة إلى جمهورية ، وحوّلت كثيراً من أملاكهم ومبانى القصور وملحقاتها إلى الأمة ، وذهب العقلاء فى ذلك مذاهب شتى ، منهم من يحبذ هذا العمل ومنهم من ينقده .

وألغت وزارة الأوقاف ، وجعلت تدبيرها لرئيس الأمور الدينية وهيئة علمية استشارية بجانبه ، وألغت المحاكم الشرعية ، ووحدت القضاء .

وألغت المدارس الدينية ووحدت المدرسة ، وقد كانت المدارس الدينية كثيرة منتشرة متنوعة فى البلاد ، وكان بعضها يتبع وزارة الأوقاف و بعضها يتبع وزارة الشئون الشرعية ، فجعلتها

كلها تابعة لوزارة المعارف ، تعلم تعليماً مدنياً واحداً ، ومن شاء أن يعلم ابنه تعليماً دينياً فليتكفل بذلك على نفقته ، وقصرت التعليم الديني على كلية اللاهوت التي تتبع الجامعة ، وهذه هي التي تخرّج رجال الدين .

وألغت الطرق الصوفية وأغلقت الزوايا والتكايا ، وحرمت الألقاب الصوفية من درويش ومريد وأستاذ وسيد وشلبي ونقيب . . الخ ، وحرمت العرافة والسحر والتنجيم وكتابة التعاويذ والأحجبة وأعمال كشف الغيب والإخبار بالمستقبل ، وعاقبت كل من يثبت عليه شيء من هذا بالحبس مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر و بغرامة لا تقل عن خمسين ليرة ، وحوّلت الزوايا والتكايا إلى مدارس مدنية .

وحددت الزي الديني فلم تسمح به إلا لطائفة خاصة ، كرئيس الأمور الدينية والأئمة والخطباء والوعاظ المعينين من قبل رئيس الأمور الدينية ، أما من عداهم فيحرم عليهم لبس العمامة والتزيي بزي رجال الدين .

وحددت يوم الجمعة يوم عطلة إجبارية ، تعطل فيها المصانع والمخازن والمتاجر ونحو ذلك . ومن لم يفعل يعاقب ، واستثنت من ذلك الأفران والجزارين و بائعي الخضر والدخان والصيدليات

و بعض المؤسسات . وألغت التقويم العربى وحتمت التقويم الغربى.

ومنعت الإسراف فى الجهاز والزواج فلا ينقل جهاز علانية ، ولا تقام أفراح أكثر من يوم واحد ولا تقام مآدب عامة فى الأفراح . وسنت قانوناً مدنياً عممته بدل مجلة الأحكام الشرعية وبدل الأحوال الشخصية اقتبسته من القوانين الأوربية ... منعت فيه مثلاً تعدد الزوجات وخوّلت لكل من الزوجين الحق برفع قضية الطلاق لأسباب معينة .

وحررت المرأة من حيث سفورها ومساواتها بالرجل ، سياسياً واجتماعياً ومدنيا ، وفتحت لها مجال الكسب والتوظف فى الوظائف ، ولم يكن السفور بقانون ، وإنما كان دعوة دعا إليها مصطفى كمال وألح فيها ، فاستجابت المرأة إليه . أما مساواتها بالرجل اجتماعياً فقد شرعت فى القانون المدنى ، فسوى بينها و بين الرجل فى الميراث ، واعتبر الزواج شركة تتألف من جزأين متساويين . وأخيراً شرّع للمرأة مساواتها بالرجل فى الحقوق السياسية ، من إعطائها حق أن تَنْتَخِب وتُنْتَخَب . وعنى بتعليمها ، وتُوسع فى ذلك توسع تعليم الذكور . وفصل الدين عن الدولة ، فلم يستخدم الدين فى التشريع ولا فى الحكم ولا فى الإدارة ، ونُحِّيَ رجالُ الدين عن أى تدخل فى الشئون الدنيوية .

وغيرت كتابة اللغة التركية من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية .

هذا أهم مظاهر الانقلاب الذى حدث فى تركيا ، والذى أردت أن أفهم أثره وأطيل التفكير فيه ، أيها يصلح لمصر وأيها لا يصلح ، وهل تستطيع تركيا أن تسير فى هذا الإصلاح إلى آخر الخطوات أم لا ؟

ولأعرض الآن بعض مذكراتى اليومية التى كتبتها :

الاثنين ١٨ يونية سنة ١٩٢٨ .

ذهبنا صباحا إلى طوب قبو سراى و بحثنا فى مكتبتها وعثرنا فيها على كتب قيمة ، وفى المساء قابلنا على بك فوزى ومكثنا معه نحو ثلاث ساعات تحدثنا فيها فى شئون مختلفة .

سألته عن الحالة الاجتماعية فى تركيا ، فقال يجب أن ترقبوا التطور الحادث فى تركيا مراقبة دقيقة ، فمصر مرتبطة بتركيا ارتباطا كبيرا من الناحية الاجتماعية ، وكثير من عادات المصريين وتقاليدهم مأخوذة عن تركيا ، فإذا تغيرت تركيا يوشك أن تتغير مصر ، أضف إلى ذلك أن الأستانة هى البوغاز الذى تمر منه المدنية الغربية إلى مصر . ورأيى أن التيار الغربى لا يمكن مقاومته ، فخير أن نستعد

للسير معه قبل أن يجرفنا رغم أنوفنا .

إن أكبر مظهر للانقلاب التركى هو السفور ، وقد أفاد الأمة التركية من حيث إصلاح الزواج ، فكل من الزوجين يرى صاحبه ويأنس به قبل عقد الزواج ، ثم إن السفور مكن المرأة من معرفة كثير من شئون الدنيا وكانت تجهلها . والسفور فى صالح الرجل أكثر منه فى صالح المرأة ، فالحجاب كان يحيط المرأة بهالة تمكّن الرجل من الإمعان فى الخيال والجرى وراء التصورات ، ولذلك كثر الغزل فى الأدب العربى وأمعن الغَزِلون فى الخيال .

وسألته عن القبعة فحبذها ، وقال إنها أفضل من الطربوش للرأس والعين ، وإنه يكره الطربوش ولا يحس له طعما ، وحبذ تقليم الحكومة لأظفار رجال الدين لأنهم كانوا نصراء الرجعية وأداة فى يد السلاطين الظالمين ، ينكلون بالأمة بواسطتهم ، وكان سلطانهم كبيرا على الناس ، وقد استخدموا هذا السلطان فى غير مصلحة الأمة ، وقال إنه كان يندس بين رجال الدين من لا يتصلون بالدين ، وكثير من الناس كانوا يلبسون العمامة ويغررون بها الناس ، فالمتسول والمنجم وكاتب الأحجبة والدجال كل هؤلاء كانوا يلبسون العمامة ويتزيون زى رجال الدين ، فما فعلته الحكومة

التركية من تحريم لبس العمامة إلا لرجال الدين الرسميين عمل نافع قطع دابر كثير من وسائل التخريف والتدجيل . ولا بد لكل إصلاح من ضحايا ، ولا بد عند منح الحرية أن يعقبها إفراط ، فالتشديد على رجال الدين استتبع بعض أخطاء ، وسفور المرأة استتبع بعض الزلات ، ولكن الزمن كفيل بإصلاح ذلك .

قال : ومن الإفراط فى الثورة الدينية ما قرأته اليوم فى بعض الجرائد التركية من دعوة إلى تنظيم المساجد والصلاة تنظيما يتفق مع المدنية الحديثة ، فالرجل يلبس الجزمة ويصعب عليه خلعها والرجل يلبس القبعة ويصعب عليه أن يسجد بها .

قال : وقد دهش العالم الغربى من ثورة تركيا وتمام هذا الانقلاب الخطير من غير سفك دم ، وقال : إن كثيراً من الأوربيين نقموا على هذا الانقلاب لسببين : فبعضهم كرهه لأنه كان يعد الأتراك فى ملبسهم وعاداتهم وتقاليدهم متحفا يستمتع به ويذكّره بالقرون الوسطى ، وكثير منهم كرهه لأنه سلبه الامتيازات التى كان يتمتع بها فى العهد السابق .

سألته : هل يعتقد أن تركيا ستستمر فى سيرها فى طريق نهضتها ؟ فقال: إن كل الظواهر تدل على ذلك ، فالجيل الجديد

يؤيد الحركة ويحافظ عليها ، والناس جميعاً أسعد حالا فى ظل هذا العهد منهم قبله .

وانتقلنا من هذه الأحاديث الاجتماعية إلى أحاديث شخصية فسألته : هل لايزال يحن إلى مصر؟ فقال : إن حنينه شديد ، ولكنه يفضل الإقامة فى تركيا ، فقد جرب وفاء الأصدقاء فرأى فى مصر ما آلمه ، وخير له أن يكون بعيداً فيقاطعوه من أن يكون قريباً منهم ويقاطعوه . قال : وقد فضلت تركيا لأنه بلد إسلامى مستقل ، وفيه الصدر الرحب الشرقى . والأوربى — على العموم — متقدم فى المدنية ويفوقنا فى كثير من الأمور ولكنّ فيه جانباً وحشياً — وقد عشت فى انجلترا وفرنسا وألمانيا فلم أجد هذا الصدر الرحب الذى أشعر به فى إقامتى فى تركيا ، وإذا كنت فى الاستانة فموطنى الحى الشرقى منها وأكلى فى مطعم شرقى ، ولا أذهب إلى الحى الأوربى إلا نادراً ، ويسرنى أن أكون فى حى مملوء بالمآذن .

سألته : هل هو راض عن خطته التى اختطها فى امتناعه عن الزواج ؟ فقال : إنه آسف على هذه الخطة ، ويود لو عاد إلى الشباب فتزوج ، فالزواج هو الذى يبعث الأمل فى الحياة ، وأنا الآن — من غير زواج — فى شيخوخة بائسة يائسة تنتظر الوفاة .

وانتقل الحديث إلى الأدب التركى ، فقال : حبذا لو تعلمتم

التركية لا لأن أدبها أوسع وأرقى من الآداب الأخرى ، ولكن لتروا كيف استخدم الأتراك لغتهم وأدبهم فى إصلاح شئونهم الاجتماعية والعقلية والنفسية — لا أمل فى إصلاح مصر ما دام هناك لغة للعلم ولغة للكلام ، فإما أن ترقى لغة الكلام وإما أن تنحط لغة العلم حتى تتحدا ، وحينئذ فقط يكون التفكير الصحيح واللغة التى تستمد روحها من الحياة الواقعية .

الخميس ٥ يوليه :

قضينا الصباح فى المكتبة السليمانية ، و بعد الظهر زرنا فؤاد بك كوبرلى تلبية لدعوته فى منزله قرب مسجد السلطان أحمد .

بيت قديم عظيم يظهر أنه بيت الأسرة ، فى غاية من النظافة والنظام ، فرشت سلالمه بالسجاد الفاخر ، ووصلنا إلى حجرة كبيرة صفت فى جوانبها دواليب الكتب على أجمل وضع ، ووضعت فى وسطها مائدة كبيرة للمطالعة .

استقبلنا فيها فؤاد بك ، وهو شاب فى نحو الثلاثين من عمره مملوء نشاطاً وأدباً ، يلمع فى عينيه الذكاء ، وقد كان يحضّر موضوعاً لمؤتمر المستشرقين . تحدثنا فى جامعتنا وجامعتهم والنشرات والكتب التى تنشرها الجامعتان ، ثم تكلمنا عن المستشرقين

وما يؤدونه من خدمة للعلم لولا لعب السياسة بعقول بعضهم ، وانتقلنا إلى الفرق الإسلامية وصعوبة الوصول فيها إلى حقيقة ، لأن الذين يكتبون فيها إما مؤيد مقال أو معارض متعصب . وسألنى : هل الإسلام شجع الصوفية أو ناهضها ؟ وكان من رأيي أنه شجعها .

وكنت أعلم أن فؤاد بك أحد دعاة الإصلاح الدينى والاجتماعى القائم الآن فى تركيا ، فأثرت هذا الموضوع مرتين لأعلم ما عنده وعند أصحابه من قواعد يبنون عليها إصلاحهم ، فكان فى كل مرة يغلق هذا الباب فى مهارة ، وينقل الحديث إلى موضوع آخر .

الأحد ٨ يوليه :

ذهبنا صباحا إلى مكتبة « شهيد على » فوجدنا المكتبة غنية بالكتب القيمة المخطوطة ، ولكن — مع الأسف — وجدنا الرطوبة قد أثرت فيها بشكل عرضها للتلف ، وعلمنا أن سبب ذلك أنها أغلقت أربع عشرة سنة لأن جاسوساً أخبر السلطان عبد الحميد أنه يجتمع فيها قوم يتكلمون فى السياسة .

وكان أمين المكتبة أفغانياً فتحدثنا عن السيد جمال الدين الأفغانى واستفسرنا منه عن موقع قبره فى الأستانة ، فأرشدنا إليه ، فذهبنا عصراً إلى جهة يقال لها « متشكه » وصلنا إليها

بالترام وتصل لها الباخرة أيضاً لأنها قريبة من محطة «برجه سراى» قريباً من مدخل البسفور . رأينا مقبرة قريبة من البحر تبلغ نحو خمسين متراً فى مثلها ، وقد سورت بسور له باب ، سألنا البواب عن مقبرة الشيخ جمال الدين فلم يعرف ، ولكنه أحضر لنا شيخ المقبرة فسألناه فدلنا على القبر . قبر عادى ليس فى ضريح ولا حوله بناء ، ويظهر أنهم عند دفنه تعمدوا ألا يشيدوا بذكره ، وأن يدفنوه كما يدفن أى رجل عادى ، ولكن أخيراً وضع على القبر تركيبة من الرخام حولها سور صغير من حديد وقرأنا على التركيبة اسم الشيخ جمال الدين وتاريخ ولادته ووفاته ، وفى ناحية أخرى سطران تركيان ترجمتهما : « أنشأ هذا المزار الصديقُ الحميم للمسلمين فى أنحاء العالم ، الرجل الخير الأمريكانى المستر تشارلس كرين سنة ١٩٢٦ .

وقفنا عند قبر الأستاذ نستحضر حياته وثورته وجهاده وأنه أول من بذر نواة الإصلاح فى مصر . فتأثرت نفوسنا بذكراه وقرأنا له الفاتحة وترحمنا عليه ، وفارقناه ونفوسنا مملوءة بالذكريات.

وقد كنا سألنا الشيخ الأفغانى — خازن مكتبة شهيد على — عن قبر عبد الله نديم فأخبرنا أنه فى جهة « بشكطاش » ولكن لا يدرى بالضبط موضع دفنه .

الخميس ١٢ يوليه :

ذهبنا صباحا إلى القنصلية المصرية وودعنا من فيها ، ثم ذهبنا إلى جامع بايزيد وتغدينا فى مطعم بجواره بدعوة من على بك فوزى ثم ودعناه وداعاً مؤثراً ، فقد كان الرجل قد وجد فينا أنساً من وحشته ، ورائحة من وطنه فى غربته . فلما استأذناه فى السفر قال : إنكم إنما تستأذنوننى فى فقد حياتى ، فدمعت عينى عند سماع هذه الجملة .

والرجل — من غير شك — شخصية غريبة لم أر مثلها ، يحب بلده مصر من صميم قلبه ، ويحب المسلمين ويرثى لحالهم ، ويتدين تديناً مزيجاً من قلبه وعقله . أهدانى يوم وداعه مجلة إنجليزية كان يصدرها عنايت خان فى سويسرة فى التصوف ، يدعو فيها إلى التصوف العام من غير تقيد بتفاصيل دين خاص ، وقد أخبرنى على بك فوزى أنه عُرض عليه بعد وفاة عنايت خان أن يرأس هذه الجمعية فأبى ، لأنه لا يحب أن يتقيد بالتقاليد والشعائر على أى شكل كانت .

منشأ عذاب هذا الرجل وشقائه رقة إحساسه ودقة شعوره إلى حد بالغ .

السبت ١٤ يوليه :

ذهبنا عصراً إلى « يلدز » قصر السلطان عبد الحميد ، وقد كان كعبة القاصدين وملعب السياسيين ومخبأ الدساسين ، تصدر عنه القرارات الهامة التى تحرك العالم الإسلامى وترسم خططه وتقرر مصيره . يلتقى فيه دهاة الغرب بدهاة الشرق ، بالدجالين والمخرفين ، بالمصلحين والمفسدين ، وتسرح فيه الغانيات الجميلات والمماليك السود والبيض .

سراى كبيرة على البسفور ، أقيم عليها من جانب البحر سور ويلى السور شارع وعلى جانبى الشارع أقيمت أمكنة للحرس ، ثم السراى .

كان دليلنا عبد الله أفندى رجلاً سودانيًّا طويل القامة ، خدم فى السراى أربعين سنة ، وهو يترحم على الأيام الماضية ، أيام العز والمجد ، ويأسف لضياعها وضياع الإسلام . سراى فخمة . وحدائق لا يرى الطرف منتهاها ، وتمشى من أولها صاعداً نحو ثلث ساعة حتى تصل إلى باب البناء ، هذا بناء أعدّ للضيفان والزائرين ، رأينا منه حجرة كانت معدة لأكل الضيوف فى عهد السلطان ، وهى حجرة بديعة فى حليتها وجمال صنعها ، قد عرِّيت من أثاثها فلم يبق فيها إلا مرآة كبيرة ، وأشار عبد الله أفندى

إلى حجرة أخرى أكبر منها تسع أضعاف ما تسعه الأولى ولكنها مغلقة ، وأخبرنا أن كل أثاث السراى قد نقل ، وأن بناء الحريم الذى كان يسكنه السلطان قد احترق أيام الحرب .

ورأينا فسقية كبيرة فى الحديقة قال لنا عبد الله أفندى : إنه منذ أيام قليلة زارنا الخديو عباس ، ووقف عند هذه الفسقية ، وحكى لنا أنه حين ولى على مصر حضر إلى الأستانة وجلس مع السلطان عبد الحميد بجوار هذه الفسقية هو وأمير بلغاريا ، وإذ ذاك أنعم عليهما السلطان ، ثم ترحم على تلك الأيام ، وظهر على وجهه الحزن والأسف ، وهكذا الدنيا وهمٌ خادع وظل زائل .

الاثنين ١٦ يوليه :

قررنا السفر والعودة إلى مصر ، فأخذنا السيارة إلى الجمرك ومنه ركبنا السفينة واسمها « الروضة » فكانت مدة إقامتنا بالأستانة نحو أربعين يوماً .

فلأنظر نظرة عامة فى الرحلة : أنفقنا نفقات كثيرة فى الأيام الأولى ، لأننا كنا نجهل كيف نعيش ، وكان يصحبنا دليل سورى أثقلنا بأحاديثه وتكاليفه فاستغنينا عنه .

كان جو الأستانة فى الأربعين يوماً جميلاً ، فلم نشعر فيه بحر القاهرة ، بل كنا أحياناً نشعر بالبرودة ، ولكن حدثنا

بعضهم أن الحر فى هــذه السنة كان خفيفاً أقل من المعتاد ، وفى بعض السنين يكون شديداً لا يطاق فى بعض الأيام .

وقد أفادتنى هــذه الرحلة اتساعاً فى أفقى ، فأصبحت أنظر إلى مصر وحوادثها وشئونها من عل كأنى فى طيارة ، وغلبتنى وأنا فى الأستانة العاطفة الدينية ، لا من ناحية كثرة الصلاة ونحوها ، ولــكن من ناحية الشعور القلبى .

أحسست عند مقارنتى لرفقائى فى السفر أننى أكثرهم تحفظاً وأقلهم مرحاً وأشــدهم حنيناً إلى أهلى ووطنى ، واعتزمت أن أنصف أهلى وولدى عند عودتى ، فأكون معهم ألطف وأعطف وأرق وأحسن معاملة وأكثر مرحاً .

فــكرت أن أبحث عنــد عودتى مشروعاً مفيداً وهو إنشاء مطبعة أنشر فيها خير الــكتب القيمة التى عثرت عليها فى الأستانة فيكون عملا مربحاً ماديا وأدبيا .

قلت فى نفسى : إن الأربعين يوماً التى قضيتها فى الأستانة موضوع لرواية جيدة بل روايات ، ففيها المناظر وفيها الأشخاص ، وفيها الأحداث ، ولا ينقصها شىء إلا المرأة والتحرير الروائى .

لاحظت كثرة الشيب فى رأسى ، فبدأ شعورى بكبر سنى ، وزاد هذا الشعورَ ما كان يبدو على بعض الشبان من تقديمى

أمامهم فى السير ، و إخلاء أماكنهم ليجلسونى ، وكان كل هذا إكراماً لاذعا .

لتمنيت أن تنقلب السفينة طائرة .

وخُتمت هذه الرحلة بمأساة سمّاها أستاذنا على بك فوزى لما علم بها « آية الكرسى » ؛ ذلك أنه قبل وصول الباخرة إلى الاسكندرية بيوم صعدت فوق ظهرها وأردت الجلوس على كرسى من قماش من النوع المعروف الذى يقفل و يفتح ، وكان كرسياً قديماً ، فتحته وأخذت أجلس عليه مستنداً بيدى على خشبتيه الجانبيتين ، فانفلتت خشبته الخلفية ووقعت إصبعى الخنصر من اليد اليمنى بين الخشبتين الجانبيتين فانقطع طرفها العلوى وتدلت لحمته وسال دمه ، وحضر طبيب الباخرة فأعاد اللحمة المدلاة إلى مكانها ور بطها ر بطاً محكما . واستثارت الحادثة عطف كل من كان فى الباخرة ، ولما حضرت إلى مصر ذهبت إلى الجراح فأمر بالكشف بالأشعة على عظمة الإصبع فوجدت والحمد لله سليمة ، ولم يلتئم الجرح إلا بعد علاج طو يل وقد ترك أثراً فى إصبعى بيّناً .

[كتب على السفينة (الروضة) فى ١٦ يوليه سنة ١٩٢٨]

(٢٦)

وانتهزنا فرصة إجازة نصف السنة ، فدبرنا رحلة إلى الشام في خمسة عشر يوما والزمن شتاء والبرد قارس ، فخرجنا من مصر في ديسمبر سنة ١٩٣٠ في رهط من الطلبة والأساتذة ، وعهدت إليَّ الكلية الإشراف على الرحلة ، فها نحن نرحل من القاهرة إلى القنطرة ونعبر القنال ، ونخترق صحراء سينا بالقطار ، ونمر على غزة ثم على بعض المستعمرات الصهيونية ، ونستمع إلى بعض الأحاديث عن منشآتهم في مستعمراتهم ، فنستشعر الخوف من المستقبل ، حتى نصل إلى محطة « اللدّ » فنستقل قطاراً آخر إلى بيت المقدس ، و بين اللد والمقدس نستمتع بالمناظر الطبيعية من جبال ووديان نشأت — ولا بد — من ثورات أرضية عنيفة فعلت أفاعيلها القاسية فرفعت بعضها إلى أعلى وسميناه جبلا ، وخفضت جزءاً آخر وسميناه وهدة أو واديا ، وهي مناظر تملأ القلب روعة وهيبة ، حتى نصل إلى المقدس فيستقبلنا بعض علمائه وأدبائه ، وعلى رأسهم إسعاف بك النشاشيبي ، و يبالغ في إكرامنا ، ونلتقي بالأستاذ السيد الحسيني مفتي فلسطين فيوحي إليَّ منظره بقوة إرادة وتصميم عزم ونفس لا تهدأ حتى تتسلط ،

وأنتهز الفرصة فأجتمع برؤساء بعض الأحزاب فى فلسطين ، فأستمع إلى أحاديثهم وأعرف كيف يتنازعون على المصالح الشخصية لا على المبادئ العامة ، فأرثى لحالهم وأتوقع من ذلك الشر لبلادهم — ونزور بيت لحم ، ونرى كيف تتنازع الطوائف المسيحية المختلفة على الأمكنة وكيف يتقاسمونها شبراً فشبراً ، فأُعجَبُ بسماحة الإسلام وعدِّه الأرض كلها مصلى ، والأرضَ كلها لله . ونذهب إلى قرية الخليل ونزور مسجده ونعجب ببنائه الضخم ونرى فيه مظهراً من مظاهر البناء الرومانى وطابعاً من طوابعه .

ونزور المسجد الأقصى فنعجب بفنائه ، وننتقل إلى الصخرة ونقف تحت القبة العظيمة ، وننظر إلى الأبنية الجليلة التى بناها صلاح الدين .

ونرحل بعد ذلك إلى البحر الميت ، ويقص علينا الدليل ما يحوى هذا البحر من ذخائر كيمياوية سيستغلها العلم الحديث ، وينتفع بها مستخرجوها ، ونعود هنا أيضاً فنستشعر الخوف من الصهيونية المقبلة . ونسير إلى أريحا ، ونهر الشريعة ، ونرى الجسر الذى يفصل بين فلسطين وشرق الأردن ، ثم نمر على نابلس ونصل بعدها إلى الناصرة بلد المسيح عليه السلام . ثم نصل إلى طبرية ونشعر بالدفء الذى يطرد ما خزناه من برد ، ونعجب بما حولها

من جبال عالية تتفجر منها مياه حارة أنشئت حولها حمامات . ثم نسير بعدها إلى دمشق ، ونحن متطلعون إلى رؤيتها ، نحمل ذكريات من أحداثها من عهد أن كانت مركز الخلافة الإسلامية فى عهد معاوية ، والخلفاء الأمويين من بعده ، ونتجول فى أنحائها ونزور مصانعها ومساجدها ونخرج إلى ضواحيها ننعم بجمالها ؛ ولكن كانت دمشق وسوريا كلها إذ ذاك فى حوزة الفرنسيين ، وهم يخشون من طلبة الجامعة وأساتذتها لأنهم يعتقدون أنها بؤرة أفكار وطنية ثورية ، فخشوا أن نلتقى بأمثالنا من الناقمين على الاستعمار ، فأحاطونا بسياج لطيف الملمس فى شكل إكرام ، فكنا كلما سرنا احتاط بنا موظفو الحكومة يستقبلوننا و يطلعوننا على ما أحبوا لا على ما نحب ، وهذا ظن ظننته ، دل عليه ما رأيته .

ونزور المسجد الأموى بدمشق فنسحر بعظمته وجلاله ، وسعته وجماله . وضريحَ شيخ الصوفية محيي الدين بن العربى ، وقبر صلاح الدين الأيوبى وأستاذه نور الدين محمود زنكى ، ونقضى سهرة لطيفة فى نادى الموسيقى بدمشق .

ثم نركب القطار إلى حلب ، ونزورها و يستقبلنا رجال المعارف أيضاً فنتجول معهم فى المدينة ، وقد أعجبتنا نظافتها وجد أهلها ، ونرى استحواذ الأرمن على أهم الصناعة فيها ، ونزور الجامع

الأموى فيهـا أيضاً كما نزور قلعتها العظيمة ، وتثور فى نفوسنا ذكريات سيف الدولة فى حلب ومجلسه الأدبى الفخم يصول فيه المتنبى ويجول .

ثم نقصد إلى زيارة أبى العلاء المعرى فى معرة النعمان ، فنرى بناء متواضعاً يحتوى على فناء صغير وحجرتين ، وفى إحدى الحجرتين قبر كتب عليه : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى . فنقف على قبره طويلا نذكر لزومياته وسقط زنده ، وزهـده واحتقاره للدنيا ونعيمها ، وجرأته التى ليس لها مثيل فى نقده اللاذع للتقاليد والأوضاع .

ونمر بحماه ونخترقها ونسر بنواعيرها ، ونصل إلى بيروت فنزور الـكلية الإسلامية والجامعة الأمريكية ومدرسة الآباء اليسوعيين ، ونعود على الباخرة إلى الإسكندرية ء

كل هذا فى خمسـة عشر يوماً حتى لـكأننا نرى هذه الأماكن من طيارة ، أو نستعرض فلماً سينمائيا سريعاً .

لقد استفدت من هذه الرحلة رؤية هذه البلاد وأهلها ، وعرفت طرفا من حياتها الاجتماعية ومشاكلها السياسية ومناظرها الطبيعية ، ولـكن عكر صفوها أنى لم أستطع أثناءها الانفراد

بنفسى وأنا أكره اليوم الذى لا تتاح لى ، فيه فرصة الوحدة والعزلة ، أحلم فيها وأتأمل .

والرحلة فى نظرى لا تكون لها قيمة حقة إلا إذا تفتح القلب لما يرى ، وجال الخيال فى ذلك جولته ، ومزج الإنسان ما يرى بنفسه . ولم أتمكن فى هذه الرحلة من ذلك كله ، فاعتزمت فى هذا المأزق أن أجتر كما يجتر الجمل و يخزن سريعاً ما يأكل ، ثم يمضغه و يهضمه بعد ذلك على مهل ، وكان مما أتعبنى فى هذه الرحلة كثرة ما أدعى إلى الأكل و كثرة ما يلقى من الخطب على الموائد ، فلا يزال الشرقيون يتصورون الكرم أكلا وخطابة ، وكلما كثر الأكل و كثرت الخطابة كان عنوان الكرم . و إنى لأرجو أن يتحول هذا الكرم فى المستقبل إلى اقتصاد فى الموائد وتوسع فى الإفادة بالمعانى ؛ وخاصة مع رجال العلم . وزاد العبء علىّ أننى كنت الخطيب الوحيد غالباً ، فكلما دعينا إلى مأدبة خطب صاحبها وطولبت بالرد عليه ، لهذا ملئت هذه الرحلة بالرسميات ، والرسميات عدو الرحلات ، ومضيعة لبهجتها ؛ ومع هذا فالأديب والفيلسوف من طبيعتهما أن يختزنا فى أنفسهما كل ما يقع تحت حسهما فى وعى أو من غير وعى ، ولا يدرى أحدهما متى ينتفع بهذا وكيف ينتفع ، ولكنه سينتفع حتما على كل حال .

ولا بأس هنا أن أذكر رحلة أخرى رحلتها إلى بيت المقدس كانت عجيبة حقا مربكة حقا . ذلك أنى تلقيت يوماً خطابا من جمعية الشبان المسيحية فى القدس ، تطلب منى محاضرتين فى أى موضوع أختاره ، وحددَت لى موعداً بعد شهر تقريبا ، فقبلت الدعوة واخترت موضوعا هو « ما الذى يعوق المسلمين اليوم عن المشاركة فى بناء المدنية الحديثة » وعكفت على كتابة المحاضرتين حتى أتممتهما وتهيأت للسفر ، و إذا بتلغرافات ترد علىّ من جمعيات الشباب المسلمين فى القدس و يافا وحيفا وغيرها تحذرنى من الحضور من غير أن تذكر سبباً ، فلم أعبأ بذلك ، وسافرت ، فلما وصلت إلى القدس لم أجد من يستقبلنى إلا مندو با من جمعية الشبان المسيحية وأستاذاً فى القدس كان طالبا لى فى كلية الآداب ، فدعانى مندوب الجمعية إلى النزول فى بنائها فاعتذرت ، ودعانى الأستاذ تلميذى أن أنزل فى بيته إذ كان يسكن بمفرده فقبلت ، وقد أسر إلىّ صاحبى بأن الأستاذ المفتى و إسعاف بك النشاشيبى والأستاذ الثعالبى يعتذرون إذ لم يقابلونى و يطلبون إلىّ أن أقابلهم ، فقابلت الأستاذ إسعافاً فشرح لى الموقف وقال : إن مركز جمعية الشبان المسيحية متهم الآن بأنه مركز تبشير للمسيحية ومركز تبشير للاستعمار الإنجليزى ، وقد ثبتت عليه بعض الأحداث فقاطعه المسلمون من

أجل ذلك ، وقد أرادت الجمعية أن تكسر هذه القطيعة وتبطل الأضراب بدعوتك لإلقاء هذه المحاضرات . فقلت : كان عليكم أن تخبرونى بهذه التفاصيل من قبل حين أعلنت الجرائدعن سفرى ولنتدبر الآن فى الحل . فطلب أحدهم إلغاء المحاضرات فأبيت ، وطلب آخر أن ألقى المحاضرات نفسها فى جمعية إسلامية ، فقلت إن هذه المحاضرات قد أصبحت ملكا للداعى إليها . وأخيرا اتفقنا أن ألقى محاضرة فى موضوع آخر فى جمعية إسلامية قبل إلقاء هاتين المحاضرتين ، وأُعدت العدة لإلقاء محاضرة فى جمعية المقاصد الإسلامية . وكان عنوانها « تفسير آية إن الله يأمر بالعدل والإحسان » .

وقد بدأت المحاضرة ببيان وجهة نظرى فى المحاضرة التى أتيت من أجلها ، مستندا إلى أن المسئول عن ذلك هم لا أنا ، إذ كان الواجب عليهم أن يخبرونى بمقاطعتهم قبل حضورى . ثم إن موضوع المحاضرة التى سألقيها يدور حول الإشادة بالإسلام والمسلمين ، وأن السبب فى أنهم لم يبنوا فى المدنية الحديثة مع البانين لا يرجع إليهم ولكن يرجع إلى أن الاستعمار الأوروبى يأبى رقيهم ، ويعمل على إضعافهم لاستغلالهم ، ولو أنصف الأوربيون لمهدوا للمسلمين سبيل القوة حتى يقفوا على أرجلهم

ويبنوا فى صرح الحضارة معهم ومثل هذا الكلام إذا ألقى فى جمعية مسيحية كان له الأثر الأكبر ثم هبوا أنه قد دعى قسيس مسيحى للتبشير بدينه فى مسجد إسلامى ألا ترون أنه يَعد ذلك فرصة عديمة النظير ، وأخيرا سألقى محاضرتى فمن لم يقتنع بما قلت وشاء مقاطعة المحاضرة فليفعل ، ومن شاء أن يسمعها ثم يقاطع فليفعل ، ثم بدأت فى محاضرتى عن العدل والإحسان ، ومع هذا البيان خرجت جرائد بيت المقدس تندد بى وتطالب بعدم إلقاء المحاضرة ومقاطعتى إن ألقيتها — وحين ذهبت لإلقائها كان بعض الشبان فى مفترق الطرق يحرضون من توسموا فيه الذهاب إلى الجمعية على عدم الذهاب ، ولما ذهبت وجدت — مع الأسف — القاعة الكبيرة الفسيحة مملوءة بالمستمعين .

وانتهت المحاضرتان بعد أن لقيت فيهما من العناء الشىء الكثير ، ولم أستمتع بطبيعة ولا منظر ، فكان درسا قاسيا لا رحلة هادئة .

— ٢٧ —

وفى السنة التى تليها رتبت كلية الآداب رحلة إلى العراق فى إجازة نصف السنة ، اشترك فيها بعض أساتذة الحقوق وكلية

الآداب و بعض الطلبة وعهد إلىَّ أيضاً الإشراف عليها ، وكانت الرحلة أشق وأعنف ، اجتزنا فيها الطريق الذى اجتزناه فى الرحلة السابقة إلى دمشق تقريباً ، ثم ركبنا السيارات من دمشق إلى بغداد فى نحو سبع وعشرين ساعة ، قطعنا فيها بادية الشام ، وهى بادية منبسطة فسيحة الأرجاء جدباء ليس فيها إلا قليل من الأعشاب ، سرنا فيها ليل نهار لا نستريح فى الطريق إلا قليلا لنأخذ أكوابا من الشاى أو أقداحا من القهوة ، وسير السيارات فى الليل المظلم والبرد القارس والريح العاصف مهيب مخيف ، إلى أن لاح لنا نهر الفرات فبلعنا ريقنا بعد أن جف من منظر الصحراء ، وعبرنا جسراً على نحو ما كان فى عهد الرشيد والمأمون سُفُن ضم بعضها إلى بعض ، فكانت جسراً ، ووصلنا الأنبار وتسمى الآن الفَلُّوجة ، وكم نبغ من الأنبار هذه نوابغ فى العلم والأدب يلقب كل منهم بالأنبارى ، وظللنا نسير فيما بين النهرين دجلة والفرات أكثر من ساعة فى أرض طيبة خصبة ، ولكنها مهملة مهجورة تنتظر اليد العاملة والرءوس المفكرة والأموال المدبَّرة حتى وصلنا بغداد — قارنت بين بغداد الرشيد والمأمون و بغداد العهد الحاضر ، وخصب العراق ومزارعه فى الماضى والحاضر ، فحزنت ، ولم أستطع أن أكتم حزنى فكنت

قليل الذوق فى أول حفلة أقيمت لنا عقب وصولنا ، إذ طلب منى الـكلام فتـكلمت فيما كان بين بغـداد فى القديم والحديث ، وما مررنا عليه من أرض جيدة التربة ، ولـكنها جرداء كالصحراء ، ودعوت إلى أن ينهض أهل العراق فيستغلوا كنوز الذهب فى ديارهم ، والمياه المتدفقة فى أراضيهم ، ولم أكن فى هذا الحديث لبقاً ، إذ ليس هذا الـكلام مما يصح أن يكون تحية القدوم ، ولـكن كان هذا أثراً للصدمة التى صدمنا بها عند رؤية ما بين الأنبار و بغداد ، وقد أمكننى فى خطبة أخرى فى حفل آخر أن أتدارك هذا الخطأ ، فأشيد بما فعل العراقيون من جهد جبار فى إصلاح الأحوال ، وكلا القولين حق ولـكن ما كل حق يقال .

تجولنا فى بغداد وزرنا الإمام أبا حنيفة فى مسجده بالأعظمية والإمام الـكاظم والإمام الجواد فى الـكاظمية ، والمتحف العراقى الخ ، وأنسنا بلقاء الشاعرين الـكبيرين جميل الزهاوى ومعروف الرصافى واستمعنا إلى شعرهما فيما أقيم لنا من حفلات ، وقد أكرمنا العراقيون إكراما فاق الحد ، فقلما خلت ليلة من دعوة وكنا فى رمضان ، حتى لقد دعينا ليلة واحدة إلى ثلاث دعوات اضطررنا إلى إجابتها .

وقد دعانا المرحوم الملك فيصل إلى الإفطار على مائدته ،

ووجه إلىّ السؤال الآتى : هل من مصلحة بلد كالعراق أن يكثر من التعليم العالى ، ولو أدى ذلك إلى كثرة العاطلين من المتعلمين ، أو أن يقتصر فيه على قدر ما تحتاجه الحكومة من موظفين ؟ وهذا السؤال يستتبع مسألة أخرى نتيجة للجواب ، وهى : هل ننشىء هنا مدارس عالية يكثر فيها الطلاب أو نكتفى بإرسال بعثة إلى أوروبا بقدر ما نحتاجه من غير داع إلى إنشاء مدارس عالية هنا ؟ وقد وفقنى الله فأجبت بأن مصلحة الأمة فى كثرة المتعلمين تعلماً عالياً و إنشاء المدارس العالية لهم فى البلاد نفسها ، ثم إرسال بعثة من النابغين ، وأن التعليم العالى كله خير و بركة مهما كانت النتائج . وقد علمت بعدُ أن هذين الرأيين كانا يتصارعان فى العراق ، وأتى هذا السؤال من الملك فيصل نتيجة لهذا الصراع .

ولمست فى العراق الانقسام بين الشيعة والسنية ، وقد زرت النجف وكربلاء وغيرهما ، وهى حصون الشيعة ، وصادف ذلك أيام العزاء وذكرى مقتل الإمام على بن أبى طالب ، ورأينا العامة فى كربلاء يضربون صدورهم ضرباً شديداً حتى ليدمون أجسامهم حزناً على الإمام ، ومنهم من يضربون أنفسهم بالسيوف ، ومنهم من يضربون ظهورهم بسلاسل من الحديد ، والنساء يولولن على نحو

ما كان معروفا من عمل الشيعة فى القاهرة إلى عهد قريب ، وقد أسفت لهذه المناظر وحمَّلت مسئولية ما يعمل فى هذا الباب علماء الشيعة ، وفيهم فضلاء أجلاء مسموعو الكلمة يستطيعون أن يبطلوا كل هذا بكلمة منهم ، ولكن لا أدرى لماذا لا يفعلون .

وهذا الخلاف بين السنية والشيعة فى العراق جرَّ عليه كثيراً من المصائب والمحن — وبذل جهود ضاعت فيما لا يفيد ، لو صرفت فى خير الأمة وتقدمها — بقطع النظر عن سنى وشيعى — لعادت على أهلها بالخير العميم . ولئن كانت الخصومة بين أصحاب علىّ وأصحاب معاوية معقولة فى زمنهما أو بعد زمنهما بقليل ، فلم تَعُد معقولة الآن ، إذ ليس هناك اليوم نزاع على خلافة ولا إمامة ، وإنما هو نزاع على أيهم أفضل أبو بكر وعمر أم علىّ ؟ وهذه لا يبت فيها إلا الله ، ومن السخافة أن نضيع أوقاتنا فى مثل هذا الكلام ، وكل العقلاء متفقون على أن كلاًّ من الثلاثة رجل عظيم له فضله ومزاياه ، والله وحده هو الذى يتولى مكافأتهم على أعمالهم ، ويزنهم بالميزان الصحيح ويقدرهم التقدير الحق ، وما عدا ذلك فالخلاف بين الشيعة والسنية كالخلاف بين حنفى وشافعى ومالكى لا يستدعى شيئاً من الخصومة ، ولكن أفسد الناس

ضيق العقل وعواطف العامة ومصالح بعض رجال الدين وصبغ المسائل السياسية بالصبغة الدينية .

ولما أخرجت كتاب « فجر الإسلام » كان له أثر سيء فى نفوس كثير من رجال الشيعة ، وما كنت أقدّر ذلك ، لأنى كنت أظن أن البحث العلمى التاريخى شيء ، والحياة العملية الحاضرة شيء آخر ، ولكن شيعة العراق والشام غضبوا منه وألفوا فى الرد عليه كتباً ومقالات شديدة اللهجة لم أغضب منها ، ولما لقيت شيخ الشيعة فى العراق الأستاذ آل كاشف الغطاء عاتبنى على ما كتبت عن الشيعة فى فجر الإسلام . وقال : إنى استندت فيما كتبت على كتب الخصوم ، وكان الواجب أن أستند إلى كتب القوم أنفسهم ، وقد يكون ذلك صحيحاً فى بعض المواقف ، ولكنى لما استندت على كتبهم فى « ضحى الإسلام » ونقدت بعض آرائهم نقداً عقلياً نزيهاً مستندا على كتبهم غضبوا أيضاً ، والحق أنى لا أحمل تعصباً لسنية ولا شيعة ، ولقد نقدت من مذاهب أهل السنة ما لا يقل عن نقدى لمذهب الشيعة ، وأعليت من شأن المعتزلة بعد أن وضعهم السنيون فى الدرك الأسفل إحقاقاً لما اعتقدت أنه الحق .

وقد حدث وأنا فى بغداد حادث خطير ، فقد دعينا لنشهد مجلساً من مجالس العزاء يقيمها الشيعة فى ليالى مقتل الإمام على ،

فذهبنا إلى «الحسينية» بالكرخ — ضاحية من ضواحى بغداد — فرأينا داراً واسعة احتشد فيها عدد لا يقل عن أربعة آلاف ، وقد سرى فى القوم أن وفد مصر حضر ، فازدحموا على استقباله ، وأخليت لنا ناحية جلسنا فيها ، وخطب بعض الخطباء لتهنئتنا ورد عليهم الأستاذ عبد الوهاب عزام التحية بمثلها ، ثم قام خطيب الليلة الأستاذ كاظم الكاظمى ، وهو خطيب طلق اللسان حسن التأثير فى السامعين ، فرحب بالوفد و بأحمد أمين ، ولكنه عرّج من ذلك على كتاب فجر الإسلام وما فيه من تجنّ على الشيعة وأكثر الحاضرين من عوام الشيعة الذين تؤلمهم هذه الأقوال أشد الألم ، ولا يمنعهم مانع أن ينكلوا بكل من يعتدى على عقيدتهم ، ولكن الخطيب ماهر ، إذا أحس هياج الجمهور وتحفزهم اقتبس جملة من فجر الإسلام فيها مدح للشيعة ، وهكذا ظل الرجل يلعب بعواطف الناس بين مدّ وجزر وتهييج على وتهدئة ، فلما طال هذا وخشى بعض الحاضرين سوء العاقبة نصحنا ناصح أن ننسل من باب خلفى ففعلنا ونجونا بأنفسنا — وقد علمنا أن الأمر بلغ الملك فيصل ، فغضب على الخطيب وشاء أن يعاقبه ، ولكنا طلبنا من ناقل الخبر إلينا أن يرجوه ألاّ يفعل ، فقد انتهى الأمر بسلام .

وكان يوماً أيوم ، يوم «سرمن رأى» وقد شاء الله أن تكون «سِيء من رأى» . ذلك أننا اعتزمنا زيارة سامرّا ، وقد قيل لنا إن المسافة بين بغداد «وسامرّا» نحو ساعتين ، فقدرنا أن نزورها ثم نعود ونتناول الإفطار على مائدة قنصل مصر فى العراق ، ولكن ساء سير السيارات فلم نصلها إلا قبيل الغروب ، وأبرقنا إلى قنصل مصر أن يجعل إفطارنا سحوراً ، ومررنا فى الطريق على قنوات معطلة ، وأرض زراعية فسيحة مخرّبة ، وآثار عمران عظيمة مهدمة ، وعبرنا نهر دجلة إلى «سامرّا» ورأيناها وأطلالها القديمة ، وشاهدنا جامع المعتصم فيها ، وقد بنى على نمطه جامع ابن طولون بمصر وخاصة منارته ، وشاهدنا بعض آثارها الباقية ، فلما حاولنا الرجوع وقد أظلم الليل ، قيل لنا إن ذلك مستحيل ، لأن الطريق غير مأمون ، فألححنا على رئيس البلدية فقبل وأرسل معنا سيارة مسلحة تخفرنا ، وكنا كلما سرنا مسافة ارتطمت سيارة فى الوحل فتُعَطِّلُنا حتى ننقذها ونصلحها ، وسمعنا فى الطريق أن لصوصاً قد سطوا على قوم يمرون أمامنا ، فداخلنا الرعب ، ووصل الخبر إلى بغداد بأن السطو حدث علينا نحن فى الطريق ، فخرج مدير شرطة بغداد ببعض الجنود لاستطلاع الخبر وإنجادنا فلقيناهم فى الطريق ، ولم نصل إلى بغداد إلا بعد الفجر ، وفاتنا

الفطور والسحور ، وكان يوماً خالدَ الذكر فى حياتنا لا ننساه ، لما رأينا من بلواه .

ويوماً قررنا السفر إلى الموصل ووصلنا بالقطار إلى كَرْكُوك وبتنا فيها ورأينا منابع البترول وكيف تحفر الآبار ، وعاقنا المطر الغزير عن متابعة السير إلى الموصل فعدنا من كركوك إلى بغداد وودعنا أهلها ، وأخذنا طريقنا إلى تدمر فجسنا خلالها ورأينا قبورها وآثارها ، ووقفنا على أطلالها ، ولفت أنظارنا جمال أهلها ، وذكرنا الزَّبَّاء وما قال العرب والإفرنج عنها ، وبتنا فيها ليلة ، ثم قفلنا إلى دمشق ومنها إلى بيروت مخترقين جبال لبنان العالية وحولنا الثلج وعدنا إلى مصر سالمين . وقد انطبعت فى نفوسنا صور شتى من صور العالم العربى — فلسطين وسوريا والعراق ولبنان — كلها بلاد تتقارب فى الحياة الاجتماعيـة وتقف على درجات من سلم واحد ، فكلها تتوزع مزايا الشرق وعيوبه . هـذه مصر تتقدم الجميع فى مظاهر المدنية والحضارة والثروة ، وهذا لبنان يمتاز بجد أهله ونشاطهم ونظافتهم وتقدم المرأة عندهم ، وهـذه الشام تمتاز بالنشاط والنجاح التجارى الذى عرف فيهم من عهد الآراميين ، وهذا العراق يشعر بثقل الدَّيْنِ القديم ، فينهض أهله ، وخاصة شبانه بتأسيس نهضة جديدة تستغل فيها موارد البلاد وتتخذ

بعد ذلك أساساً للنهضة العلمية والاقتصادية ، وكل البلاد معيبة بالبطء الحكومى فى تصريف الشئون ، وضعف الابتكار ، والحاجة إلى الأجنبى النزيه فى رسم الخطط للإصلاح الاقتصادى والاجتماعى ، وكلها معيبة فى نظام الحكم وعدم رعاية حقوق الشعب ، وقلة شعور الشعب بحقوقه وواجباته و إن اختلفت درجاتها فى ذلك ، ولكل أمة من هؤلاء مشاكلها . فمشكلة لبنان انقسام أهله إلى مسلمين ومسيحيين ، واختلاف نزعاتهم بين ميل إلى فرنسا وكره لها ، ومشكلة القدس الخلاف بين زعمائه وأحزابه على الغلبة والرياسة ، مع أن الصهيونية تنخر فى عظامهم ، ومشكلة العراق تقسم أهله بين سنية وشيعة و بدو وحضر ، وهكذا . رأيت كل هذه المناظر واختزنتها فى نفسى وأثرت فى تفكيرى .

وسافرت إلى الحجاز للحج سنة ١٩٣٧ مع بعثة الجامعة المصرية ، ولا أطيل فى وصف الطريق والمراحل التى يقطعها الحاج ، فقد ذكرت كثيراً قبلى ، وكل ما أريد ذكره أن عادة الحجاج أن يغمرهم الشعور الدينى ، فلا يشعروا بما تحملوا من متاعب ، ولا بما صادفوا فى الطريق من عقبات ، ولا ما شاهدوا من فوضى وعدم نظام ونحو ذلك ، أو يشعرون بها ولكن يحملهم الورع الدينى ألا يفوهوا بها ، ولا ينطقوا إلا بما

رأوا من محاسن . أما أنا فقد غمرنى أيضاً الشعور الدينى ، وكان فى الحج مواقف اهتز لها قلبى ودمعت لها عينى ، وأروعها — على ما أذكر — مشاهدة الكعبة وطوافى وطواف الناس حولها ، ثم وقوفى بعرفات ، وعشرات الآلاف من الحجاج يلبسون لباساً أبيض بسيطاً كأنهم تجردوا من الدنيا ونعيمها وطرحوا زخارفها ، ووجهوا قلوبهم كلها إلى خالقهم يبتهلون إليه أن يغفر لهم ما تقدم من ذنبهم ، وأن يعينهم على حياة جديدة ملؤها الطاعة والتقوى ، ثم زيارتى للحرم المدنى فى المدينة ووقوفى أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، أستحضر تاريخه ومواقفه وعظمته ، فكل هذه المواقف كانت جميلة حقاً رائعة حقاً .

ومع ذلك فكان عقلى مفتحاً أيضاً لرؤية المتاعب ومنشئها وإدارة الحج وتقدير إحسانها أو إساءتها ، وتدوين ذلك فى مذكرتى ؛ فهذا الزحام يشتد فى أيام الحج وتضطرب حركة السير ، وخاصة عند نزول الناس من عرفات إلى منًى ، وفى الإمكان تنظيمه وترتيبه بشىء من العناية . وهناك قلة الماء فى منًى وصعوبة الحصول عليه ، وفى الإمكان ترتيب ذلك . وهناك عدم العناية بالنظافة حول الحرم المكى والمدنى وفى المساكن والشوارع . وهناك سوء الطريق بين جدة والمدينة ، إلى كثير

من أمثال ذلك ، أَلِمْتُ لها ، وفكرت فى وجوه الخلاص منها ، وأيقنت أن إدارة الحجاز بمعاونة العالم الإسلامى لها تستطيع بجهد قليل أو كثير أن تتلافى هذه العيوب وتريح الحجاج مما يلحقهم من أذى قد يصرفهم فى كثير من الأحيان عما حجوا لأجله ، من فراغ للعبادة واتصال بالله .

ورأيت من واجب الخاصة أن يدرسوا ما رأوا ويفكروا فى العلاج ويقترحوا سبل الخلاص من الأدواء ويرفعوا صوتهم بها ، فذلك خير من السكوت عليها . من أجل هذا كتبت تقريرا عن كل ما رأيت من داء وما أصف من علاج ، ولم أبخس فيه الإدارة الحجازية فضلها فى بسط الأمن ونشر الطمأنينة بين الحجاج على أنفسهم وأموالهم ؛ ورفعت نسخة من هذا التقرير إلى وزارة الخارجية المصرية والجامعة ، وتحدثت بخلاصة ذلك فى الإذاعة المصرية ، فكلمنى المرحوم طلعت باشا حرب بأنه يريد منى أن أقابله ففعلت ، وكان من رأيه ألا أثير هذه المسائل الشائكة ، ولا أذكر هذه المعايب والمتاعب ، لأنها تصرف كثيراً ممن يريدون الحج عنه ، وتسىء إلى الإدارة الحجازية من غير داع ، فشرحت له وجهة نظرى فى أن الإعلان عن هذه العيوب يدعو إلى إصلاحها ، وما دمنا ساكتين فلا أمل فى الإصلاح ؛ وأخيراً

تقاربت وجهة نظرنا واتفقنا على أن أكتب تقريراً مفصلا لا أذيعه فى محطة الإذاعة ، ولا أنشره فى الجرائد ، ولكن أقدمه إليه وهو يرفعه إلى الإدارة الحجازية ويعمل ما وسعه فى التفاهم معها ، ومع الحكومة المصرية على بذل الجهد فى الإصلاح .

(٢٨)

أتيحت لى فرصة أخرى سنة ١٩٣٢ لأرى الغرب كما رأيت الشرق ، وأرى المدنية الحديثة كما رأيت مدنية القرون الوسطى ، وأرى من يسمّونهم المتقدمين كما رأيت من يسمونهم المتأخرين ، فيكون لى بدل العين عينان وبدل المنظر الواحد منظران ، فاختِرْت عضواً فى مؤتمر المستشرقين الذى ينعقد فى ليدن بهولنده ، وقررت السفر قبل الموعد بنحو شهرين ، حتى أزور ما أمكنَت زيارته من مدن أوربية ، فركبت البحر إلى مرسيليا مع صديقى الدكتور عبدالرزاق السنهورى — وقد خبر فرنسا خبرة طويلة ودقيقة وعرف أهلها وبلادها إذ أقام فيها سنين يدرس القانون — وزرنا مرسيليا وتجولنا فيها وخرجنا إلى ضواحيها ، ثم سافرنا إلى ليون ونزلناها وأقمنا فيها ثلاثة أيام رأينا فيها معالمها وجامعاتها وخرجنا إلى ريفها ، ثم سافرنا إلى باريس وأقمت فيها نحو عشرة أيام ، وقد وضع لى صديقى برنامجاً دقيقاً طويلا رتبه بإمعان وبعد طول تفكير ، ليرينى

أهمَّ مافى باريس من جد ولهو وعلوم وفنون وأبنية ضخمة وآثار رائعة ، ويرينى المدينــة والريف والعاصمة والضواحى ، فكان برنامجاً شاقا صعباً ، كل يوم رؤية صباحاً ورؤية مساء ، ولم يسمح لى أن أستريح ولو قليلا ، ولا أن أتذوق ما أرى ، وأنا رجل بطىء الحركة أحب أن أتحرك على مهل وأتذوق على مهل وأستطعم ما آكل ، وأحب أن أتغدى ثم أغفو قليلا بعد الغداء ، فلم يمكنى من شىء من ذلك ؛ فيوما يرينى ميدان الباستيل وشوارع باريس الكبيرة وكنيسه مادلين وميدان الكونكور ومنتزه الشانزلزيه ، وفى المساء نذهب لمشاهدة رواية فى الأوبرا ؛ ويوماً نرى برج إيفل ونصعد إليه ، ونستمع للدليل يشرح لنا الغرض منه وكيفية تأسيسه ، ونزور الجامعات و بعض المدارس ، و يوماً نزور غابة بولونيا وقصر فرساى وقاعاته ومتحفه ، ويوماً نزور معامل سيفر المشهورة بعمل الصينى ، ويوماً نزور اللوفر ومتاحفه ، ونخرج إلى حديقة لوكسمبورج وسرايها وكنيسة نوتردام ، ويوماً نزور مونمارتر وملاهيه والمكتبة الأهلية و إلقاء نظرة عامة على ما فيها ، ويوماً نزور سوق باريس فى الصباح المبكر لنرى منظراً غريباً فى البيع والشراء ، ويوما نخرج إلى ضاحية بعيدة من ضواحى باريس نرى فيها ريف فرنسا وجماله ، ويدعونا بعض أصدقاء الدكتور لنرى

بيوتهم وعائلاتهم ونتعشى معهم الخ ... الخ ... كل ذلك فى عشرة أيام كنت فيها متحركا لا أسكن ، ونشيطاً لا أخمد ، ومجهداً لا أستريح إلا وقت النوم فى أوتيل فوايّو .

وأذكر مرة أننا نفذنا برنامجنا الصباحى ثم تغدينا فى مطعم وجلسنا بعد الغداء نشرب القهوة لنستعد لتنفيذ برنامج بعد الظهر ، ولكن السماء أمطرت فى غزارة ، وأحسست حاجتى الشديدة إلى الاستقرار بعد الغداء فلم يسمح لى ، وأبى إلا أن يطبق البرنامج بكل دقة ، فكنا نمشى فى المطر الشديد لنصل إلى حيث نريد طبقاً للبرنامج ، وقد أتخمت من هذه الأيام العشرة بالمعلومات والمناظر والمعارض والأحداث حتى لكأننى أشاهد رواية سينمائية دام شريطها عشرة أيام . واحتجت إلى سنين بعدها أهضم ما أتخمت به ، ثم ودعت صديقى ذاهباً إلى إنجلترا .

وأبرقُ إلى صديق لى يُعد لى مسكناً فى لندن ويستقبلنى فى محطتها . ويصل القطار إلى كاليه ، وأعبر بحر المانش إلى دوفر ، وأركب القطار إلى لندن فيستقبلنى صديقى ويرينى مسكنى فيها : حجرة واسعة لطيفة فيها سرير ، مفروشة فرشاً بسيطاً لطيفاً فى بيت من بيوت الطبقة الوسطى وفى حى كذلك ، وتعد صاحبته ما أحتاجه من فطور وعشاء ، أما الغداء ففى المطعم ، وأتعرف فى

المنزل بفتاة إنجليزية من أصل ألمانى سألتها أن تصحبنى فى الخروج إلى معالم لندن ومشاهدها فقبلت ، فزرنا المتحف البريطانى ، واستعرضت فيه بعض المخطوطات ، ودار بلدية لندن « جولد هول » وبنك انجلترا وبرلمانها ، ومسلة كليوبترة ، وجريدة التيمس وميدان الطرف الأغر وتمثال نلسن وكنيسة « وستمنتسر أبى » وجامعة لندن وقصر سنت جيمس وحديقة هايد بارك والمتحف الحربى . . . الخ . وكنت فى لندن أشعر ببعض الحرية وبعض الاستقلال ، لمعرفتى اللغة الإنجليزية وقدرتى على التفاهم بها . عكس ما كنت فى فرنسا ، إذ كنت عالة على صديق لا أكاد أستطيع الحركة إلا معه ، فإذا تخلى عنى لم يكن أمامى إلا الجلوس فى قهوة ، أو السير فى شارع من شوارعها الفسيحة كما يسير الأصم الأبكم ؛ والمسافر من فرنسا إلى إنجلترا يشعر بالفرق الكبير ، حين يطأ أول أرض إنجليزية ؛ فمن ساعة أن يتلقاه الحمالون الإنجليز ليحملوا أمتعته ويوصلوه إلى القطار يشعر بالهدوء التام والنظام الشامل وسير الأعمال فيها كأنها آلة دقيقة منظمة كل جزء منها منسجم مع ما حوله .

وأحببت أن أزور الريف الإنجليزى فرتب صديقاى الأستاذ حافظ وهبه وزير المملكة السعودية فى لندن والمرحوم

الأستاذ أمين جمال الدين مدير البعثات فى لندن رحلة إلى ويلز فى عربة الأستاذ حافظ يسوقها الأستاذ جمال الدين ، فكانت رحلة ممتعة عرفنا فيها الريف الإنجليزى ، وكنا نسير على مهل ، فإذا جاء وقت الغداء تغدينا فى مطعم فى الطريق ، وإذا جاء المساء بحثنا عن بيت فى الريف لقروى يضيفنا ، وما زلنا فى رحلتنا حتى وصلنا إلى كارنارفون فأقمنا فيها أياماً .

وأقمت فى إنجلترا نحو أربعين يوماً ، اهتممت فيها أن أرى أكثر ما يمكن أن أرى ، وأتعرف من أحوالها الاجتماعية بقدر ما أستطيع ، ولكن شيئاً واحداً أسفت له أشد الأسف ، وهو أنى كنت حضّرت بحثى الذى اعتزمت إلقاءه فى مؤتمر المستشرقين باللغة العربية ، وقد قيل لى بعدُ إنَّ لغة الإلقاء لا بد أن تكون بالإنجليزية أو الفرنسية ، فشغلت نفسى وأنا فى لندن بالاستعانة بمترجم إلى الانجليزية ، وبكتابة ذلك على الآلة الكاتبة ، فاستغرق منى ذلك مجهوداً كبيراً وأضاع علىّ زمناً كان يجب أن أصرفه فى معرفة الحياة الانجليزية فى نواحيها المختلفة . والاستمتاع بمناظرها ومباهجها . وأخيراً سافرت إلى ليْدن بهولنده حيث ينعقد المؤتمر .

رأينا لَيْدن وكأنها دير كبير يتعبد فيه رجال العلم ، تموج بالعلماء والمكاتب وفيها مطبعة بريل الشهيرة التى كان لها

الفضل الكبير فى طبع كثير من الكتب العربية ، وكنا قد كتبنا إلى سكرتارية المؤتمر بحجز أمكنة لنا ، فلما رأيناها لم تعجبنا كثيراً لأنها كانت أشبه بمساكن الطلبة ، ففضلنا أن نسكن فى لاهاى وننتقل كل يوم إلى ليدن .

وانعقد المؤتمر واستمعنا فيه إلى أبحاث المستشرقين فى الإسلاميات والأدب العربى والهنديات والصينيات وما إلى ذلك ، وجاء يوم بحثى ، وكان موضوعه « نشأة المعتزلة » وكان يوماً عسيراً ، فلم أعتد فى حياتى أن أخطب أو أحاضر باللغة الإنجليزية ، وقد كنت وجهت أكبر اهتمامى عند تعلمى لها إلى الإجادة فى فهم ما أقرأ من كتب والترجمة منها إلى العربية ، لا فى الكتابة بالانجليزية ولا بانطلاق اللسان فى الحديث بها ، وكان رئيس اليوم الذى ألقيت فيه محاضرتى هو الأستاذ مرجوليوث ، وقد استأذنته فى إلقاء المحاضرة باللغة العربية فأبى ، وقال إن أكثر المستمعين لا يفهمون العربية إلا قليلاً ، وخير أن تلقيها بالانجليزية . فألقيتها فى خجل ، لا من الموضوع ولا مما كتبت ، ولكن لأنها أول تجربة لى من هذا النوع ، وما انتهيت من إلقائها حتى بلعت ريقى وتنفست الصعداء . ورجعت من هولنده إلى فرنسا وأقمت أياماً أخرى فى باريس واستقبلنى فيها صديق آخر لم يكن عنيفاً كالصديق الأول ، بل كان رفيقاً بى ، وأرانى ما لم أكن

رأيت ، واستمتعت فيها بالراحة والهدوء والأحلام أكثر مما كنت استمتعت . وأخذت السفينة من مرسيليا إلى مصر فانكسرت فى الطريق واضطرت أن تعرِّج على إيطاليا ، واستغرق إصلاحها أياماً ، فانتهزت هذه الفرصة لزيارة المدن الإيطالية القريبة كميلانو وجنوه فشاهدت كنائسها الضخمة وأبنيتها الفخمة وفنها البديع ، ثم عدت إلى مصر بعد أن شاهدت معالم المدنية الحديثة ووقفت على بعض أسرار تقدم هذه الأمم ، وكنت فى أكثر ما أرى يشتغل ذهنى فى المقارنة بين الشرق والغرب — أذكر ذلك إذا رأيت الآلات والمصانع وتقدمها ، والشوارع والبيوت ونظافتها ، والناس ونظامهم ، والمرأة وأهمية مركزها فى الحياة الاجتماعية ، حتى لو نسب الفضل الأكبر فى المدنية الحديثة لكان أكثره يرجع إلى المرأة ، فهى التى تربى الأمة وهى التى تعوّد أبناءها النظام والأخلاق ، وعلى الجملة فهى من وراء كل مظهر من مظاهر المدنية ، حتى لو قلت إن مقياس رقى الأمم التى شاهدتها هو درجة المرأة فى الرقى لم أكن بعيداً عن الصواب ؛ أعجبنى فى فرنسا ذكاء أهلها ونشاطهم وكثرة حركتهم ، وأعجبنى فى نجلترا نظامهم وتعقلهم وضبط عواطفهم وهدوؤهم فى أعمالهم ، وأعجبنى فى هولندة نظافتهم ونجاحهم فى الحياة وجدهم وعلمهم ، وأعجبنى من إيطاليا فنهم .

وعلى الجملة فلا أستطيع أن أحصر ما استفدت من هذه الرحلة ، فقد اختزنت منها كثيراً ، وفى كل مناسبة كنت أستخرج من هذا المخزن ما أستفيد منه مما لم يكن يخطر لى على بال ، وأهمّ ما استفدته هو تمكنى من المقارنة بين الشرق والغرب ، فقد كانت رحلتى إلى الغرب معادلة لرحلتى إلى الشرق ، فكنت دائماً أنظر إلى هذا نظرة و إلى ذاك نظرة ، وأستخرج الحكم بعد المقارنة . وكنت قبل ذلك لا أرى إلا لوناً واحداً ، ولا أسمع إلا صوتاً واحداً .

وأتممت الاستفادة من هذه الرحلة برحلة أخرى إلى أوروبة نفسها سنة ١٩٣٨ ، فقد اختارونى أيضاً عضواً فى مؤتمر المستشرقين فى بروكسل ، وزرت إيطاليا وفرنسا مرة أخرى ، واستعدت ذكرياتٍ ماضية ، وأردت أن أستفيد جديداً فذهبت إلى سويسرة وأقمتُ فيها أياماً فنزلت فى مدينة لوسرن ، وركبت بحيرتها واستمتعت فيها بجمال مناظرها الطبيعية الباهرة .

ويوماً ركبت بحيرة لوسرن مع صديقى الدكتور عبد الوهّاب عزام ، فأعجبنا منظر قرية على البحيرة اسمها كيرسيتن ، نزلناها وتجولنا فيها وصعدنا فى مِرْقاتها إلى أعلاها فوجدنا فندقها وبيوتها ، فطفناها وتوغلنا فيها ، فرأينا غابات جميلة ورأينا فى مدخل إحدى الغابات بيتاً صغيراً لطيفاً ، زرعت أمامه

أشجار التفاح ، فسألنا أصحابه : هل يقبلوننا نزلاء فيه ؟ فقبلوا ، ونقلنا أمتعتنا من فندق لوسرن إلى هناك — وأقمنا فيه أياماً ننعم بمنظر الغابات ومنظر الجبال المزروعة ، والأبقار ترعى فى الحقول وكل بقرة تحمل جرساً يناسب حجمها ، فتتكون من أصوات هذه الأجراس موسيقى جميلة تأخذ بلب السامع فى هذا الفضاء الواسع والسكون الشامل ، ونرى بيت هذه الأبقار فنتمنى لو تيسر مثل هذه البيوت لفلاحينا فى مصر : نظيفة جميلة أضيئت بالكهرباء وفرشت بألواح الخشب ، وحدد لكل بقرة منامها ومجرى ما يخرج منها ، فلا ترى فى بيوتها إلا نظافة وأناقة . وكنا فى أغسطس ، وكان الجو بارداً كصميم الشتاء فى مصر . وخرجنا من سويسرة بعد أن امتلأنا روعة من جمالها وصحة ونشاطاً من طيب هوائها ، واتجهنا إلى بروكسل حيث المؤتمر . وقد تعلمت من الدرس الماضى فى لندن فآليت ألا أحاضر إلا باللغة العربية ، وكان من حظى أن أكثر المستمعين يجيدونها ، وكان موضوع محاضرتى « أبو حيان التوحيدى وكتابه الإمتاع والمؤانسة » وقد تحدثت وأنا مالى يدى من موضوعى ومن لغتى فنجحت ، وحدثت لى حادثة طريفة فى بروكسل ، فقد ذهبت إلى حلاق لا يعرف كلمة انجليزية وأنا لا أعرف كلمة فرنسية فكان كلما حدثنى

بالفرنسـية قلت له Yes ، وإذا حدثته بالإنجليزية قال لى Oui وأنا لا أفهم ما يقول ، وهو لا يفهم ما أقول ، حتى رأيت آخر الأمر رأسى وليس بها إلا شعر خفيف جداً قصير جداً والدنيا برد ، وأنا مضطر عند دخولى قاعة المؤتمر أن أخلع قبعتى ، فلا أجد بها شعرا يقاوم برداً ولا يجمّل منظراً ، وقصصت القصة على زميلىَّ الدكتور طه حسين والدكتور عبد الوهاب عزام فضحكا وأغرقا فى الضحك ، وقال الدكتور طه : إنى سأضع رواية أسميها «حلاق بروكسل» على وزن «حلاق اشبيلية» ونظم الدكتور عزام قصيدة أذكر منها :

ونظر الأستاذ فى (المرايه)　　　فلم يجد فى رأسه (شعرايه)

ورأيت فى هذه الرحلة الناس فى بلجيكا وفرنسا وقد عراهم الذعر مما يرونه من طوالع الحرب، وكثرة الحديث عنها وكثرة الاستعداد لها . حتى لقد أسرعنا فى العودة خوف أن تقفل الطريق أمامنا .

ولئن كانت الرحلة الأولى قد أطلعتنى على جوانب من لمدنية الغربية ، فهذه الرحلة قد نمتها وثبتتها .

(٢٩)

أعود بعد الرحلات إلى وصف حياتى العامة والخاصة ، فقد رقيت فى كلية الآداب من مدرس إلى أستاذ مساعد ، فأمكننى بذلك أن أكون عضواً فى مجلس إدارة الكلية ، أتصل فيه بالأساتذة المصريين والفرنسيين والإنجليز ، وأرى فى كل جلسة كيف تعرض الأمور وكيف ينظر إليها وكيف تدخل النزعات والأغراض فى تكوين الآراء . لقد تعلمت أن المنطق آخر أدوات الحكم على الأشياء ، وأن النزعات والأغراض والبواعث هى التى تتحكم فى المنطق لا التى يحكمها المنطق ، فليس المنطق ما عرفنا تعريفه ، من أنه آلة تعصم الذهن عن الخطأ فى الحكم ، ولكن هو القدرة على تبرير البواعث والنزعات والأغراض لتتخذ شكلا معقولا ، وكان المجلس كبرج بابل يتكلم متكلم بالعربية وآخر بالفرنسية وثالث بالإنجليزية ، وإذا حزب الأمر ترجمت كل لغة إلى الأخريين ، وأحياناً فى الأمور العامة تلعب السياسة لعبها من وراء ستار ، فالفرنسيون مثلا يريدون أن يسيطروا على قسم الفلسفة ، والإنجليز يريدون أن يتدخلوا فيه وأن يسيطروا على الكلية بواسطة عميدها ، وأكبر ما يتجلى هذا عند خلو كرسى من كراسى الأساتذة أو عند خلو مكان العميد .

وقد صاحبت التطور الذى حدث ، من تحوّل عدد الأساتذة المصريين من قلة إلى كثرة ، ومن قلة ما بأيديهم من توجيهات إلى أن ملكوا زمام الأمور فى الكلية بتعيين عميد مصرى لها ، وعاصرت الصراع الشديد بين محاولة الحكومة التدخل فى شأن الجامعة أحياناً ، ومحاولة الجامعة المحافظة على استقلالها ، وأكبر حادثة من هذا القبيل هى حادثة نقل الدكتور طه حسين من كلية الآداب إلى وظيفة فى وزارة المعارف من غير أخذ رأى الكلية ولا إدارة الجامعة واستقالة الدكتور طه و إضراب الطلبة عن الدروس ، وانقسام الأساتذة إلى قسمين قسم مسالم وقسم مناهض وكنت إذ ذاك من المناهضين ، وأوذيت فى ذلك كثيراً حتى فكر فى نقلى من الجامعة .

وحدث — وأنا أستاذ مساعد — أن منعت من أن أكون أستاذاً لعدم حصولى على الدكتوراه أنا وبعض زملائى ، و إن كان القانون يسمح أن يُرَقَّى الأستاذ المساعد فى اللغة العربية بكلية الآداب والشريعة الإسلامية بكلية الحقوق إلى أستاذ من غير دكتوراه ، فواجهت المسألة بروح رياضية ، وقدَّمت طلباً لنيل الدكتوراه بالدخول فى الامتحان ، على النظام الذى يتبع مع الطلبة فى الحصول عليها ، وقدَّمت لذلك كتاب فجر الإسلام وضحى الإسلام كرسالة للمناقشة ، واعترض إذ ذاك بأن الأساتذة بالكلية قد يحابوننى

لأننى أحدهم ، فاقترحت أن يكون أكثر الممتحنين من الأساتذة الأجانب المستشرقين ، فصمم وزير المعارف إذ ذاك على رفض هذا الطلب ، وكان هذا أيضاً تدخلاً فى شئون الجامعة لامبرر له ، فلم يتم امتحانى .

وشعر بعض إخوانى من أساتذة الجامعة وأعضاء لجنة التأليف بعدم عدالة هذا التصرف ، فأقاموا حفلة تكريم لى ، وكان ذلك سنة ١٩٣٥ ، وانتهزوا فرصة مرور عشرين سنة على لجنة التأليف والترجمة والنشر ورياستى لها طوال هذه المدة ، فسألتهم العدول فلم يقبلوا ، وسألتهم أن تكون الحفلة صامتة فلم يقبلوا أيضاً ، وأقاموا بالفعل حفلة ضخمة دعوا إليها أعضاء لجنة التأليف وكبار رجال المعارف وكبار رجال السياسة من مختلف الأحزاب ، وأقاموها فى « سنت جيمس » وقسموها إلى موائد ، وعلى كل مائدة رئيس من علية القوم ، فمائدة يرأسها مدير الجامعة أحمد لطفى السيد باشا ، وأخرى أحمد ماهر باشا ، وثالثة الدكتور على باشا إبراهيم ، ورابعة إبراهيم بك الهلباوى ، وخامسة عبد العزيز باشا فهمى ، وسادسة الشيخ محمد مصطفى المراغى ...الخ ، وخطب فى الحفل الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وأحمد لطفى السيد باشا ، والمستشرق الكبير نللينو ، وقد افتتح خطبته بقوله « إن عند

الرومانيين قولة مشهورة : أنه يحق لكل إنسان أن يجن مرة ، وأريد أن أجن هذه المرة فأخطبكم باللغة العربية » كما كان من الخطباء الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور عبد السلام الكردانى والأستاذ محمد كرد على ، ورددت عليهم آخر الأمر خجولاً متواضعاً شاكراً . ومما قاله الدكتور على باشا إبراهيم فى هذه الحفلة إنه لو استطاع أحد أن ينظم مثل هذا الاحتفال ويجمع رؤساء الأحزاب السياسية ، كما جمعوا فى هذا الحفل ، ويؤلف بينهم فى موضوعات الخلاف كما ألف بينهم اليوم لكان هذا نجاحاً سياسياً باهراً . وقد أثرت هذه الحفلة فى نفسى أكبر الأثر ، واغتبطت بها أكبر الاغتباط ، وعددتها مكافأة أكبر من نجاحى فى الدكتوراه .

ولكن لا يصفو الزمان حتى يكدر ولا يُحسن حتى يسىء ، فعقب هذا الحفل بأيام شعرت بخمود شديد فى جسمى ، وانقباض فى صدرى ، فعرضت نفسى على الطبيب فقرر أنى أصبت بالبول السكرى ، وألزمنى الصوم عن الأكل إلا السوائل أياماً ، ثم السير بعد ذلك على نظام فى الأكل دقيق تتجنب فيه النشويات والسكريات ، ومن ذلك الحين دخلت فى حياتى حقن الأنسولين ، وقد صحبنى هذا المرض — إلى الآن — خمس عشرة سنة ، أحاوره

ويحاورنى ، ويصادقنى أحياناً ويعادينى ، وأمتنع من أجله عما أشتهى ، وأتجنب الجهد الشاق على غير رغبتى ، وأحياناً يرمينى بالأفكار الحزينة وألوان الحياة القاتمة ، وأحمد الله إذ لم يكن من الشدة كما هو عند غيرى .

وبعد ذلك أُريدَ أن يمنح غيرى الأستاذية من غير دكتوراه ، وأحرم أنا لمواقفى السابقة فى المحافظة على استقلال الجامعة ، فطلبت أن تؤلف لجنة لبحث مؤلفاتى ، فاختيرت لذلك لجنة من الأستاذين المستشرقين الدكتور شاده والأستاذ برجستراسر ، فقرأا فجر الإسلام وضحاه ، وقدما تقريراً باستحقاقى الأستاذية على هذين الكتابين ، وقالا : إن عيبى الوحيد فى تأليف هذين الكتابين هو أن هناك بحوثاً فى بعض موضوعات الكتابين عرض لها بعض الأساتذة الألمان ، ولو اطلع عليها المؤلف لبنى عليها ولم يتعب نفسه فى بحث أساسها ؛ ولكن وزارة المعارف أخفت هذا التقرير لأنه مخالف لما كانت تأمل ، فطلبتُ من العميد أن يطلب التقرير من الوزارة ، فماطلت ، ثم بعثته وعطلت أثره فى مجلس الجامعة ، ولم أحصل على الأستاذية إلا بعد عناء وبعد أن هدأت النفوس وبعد أن قدمت استقالتى لأنى لم أعامل معاملة زملائى .

ووقع علىَّ الاختيار لأكون ممثلا لكلية الآداب فى مجلس

الجامعة ، فاستمررت على ذلك نحو عشر سنين ، وقد مهد لى ذلك السبيل إلى سعة اختبارى وكثرة تجاربى ؛ فمجلس الجامعة يتكون من عمداء الكليات و بعض كبار الأساتذة من كل كلية ومن وكيل وزارة المالية ووكيل وزارة المعارف و بعض كبار البلد يعينون لخبرتهم العلمية . من رؤساء الوزارة أو وزراء سابقين ، أو نحو ذلك ، فكان هذا المجلس يمثل أعقل مجلس بمصر ، شاهدت فيه العقليات المصرية الكبيرة كيف تتصرف فى الأمور ، وكيف تتكوَّن لديها الآراء ، والعوامل التى تعمل فى اتجاهاتها وتكوينها ، وكيف يتناقشون وكيف يحتجون . والحق أنه كان يستولى علىَّ الوهم أن الرجل إذا كان ذا منصب كبير فى الماضى أو الحاضر فذلك عنوان عبقريته ودليل نبوغه ، وأن له من الآراء ما يفوق كل رأى ، ومن الأفكار ما يتضاءل أمامها كل فكر ، فزال هذا الوهم بهذا المجلس ، ورأيت هؤلاء الكبراء يفكرون كما يفكر الناس و يخطئون كما يخطئ الناس ، وتتغلب عليهم الأهواء — أحياناً — كما تتغلب على سائر الناس .

وكان من تجاربى أن رأيت أكثر الناس يسيرون مع العظماء فى آرائهم وأفكارهم ولو اعتقدوا بطلانها . ولكن إذا تشجع أحد ودافع عن الحق وجهر به وصمم عليه تبعه هؤلاء

وانضموا إلى جانبه ضد العظماء ، فليس عندهم من الشجاعة ما يبدأون به قول الحق ، ولكن ليس عندهم أيضاً من السفالة ما يناهضون به قائل الحق .

ولقد شعرت فى هذا المجلس بفضل « عاطف بركات » وما علمنيه من قول الحق ولو كان مراً ، والانتصار له ولو أوذيت فى سبيله . وحدثت حادثة فى أول انتخابى لمجلس الجامعة كانت محك الاختبار ، فإما سير مع التيار حقاً كان أو باطلاً ، وإما التزام للحق مهما استتبع من الضرر ، وصدق الحديث : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » . فقد أعلن عن كرسى لأستاذ القانون الرومانى فى كلية الحقوق ، فتقدم إليه بعض العلماء أفضلهم أستاذ إيطالى وأستاذ فرنسى . قرأنا المؤهلات ففضلنا الأستاذ الإيطالى لعظم مؤلفاته العالميـة فى الموضوع ، وفضلت وزارة المعارف أو بعبارة أدق — وزير المعارف — الأستاذ الفرنسى لاعتبارات نجهلها ، ولم يكن معنا وزير المعارف ، ولكن كان وكيله عضواً فى المجلس يتكلم برأيه ويدافع بفصاحة وقوة عن اتجاهه . فوقفت مع اثنين من زملائى بجانب الأستاذ الإيطالى ، وشغل الموضوع مجلس الجامعة عدة جلسات ، كلما أفحمناهم بالحجج أجلوا الموضوع لإعداد حجج أخرى ، وأخيراً بعث إلىّ وزير المعارف فقابلته

وكلمنى فى موضوع آخر ليس هو الغرض من الدعوة ، فلما استأذنت فى الانصراف قال : إنه بلغه أنى أعارض أشد المعارضة فى تعيين الأستاذ الفرنسى ، وأن هناك اعتبارات تجعله أليق وأنسب ، فقلت أظن أن معالى الوزير يسره أن يرى رجاله يدافعون عما يعتقدون أنه الحق ، وأنهم يتحدثون بما فى ضمائرهم وكما يتجلى الحق أمام أعينهم . وسلمت عليه وانصرفت ، وأخيراً تقرر فى مجلس الجامعة تعيين الأستاذ الإيطالى ، فكان هذا نجاحاً باهراً شجعنى على المضىّ فى هذا الطريق ، وأُشهد الله أنى التزمته فى كل ما عرض ، وأنى اتخذت المسائل المعروضة كالقضايا التى كانت تعرض علىّ إذ كنت قاضياً ، أنظر إليها وأدرسها وأسمع حجج المتخاصمين فيها ، وأحكم حكماً موضوعياً لا شأن فيه لعواطفى ومشاعرى ما أمكننى .

وقد استفدت من هذا المجلس تجربة أخرى ، وهى أن كثيراً من الناس يتضايقون من المعارض وقد يحاولون إيذاءه والتنكيل به ، ولكنهم إذا تيقنوا أنه إنما يدافع عما يعتقد ، وأنه إذا دافع دافع بأدب ، وفى لياقة ولباقة ، من غير أن يمس شعورهم وكرامتهم كان موضع الاحترام والإجلال والكرامة من مؤيديه وخصومه معاً .

وكثيراً ما كانت تعرض مسائل شائكة ، فأقف فيها — مع بعض إخوانى — نفس الموقف ؛ يجتمع المجلس — مثلا — فيقرر فصل طلبة لأنهم مشاغبون ، ومن حزب غير حزب الحكومة ، فإذا جاء حزبهم وتولى الحكم عرض على المجلس إرجاعهم والعفو عنهم فيرجعون ، فكنت شديد المعارضة لهذا التصرف مما يغضب هؤلاء وهؤلاء .

ومرة أُوعز إلينا بمنح درجات ، دكتوراه فخرية لبعض الأجانب الأوربيين وهم فى الخارج ، وكان إيعازاً قوياً ، ولم أتبين أنا وبعض زملائى وجه الحق فى هذا المنح ، فوقفنا نعارض فى منحهم هذه الدرجات ، وأُخذَ القرار بمنحهم بالأغلبية ، ولكنى غُضب علىَّ غضبة شديدة ، وفُكر فى إخراجى من مجلس الجامعة بل من الجامعة كلها ، ثم لا أدرى ماذا حدث حتى انتهت المسألة بسلام .

ولا أنسى مرة قرر مجلس الجامعة إرسال خطاب شكر للطفى باشا السيد عقب أن ترك مجلس الجامعة ، ولكن الحكومة كانت غاضبة عليه ، فلم يُرسل الخطاب إليه ، ثم تبدلت الحكومة ، وجاءت حكومة أخرى مؤيدة للطفى باشا ، فأرسل الخطاب ، فوقفت فى المجلس ويدى ترتعش وصوتى

يتهدج ، ألوم القائمين بالأمر على هــذا التصرف ، وأستحث الأعضاء على احترام كلمتهم والحرص على تنفيذ آرائهم ، وهكذا وهكذا ، فكانت كل جلسة درساً مفيداً وأحياناً درساً قاسياً .

وفى أول أبريل سنة ١٩٣٩ كان قد خلا مركز عميد كلية الآداب بعد أن تولاه من المصريين الدكتور طه حسين والدكتور منصور فهمى وشفيق بك غربال ، ونظام الجامعة يقضى بأن مجلس الكلية يختار ثلاثة من بين الأساتذة يعيِّن أحدَهم وزير المعارف ، فاختير ثلاثة وكنت أكثرهم أصواتا فعيننى المرحوم محمود فهمى النقراشى باشا عميداً ، وقد عجبت أنا نفسى من هــذا الاختيار ، فأنا رجل دخيل على الجامعة بحكم تربيتى الأزهرية الأولى وتربيتى شبه الأزهرية فى مدرسة القضاء ، وأنا رجل لم أتعلم فى جامعة مصرية ولا أجنبية ، وأنا رجل لم يتعلم لغة أجنبية إلا ماتعلمته من اللغة الإنجليزية بعناء و بقدر محدود ، فكيف أختار لهذا المنصب وأرأس الأساتذة الأجانب والأساتذة المصريين ممن تعلموا فى الجامعات الأوربية ونحو ذلك ؟ الحق أنى أكبرت هذا كله وشعرت بالمسئولية الكبرى الملقاة على عاتقى ، ولكنى تذكرت قول المرحوم الشيخ محمد عبده : « إن الرجل الصغير يستعبده المنصب ، والرجل الكبير يستعبد المنصب » أو ما معناه ذلك .

ها أنذا فى عمادة كلية الآداب ، قد شغل وقتى كله بأعمال إدارية أكثرها لا قيمة له ، فكل الأوراق تعرض علىّ حتى شراء مكنسة ، وكل أعمال الطلبة والأساتذة تعرض علىّ حتى الكلمة النابية يلفظها طالب ، إلى شكاوى الطلبة وما أكثرها ! وتزاحم المدرسين والأساتذة على العلاوات والدرجات وتسوية الحالات وما أصعبها ! فكان هذا يشغل وقتى ، حتى لا أستطيع أن أفرغ للعلم إلا قليلا ، ولا أن أفرغ للنظر فى المسائل الأساسية كمناهج التعليم وطرق التربية إلا بقدر ، وهذه عدوى من نظام الحكم فى مصر حيث تتركز الأعمال كلها فى يد رئيس المصلحة ، وما كان أحرى الجامعة أن تتخلى عن ذلك ، وتوزع الاختصاص ويتفرغ العميد للمسائل المهمة ، ولكن أنَّى لنا ذلك !

مكثت على هذه الحال سنتين وأنا آسف على ضياع وقتى ووقوف عملى العلمى ، فلم أؤلف فى هذه الفترة كتابا ، ولم أتم بحثاً ، وأنا ضيق الصدر بكثرة الطلبات والشكايات والعلاوات والدرجات ، ولكن أحمد الله إذ لم أكن أقلَّ شأنا من غيرى فى إدارة الكلية بشهادة غيرى .

وكانت مدة العمادة ثلاث سنوات حسب القانون ، ولكن حدث بعد سنتين أن اختلفت وجهة نظرى مع وجهة نظر وزير

المعارف إذ ذاك ، فتصرف فى أمر هام من أمور الكلية من غير أخذ رأيى ، فاعترضت على ذلك فاعتذر ، وتكرر هذا الأمر ثانية فكان شأنه كذلك ، ثم قرأت فى الجرائد أن عدداً كبيراً من مدرسى كلية الآداب وأساتذتها صدر قرار بنقلهم إلى الإسكندرية من غير أن يكون لى علم بشىء من ذلك ، فقدمت استقالتى من العمادة وصممت عليها فقُبِلَتْ ، وحمدت الله أن تحررت منها ورجعت أستاذا كما كنت ، وبدأت أتمم سلسلة فجر الإسلام وضحى الإسلام على النحو الذى رسمت ، فأخرجت الجزء الأول من ظهر الإسلام .

وشاعت مرة شائعة أنى سأعود عميداً وسألنى صحفى عن ذلك فقلت : « إننى أصغر من أستاذ وأكبر من عميد » .

وحاولت أثناء عمادتى أن أحقق ثلاث مسائل لم أنجح فيها كثيراً :

الأولى تنظيم الحياة الاجتماعية فى الكلية ؛ فقد رأيت أن الحياة فيها مقتصرة على دروس تلقى ودروس تسمع من غير أن يكون هناك حياة اجتماعية ترفه عن الطلبة وتوثق الصلة بينهم وبين أساتذتهم وتقلل من إضرابهم ، فاتجهت إلى نادى الكلية أجهزه بمختلف الوسائل ليكون أداة صالحة لتنظيم الحياة الاجتماعية ،

وعهدت إلى بعض الأساتذة ممن تعلموا فى جامعات أوروبة أن يحاضروا الطلبة محاضرات عامة فى نظم الجامعات الألمانية والفرنسية والإنجليزية ، وخاصة فى نظم الحياة الاجتماعية ونحو ذلك .

والثانية : أنى حاولت تحسين العلاقة بين الطلبة والأساتذة من ناحية الإشراف الخلقى ، فأردت أن أخصص كل أستاذ لعدد من الطلبة يشرف عليهم إشرافا أبويا ، يفضون إليه بمشاكلهم المالية والنفسية والاجتماعية ، ويحاول هو علاجها ويعينهم على ذلك من الناحية المالية بمال الاتحاد .

والثالثة : محاربة الطريقة التى يتبعها كثير من الأساتذة من قلبهم المحاضرات إلى دروس إملاء ، فهم يملون على الطلبة ما حضّروا ، أو يوزعون عليهم مذكرات مختصرة ، وكنت أرى فى هذا إماتة للروح العلمية الجامعية ، وإنما المنهج الصحيح إرشاد الطلبة إلى مراجع الدرس ثم إلقاء الأستاذ المحاضرة وتقييد الطلبة بأنفسهم لأنفسهم النقط الهامة مما فهموا واعتمادهم على أنفسهم فى ذلك .

وعلى كل حال لم أحقق من هذه المطالب الثلاثة ما كنت أتمنى .

وحدثت حادثة أثناء عمادتى لست أنساها ، فقد أراد طلبة الجامعة الاحتفال بالهجرة النبوية فى قاعة الاحتفال الكبرى ، وأنا نائب مدير الجامعة عنه ، وقد اشترك فى الاحتفال جماعة الإخوان المسلمين ،

وقد سلكت وزارة الداخلية مع هذه الجماعة سياسات مختلفة تبعا للحكومات المختلفة والظروف المختلفة ، فطورا تؤيدها وطوراً تناهضها ، وكانت سياستها هذه المرة مناهضة الإخوان المسلمين ، ونبهت على رئيسهم الشيخ حسن البنا بعدم الحضور . فاجتمعنا فى القاعة وكان فيها زهاء خمسة آلاف وساد فيها الهرج والاضطراب بين الإخوان المسلمين ومعارضيهم ، حتى لم يستطع الخطباء أن يخطبوا إلا فى عناء ، ووسط ضجيج وعجيج ، وفى هذه الأثناء دخل الشيخ حسن البنا رغم الاحتياطات التى اتخذت لمنعه من الدخول ، فزاد الهرج والمرج ، فوجدتنى أتضايق من هذه الفوضى أشد مضايقة ، ووجدتنى أقف وسط هذا الحشد المائج فيهوشون علىّ كما هوشوا على من قبلى ، فإذا الدموع تنحدر من عينى و إذا أطرافى ترتجف ، و إذا أنا أرفع صوتى وأقول : هل أنتم تجتمعون لذكرى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وتكريمه ؟ إنه لو رآكم على هذا الحال لتبرأ منكم ، ولو كان مكانكم خمسة آلاف مسيحى يجتمعون لغرض دينى ما سمع لهم صوت ، ولو كنتم فى جيش لهزم بعد دقائق . فساد السكون التام وعلاهم الحزن كما علانى ، واستمررت فى مثل هذه الأقوال نحو نصف ساعة ، وانقلب الحال من تهريج تام إلى تأثر تام ، ولكن

ظللت نحو ثلاثة أيام بعد هـذا الحادث وأنا لا أجد أعصابى .

هذا وقد ترددت طويلا فى كتابة هذا الفصل لأن فيه لونا من ألوان التقريظ لنفسى ، وهو لون لا أحبه وقد لا يحبه القارىء ، ولـكننى فضلت أن أقوله لأنه — على الأقل — يصور للقارىء عقيدتى فى نفسى .

وأثناء عمادتى وقع الاختيار علىّ لأكون عضوا بمجمع فؤاد الأول للغة العربية ، فساهمت فى العمل فيه ما أمكننى ، وقد شاهدت فيه نوعا من المجتمع من طراز خاص ، تسوده — بحكم طبيعته — نزعة المحافظة ، وكراهة الثورة والتجديد ، والبطء فى العمل وكثرة الجدل ؛ ومع هذا فقد فتح لى آفاقا فى الوقوف على مشاكلنا اللغوية والأدبية ، ومكننى من الاطلاع على كثير من آراء الباحثين والمفكرين .

وكانت مأساة العمادة أنى فقدت بها صداقة صديق من أعز الأصـدقاء وما أقل عددهم ! كان يحبنى وأحبه ، ويقدرنى وأقدره ، ويطلعنى على أخص أسراره وأطلعه ، وأعرف حركاته وسكناته ويعرفها عنى ، ويشاركنى فى سرورى وأحزانى وأشاركه ، وكنت هواه وكان هواى ، واستفدت من مصادقته كثيرا من معارفه وفنه ووجهات نظره ، سواء وافقته أو خالفته ، فأصبح يكوّن جزءا من نفسى ويملأ جانبا من تفكيرى ومشاعرى ، على اختلاف ما بيننا

من مزاج ، فهو أقرب إلى المثالية وأنا أقرب إلى الواقعية ، وهو فنان يحكمه الفن وأنا عالم يحكمه المنطق ، وهو يحب المجد و يحب الدّوىّ ، وأنا أحب الاختفاء وأحب الهدوء ، وهو مغال إذا أحب أو كره ، وأنا معتدل إذا أحببت أو كرهت ، وهو نشيط فى الحكم على الأشخاص وعلى الأشياء وأنا بطىء ، وهو عنيف إذا صادق أو عادى ، وأنا هادئ إذا صادقت أو عاديت ، وهو واسع النفس أمام الأحداث ، وأنا قلق مضطرب غضوب ضيق النفس بها ، وهو ماهر فى الحديث إلى الناس فيجذب الكثير ، وليست عندى هذه المقدرة فلا أجتذب إلا القليل ، وهو فى الحياة مقامر يكسب الكثير فى لعبة و يخسره فى لعبة ، وأنا تاجر إن كسبت كسبت قليلا فى بطء و إن خسرت خسرت قليلا فى بطء ، يحب السياسة لأنها ميدان المقامرة وأنا لا أحبها إذ لا أحب المغامرة ؛ ولعل هذا الخلاف بيننا فى المزاج هو الذى ألف بيننا ، فأشعره أنه يكمل بى نقصه وأشعرنى أنى أكمل به نقصى ؛ جاءت العمادة مفسدة لهذه الصداقة ، لأنه — بحكم طبيعته — أراد أن يسيطر ، وأنا بحكم طبيعتى أردت أن أعمل ما أرى لأنى مسئول عما أعمل ، ثم ولى منصبا أكبر من منصبى يستطيع منه أن يسيطر على عملى ، فأراد السيطرة وأبيتها ، وأراد أن يحقق نفسه بأن ينال من نفسى فأبيت إلا أن أحتفظ بنفسى ، فكان من ذلك كله صراع أصيبت منه الصداقة ، فحزن لما أصابها وحزنت ، و بكى عليها و بكيت .

(٣٠)

ومات أمى وأنا أستاذ بكلية الآداب سـنة ١٩٣٦ وقد ناهزَت الثمانين ، وكانت من أسرة من « تلا » بالمنوفية انتقلت إلى القاهرة لأسباب لا أدريها ، واشتغل رجالها بالتجارة ، فكان خالاى تجار « عطارة » فى الغورية .

وكانت أمى طيبة القلب أقرب إلى السـذاجة ، وكانت — كأكثر نساء وقتها — أميـة لا تقرأ ولا تكتب ، وكانت محبوبة من أهل حارتها لطيب قلبها ، وكنت شديد الحب لها والإشفاق عليها ، لأنها تألمت كثيراً فى حياتها ، فقد مات ثلاثة من أولادها وهم فى شبابهم ، وعاملها أبى معاملة شـديدة قاسية ، سلبها كل سلطتها ، وكبت شخصيتها ، وحرمها دائرة نفوذها ، وطغى بشخصيته على شخصيتها ، فعاشت كسيرة القلب منقبضة النفس ، لا يحملها على البقاء فى البيت إلا حبها لأولادها ، فكانت تحتمل ذلك كله وتطيل الاحتمال ، وتصبر وتطيل الصبر ، وتحن علينا ، وإذا غضب علينا أبونا احتمينا بحنوها وأنسنا بعطفها .

ولهذا لما كان لى من الأمر شىء جهـدت أن أريحها وأسعدها وأقضى بعض دينها ، وكم كنت أتمنى أن تعيش معى

بعد وفاة أبى لأطالع وجهها وأتلقى دعواتها صباح مساء ، ولكن صممت أن تكون فى حيها بين جيرانها ، وخشيت أن ينالها أذى ولو قليل من العداء الطبيعى بين الزوجة والأم ، فجاريتها على رأيها وخضعت لمشورتها .

فقدتها وأنا كبير ولى زوجة وأولاد ، ومع هذا أحسست بفقدها فراغاً لم يملأه شىء ، وبذلت جهدى فى إراحتها ، حتى لما هرمتْ كنت لا أستريح إلى سفرى إلى الإسكندرية للتصييف إلا إذا كانت معى ، أستبشر كل يوم برؤيتها والجلوس إليها ، ومع هذا لا أرى أنى قضيت لها بعض دينها ، وكانت تبشرنى من صغرى بأنى سأكون أسعد أولادها ، لأنها رأت ليلة فى منامها أنى كنت بجانبها أسير معها ، فدخلنا بيتاً فتح لنا فيه كنز ، وإذا غرف مملوءة ذهباً ، فأمرتنى أن أملأ حجرى منه على عجل ، فقال لها الملَكُ الموكل بالكنز : لا تعجلى فكل هذا لابنك هذا ، ففرحت بهذا الحلم واعتقدت صحته واستبشرت به ، وصارت تعيده علىّ فى كل مناسبة وفى جميع أدوار عمرى إلى أن ماتت .

سخية اليد على قلة ما تملك ، لا تعبأ بالمال إلا ما يضمن معيشتها ، فلما ركنت إلىّ ووثقت بى تنازلت عن مالها لأولادها ، لم أسمع منها يوماً تفكيراً فى تدبير مال ، ولا شكوى حال ، ولا حسداً

لغنى ولا اعتراضاً على قدَر ، شأنها فى ذلك شأن أخوالى ، فليس منهم إلا من عاش عيشة طيبة وكسب كثيراً ومات فقيراً .

ساذجة فى تفكيرها وفى حديثها وفى تصرفها وفى تصديق كل ما يقال لها .

فإن كان لى شيء من عناد وقوة إرادة وجلد على العمل وصبر على الدرس وسرعة غضب وميل إلى الحزن وكثرة تفكير فى العواقب ، فذلك كله من أبى رحمه الله .

وإن كان فىّ شيء من سذاجة وعدم حرص على مال وحزن على أنى حزين وحسن ظن بالناس فيما يقولون ويفعلون وندم على غضب وسرعة تحول من غضب إلى هدوء ومن سخط إلى رضا ، فذلك كله من أمى ، رحمها الله .

وهل نحن إلا صور جديدة لآبائنا ، يعيشون فينا ، ويحلون فى جسومنا ونفوسنا ؟ .

(٣١)

تركت العمادة وعدت أستاذاً وخلت يدى من كل سلطة إدارية ، وأتت وزارة لا تعدّنى من رجالها ، فلم يكن لى شأن فى علاوات وترقيات ، وليس لى قبول فى شفاعات ، وإذ ذاك سفرت لى وجوه قبيحة من إنكار الجميل وقلة الوفاء .

هذا كان صديقى يوم كنت أستطيع نفعه ، فلما سلبت منى هـذه القدرة تلمس الوسائل ليكون عدوى ، فإن لم يجد أسباباً اختلقها ، و إن لم يجد فرصة لإظهار هذه الخصومة تعمد إيجادها ، وهؤلاء الذين كانوا يتهافتون على إقامة حفـلات تكريم لى يوم انتخبت عميداً ، فأرفضها وأرفضها ، لم يفكروا فى إقامة حفلة وداع يوم تركت العمادة .

وهـذه التليفونات التى كانت تدق كل حين للسؤال عن صحتى ، وطلب موعد لزيارتى ، لإظهار الشوق أولاً ، والاطمئنان على صحتى ثانياً ، والرجاء فى قضاء مسألة ثالثاً ، لم تعد تدق إلا للأعمال الضرورية التى ليس منها سؤال عن صحة ، ولا إعـلان أشواق .

وهـذا صندوق البريد الذى كان يمتلئ بالخطابات المملوءة بالطلبات والرجاوات أصبح فارغاً إلا من خطابات عائليـة أو مسائل مصلحية .

وهذه أيام الأعياد التى كان يموج فيها البيت بالزائرين من الصباح إلى المساء يهنئون بالعيد ، أصبحت كسائر الأيام ، أجلس فيها على المـكتب فأقرأ وأ كتب ، ولا سائل ولا مجيب .

وهذه صورة للناس لم تـكن جديدة علىّ ، فقد قرأت مثلها

فى الـكتب كثيراً ، وسمعت عنها فى الأحاديث كثيراً ، وشاهدتها فى غيرى كثيرا ، ولـكن لعلّ أسوأها أثراً فى نفسى ما شاهدته من قلة الوفاء فى بعض طلبتى ، فقد كنت أعتقد أن الرابطة العلمية فوق كل الروابط ، وأن حق الأستاذية فوق كل الحقوق . أما أن طالباً يخرج على أستاذه ويخاصمه ، ويقدح فيه بالـكذب والأباطيل فشىء لم أكن رأيته ، فلما رأيته استعظمته ، وحزَّ فى نفسى وبلغ أثره أعماق قلبى — لم أعد بعد ذلك أثق بالناس كما كنت أثق . ولا أركن إليهم كما كنت أركن ، فكانت إذا حدثت فصول من هذا القبيل تكسرت النصال على النصال :

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأنام

وعدت إلا الـكتاب فهو أوفى وفىّ وخير صديق .

ها أنا ذا أعود إلى كتبى ومكتبى ، وأبدأ فى إعداد الجزء الأول من ظهر الإسلام ، والاشتراك فى نشر كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ، وأضع — مع الأستاذ زكى نجيب — خطة فى وضع كتاب قصة الفلسفة اليونانية ثم قصة الفلسفة الحديثة فى جزأين ثم قصة الأدب فى العالم فى أربعة أجزاء ، وأشارك فى تأليفها وإنجازها ، وأجد بعد ذلك من الفراغ ما يمكننى من الاشتراك فى المجالس العلمية والإشراف على أعمال لجنة التأليف

والترجمة والنشر ونحو ذلك — حياة علمية هادئة لذيذة ، لا خصومة فيها ولا رجاء فيها ولا أخذ ولا ردّ فيها . وهذا هو ما يتفق ومزاجي ، فأنا لا أحب الجاه بالقدر الذى يجعلنى أتحمل متاعب المنصب الإدارى وما فيه من ضياع وقت واضطراب بال .

قد كان بجانب عملى العلمى فى البحث والتأليف والنشر أن اتجهت اتجاها أدبياً كان امتداداً لما بدأت به فى الأيام الأولى من حياتى يوم اشتركت فى تحرير جريدة السفور . ففى سنة (١٩٣٣) فكر الأستاذ أحمد حسن الزيات فى أن يشترك مع بعض أصدقائه من لجنة التأليف فى إخراج مجلة الرسالة ، وكنت أحدهم ، فكنت أكتب فى كل أسبوع — تقريباً — مقالة ، وكان هذا عملا أدبياً يلذ نفسى بجانب بحثى العلمى ، فأنا كل أسبوع أفكر فى موضوع مقال وأحرره ، واضطرنى ذلك إلى قراءة كثير من الكتب الإنجليزية أستعرض فيها ما يكتب وكيف يكتب ، وأعتمد أكثر ما أعتمد على وحى قلبى أو إعمال عقلى أو ترجمة مشاعرى ، وكانت مقالاتى تتوزعها هذه العوامل الثلاثة .

وأكثر ما اتجهت فى هذه المقالات إلى نوع من الأدب تغلب عليه الصبغة الاجتماعية والنزعة الإصلاحيـة ، فهذا أقرب أنواع الأدب إلى نفسى وأصدقها فى التعبير عنى . وخير الأدب

ما كان صادقاً يعبر عما فى النفس من غير تقليد ، و يترجم عما جربه الكاتب فى الحياة من غير تلفيق . ولقد اطمأننت إلى هذا النوع من الكتابة ، إذ كان يفتح عينى للملاحظة والتجربة ، ويسرِّى عن نفسى بالإفراج عما اختزنته من حرارة . فكنت أشعر بعد كتابة المقالة كما يشعر المحزون دمعت عينه أو المسرور ضحكت سنُّه . وكنت أحسُّ كأن نحلة تطن فى أذنى لا تنقطع حتى أكتب ما يجيش فى صدرى ، فإذا استولى موضوع المقالة على ذهنى فهو تفكيرى إذا أكلت ، أو شربت وحلمى إذا نمت ؛ وعمل لا وعيي الباطن إذا شغلت . ولهذا انقلبت هذه الظاهرة إلى عادة ومن عادة إلى (كيف) متسلطن كما يشعر مدمن الدخان أو مدمن الخمر .

ولى تجربة فى هذا الباب ؛ وهى أنى إذا عمدت إلى إعداد بحث علمى كفصل من فصول فجر الإسلام أو ضحى الإسلام فأنا كل وقت صالح لهذا العمل ما لم أكن مريضاً ، أما فى المقالات الأدبية فلست صالحا فى كل وقت ، بل لا بد أن تهيج عواطفى بعض الهياج ، وتهتز نفسى بعض الاهتزاز ، وأنسجم مع الموضوع كل الانسجام ، فإذا لم تتيسر لى كل هذه الظروف كنت كمن يمتح من بئر أو ينحت من صخر . وأحياناً أرى القلم يجرى فى

الموضوع حتى لا أستطيع أن أقفه ، وأحياناً يسير فى بطء وعلى مهل حتى لا أستطيع أن أستعجله ، وأحياناً يتعثر فلا أجد بداً من الإعراض عن الكتابة ، ومن الصعب تعليل ذلك ، فقد يكون سببه صلاحية المزاج وسوءه ، وقد يكون قوة الدواعى وضعفها ، وقد يكون الاستعداد للتجلى وعدمه .

واعتدت منذ أول عهدى بالقلم أن أقصد إلى تجويد المعنى أكثر مما أقصد إلى تجويد اللفظ ، وإلى توليد المعانى أكثر من تزويق الألفاظ ، حتى كثيراً ما تختل (ضمائرى) فأعيد الضمير على مؤنث مذكرا وعلى مذكر مؤنثاً ، لأنى غارق فى المعنى غير ملتفت إلى الألفاظ ، ولا أتدارك ذلك إلا عند التصحيح ، وقد يفوتنى ذلك أيضاً . ولتقديرى للمعنى أميل إلى تبسيطه ، حتى لأسرف أحياناً فى إيضاحه ، لشغفى بوصوله إلى القارئ بيناً ولو ضحيت فى ذلك بشىء من البلاغة .

وقد تعودت من الأدب الإنجليزى الدخول على الموضوع من غير مقدمة ، وإيضاح المعنى من غير تكلف ، والتقريب — ما أمكن — بين ما يكتبه الكاتب وما يتكلمه المتكلم ، وعدم التقدير للمقال الأجوف الذى يرن كالطبل ثم لا شىء وراءه . ومن حبى للإيضاح أفضل اللفظ ولو عامياً على اللفظ

ولو فصيحاً إذا وجدت العامى أوضح فى الدلالة وأدق فى التعبير. وأفضل الأسلوب السهل ولو لم يكن جزلا إذا وجدت الأسلوب الرصين يُغمض المعنى أو يثير الاحتمالات، ويدعو إلى التأويلات.

ومن أجل هذا تشكك فىَّ بعض الأدباء هل يعدوننى أديباً أو عالما! ولم أقم لهذا الشك وزناً، فخير لى أن أصدق مع نفسى ومع غرضى ومع ميلى من أن أزوّق أسلوبى وأكذب على نفسى ليجمع الناس على أدبى.

وقد اعتدت — عند كتابة مقال — أن أرسم الموضوع إجمالا لا تفصيلا، وإذا رسمته أبحت لنفسى أن أغيره وأبدله إذا جَدَّ جديد، وكثير من المعانى التفصيلية تأتى وأنا أكتب لا وأنا أفكر قبل أن أكتب، ولهذا لما أصبت فى عينى ونهانى الأطباء عن الكتابة زمناً صعب علىّ الإملاء، ولم أُجد من غزارة المعانى ما كنت أجد عند مزاولة الكتابة بنفسى.

ظللت أكتب المقالات فى الرسالة، فلما حالت الحوائل دون الاستمرار فيها أخرجت لجنة التأليف مجلة الثقافة وعهدت إلىَّ أن أكون مديرها، فكنت أقرأ أكثر ما يرد إليها من مقالات وأحرر فيها مثل ما كنت أحرر فى الرسالة — وكان خيراً لى لو جربت قلمى فى أنواع الأدب الأخرى غير المقال لأجرب

ملكاتى ، وأقف على موضع القوة أو الضعف فيها ، كالقصة مثلا ، وقد عالجت ذلك فى بعض الأحيان ولـكنى لم أستمر فيه ، وكان من الخير أن أستمر وأنتقل من القصص القصيرة إلى القصص الطويلة ، فإما نجحت و إما أخفقت ولـكن فات الأوان .

و بعد أن كتبت هذه المقالات فى الرسالة والثقافة طُلب إلىّ أن أ كتب فى مجلات أخرى الهـلال والمصور وغـير ذلك ففعلت ، ولما كثرت مقالاتى جمعت بعض ما كتبت وزدت عليها وأودعتها سبعة أجزاء سميتها « فيض الخاطر » .

وعلى هامش هـذا ، طلب إلىَّ أن أذيع أحاديث فى محطة الإذاعة فأذعت ، وكانت أحاديثى أشبه ما تـكون بمقالاتى من حيث موضوعاتها وأسلوبها ، إلا أنى تعمدت فى هذه الأحاديث أن تـكون أسهل موضوعا وأبسط تعبيراً ، ونزلت فى ذلك إلى أن دنوت من العامية لتناسب جمهور السامعين ، ولم أر فى ذلك بأساً ، بل لقد هممت أحيانا أن أتحدث بالعامية لأنى أرحم الأميين وأشباههم ألا يكون لهم غذاء عقلى يستمتعون به ، وأ كره من الأدباء أرستقراطيتهم . فلا يكتبون إلا للخاصة ولا يتفننون إلا لهم . وواجب الأدباء أن يوصلوا غذاءهم إلى كل عقل ، ونتاجهم الفنى إلى كل أذن ، فإذا لم يفعلوا فقد قصروا . وقد لفت نظرى

لهذا مرة أن حضر إلى مصر رجل كبير من مسلمى الصين ، فتقابلنا مراراً وتحدثنا كثيراً ، وفى مرة عرّفته بالأستاذ توفيق الحكيم ، وقلت له إنه أديب كبير ، فسألنى : هل هو أديب شعبى أو أديب أرستقراطى ؟ فرنّ السؤال فى رأسى ، فلما قلت له هو أديب أرستقراطى ، سألنى : فمن من أدبائكم شعبى ؟ فحرت جوابا ، وآلم نفسى ألا يكون لجمهور الشعب أديب . وكثيراً ما شغلت ذهنى مشكلة العلاقة بين اللغة الفصحى واللغة العامية وأَنَّ صعوبة اللغة الفصحى — ولا سيما من ناحية الإعراب — تحول دون انتشارها فى جمهور الشعب وخاصة إذا أردنا مكافحة الأمية وتعميم التعليم ، فنحن لو أردنا تعميم التعليم بين الجماهير باللغة الفصحى المُعْربة احتجنا إلى زمن طويل ، ولم نتمكن من إجادة ذلك كما لم نتمكن إلى اليوم من إجادة تعليم المثقفين إياها . فطلبة المدارس يقضون تسع سنين فى التعليم الابتدائى والثانوى وأربع سنين فى الجامعة ثم لا يحسن أكثرهم الكتابة والقراءة ، وكثيراً ما يلحنون فى الأعراب . ومن أجل هذا اقترحت فى بعض مقالات نشرتها وفى محاضرة فى المجمع أن نبحث عن وسيلة للتقريب ، واقترحت أن تكون لنا لغة شعبية ننقيها من حرافيش الكلمات (على حد تعبير ابن خلدون) ، ونلتزم فى أواخر الكلمات الوقف من غير

إعراب ، وتـكون هى لغة التعليم ولغة المخاطبات ولغة الـكتابة للجمهور ، ولا تـكون اللغة الفصحى المعربة إلا لغة المثقفين ثقافة عالية من طلبـة الجامعة وأشباههم ، وإلا الذين يريدون أن يطلعوا على الأدب القديم ويستفيدوا منه ، وبهذا تـكسب اللغة العامية والفصحى معاً ، فاللغة الفصحى الآن لا تتغذى كثيراً من استعمال الـكلمات اليومى ، وهذا الاستعمال اليومى فى الشارع وفى البيوت وفى المعاملات من طبيعته أن يكسب اللغة حياة أكثر من حياتها بين الدفاتر ، وفى الأوساط الخاصة ، ويكسب اللغة العامية رقياً يقرّب من الفصحى ، وهو يمـكننا من نشر الثقافة والتعليم لجمهور الناس فى سرعة ، ويمكننا من تقديم غذاء أدبى لقوم لا يزالون محرومين منه إلى اليوم . وهو إجرام كبير كإجرام حبس البرئ وتجويع الفقير ، ولـكن هذا الاقتراح لقى معارضة شديدة بل وتجريحاً عنيفاً .

(٣٢)

انتدبت — وأنا أسـتاذ بكلية الآداب — مديراً للإدارة الثقافية بوزارة المعارف وكان ذلك سنة ١٩٤٥ ووزير المعارف الدكتور عبد الرزاق السـنهورى باشا ، وهى إدارة ليس لها أول

يعرف ولا آخر يوصف ، واختصاصها واسع سعة لا حدّ لها لمن شاء أن يعمل ، وضيق أشد الضيق لمن شاء ألّا يعمل ، ومن اختصاصها النظر فى الأساتذة الذين يندبون إلى الأقطار العربية والطلبة الشرقيين حين يريدون الدخول فى المدارس المصرية ، وتنظيم العلاقة بين مصر والبلاد الشرقية والبلاد الأجنبية فى الشئون الثقافية ، وتنظيم الإذاعة المدرسية ، وتنظيم الحياة الاجتماعية للطلبة خارج المدرسة ، واستخدام السينما فى الثقافة وغير ذلك .

وقد نشأت عندى فكرة لا أدرى من أين نبتت ، فقد لاحظت خطأ وزارة المعارف فى قصرها جهودها على التعليم داخل جدران المدارس ، مع أن فى عنقها تثقيف الشعب بأجمعه فى المدارس وغير المدارس بالصور المختلفة ، وخطأ آخر وقعت فيه وهو فهمها أن نشر الثقافة لا يكون إلا بواسطة تعليم القراءة والكتابة ، مع أنه يمكن نشر الثقافة بواسطة السمع ، و بواسطة عرض الأشرطة السينمائية على الناس ونحو ذلك من وسائل بدون القراءة والكتابة ؛ وقد كنت قرأت نتفاً عن تعليم الكبار فى الممالك الأجنبية ، فعكفت — أنا وشابان ممن يعملون معى فى الإدارة الثقافية — على قراءة الكتب التى تصف النظم التى اتبعت فى هذا السبيل ، فنحن نجتمع كل يوم عصراً فى حجرة متواضعة فى لجنة التأليف والترجمة ، نقرأ

ونترجم وندرس ونبحث أى هذه النظم يصلح لمصر ، وأيها لا يصلح ، ونضع تقريراً مفصلا عن هذه الفكرة التى سميناها « الجامعة الشعبية » ، يشتمل على نوع الطلبة والطالبات الذين تلقى عليهم المحاضرات من غير تقيد بسن ولا رغبة فى شهادة ولا امتحان عند الدخول ، كما يشتمل على شعب الدراسة من دراسة مهنية ودراسة نظرية وبرنامج مائع لكل هذا ، يمكن تحويله حسب الظروف والمناسبات ، فإذا جدت مسألة فلسطين مثلا ألقيت محاضرات عن فلسطين ، وإذا جدت رغبة فى تعلم الآلة الكاتبة أنشأنا لها فرعا ، ومن حيث الإدارة فقد اقترح لها مجلس إدارة من خيار الرجال فى مصر للإشراف عليها ، ومن حيث المكان ، فمدارس وزارة المعارف والورش الصناعية والميكانيكية أمكنة للجامعة الشعبية ، ومدارس البنات أمكنة لتعليم البنات والسيدات . ومن حيث مدرسوها ومدرساتها ، فكل المدرسين والمدرسات بوزارة المعارف صالحون لأن نختار منهم أساتذة الجامعة الشعبية ، ومن حيث الزمان فهو فى المساء من الخامسة إلى الثامنة .

وعرضَ كل هذا على وزير المعارف فقبله وشجع الفكرة ، ورصد لها نحو عشرة آلاف جنيه للبدء بها ، وأدخلت فى

خطاب العرش ، وأصبحت حقيقة بعد أن كانت خيالا ، وأعلن عن الجامعة الشعبية وشعبها ، فكثر الإقبال عليها ونجحت نجاحاً يدل على أن حاجة الناس كانت ماسة إليها ، وكلما ظهرت فيها بعض العيوب تدوركت بقدر المستطاع ، واتسعت شيئاً فشيئاً ، وزادت ميزانيتها شيئاً فشيئاً ، و بعد أن اقتصرت الفكرة أول أمرها على القاهرة عممت فى سائر الأقاليم تقريباً ، وأصبح موظفو السينما ينتقلون إلى مكان العمال ، و إلى الفلاحين فى القرى و إلى المصانع ، يعرضون الأفلام الثقافية ، ومعهم بعض المحاضرين ، وترى فيها الموظف الكبير والعامل الصغير يدرسان جنباً إلى جنب فناجديداً ، وترى السيدة و بنتها بجانبها تتعلمان تدبير المنزل ، والطبخ والخياطة وما إلى ذلك . ولم يمض إلا قليل حتى أصبح عدد الطالبين والطالبات فيها يتجاوز سبعة عشر ألفاً ، وأصبحت ميزانيتها نحو سبعين ألفاً . ومع هذا نرى أننا إذا قسنا أنفسنا ببعض الممالك الأخرى لا نزال فى حرف الألف .

وعنيت وأنا فى الإدارة الثقافية هذه بتشجيع ترجمة أمهات الكتب الغربية إلى اللغة العربية ، فكان هذا العمل نواة توسعت فيها الوزارة فيما بعد ... إلى غير ذلك . ولكنى لم أعتز بشىء اعتزازى بابنتى العزيزة الجامعة الشعبية ، ولذلك لما تخليت

عن الإدارة الثقافية بعد سنة تقريباً كان لى شرف الاحتفاظ برياسة مجلس إدارتها إلى اليوم .

وحدث بعد ذلك حادث غريب يعد من أعاجيب القدر ، ذلك أنى فى يوم من صيف سنة ١٩٤٦ ذهبت إلى دار الحكومة فى « بولكلى » بالإسكندرية لزيارة صديق لى هو سكرتير مجلس الوزراء ، وعند خروجي إلى فناء الدار وجدت سيارة وقفت ودعيت إلى الركوب ، فإذا فيها أستاذنا أحمد لطفى السيد باشا وزير الخارجية إذ ذاك ، فدعانى أن أصحبه لتشييع جنازة فشيعناها ورجعنا ، ودعانى أن أصحبه إلى حجرته بوزارة الخارجية فصحبته ، وجاء وكيل الخارجية يعرض عليه أمراً لم أتبينه ، ثم التفت إلىّ الوزير وقال : ما رأيك فى السفر إلى لندن عضواً مع ممثلى مصر فى مؤتمر فلسطين ؟ فاعتذرت ، فسألنى عن السبب فقلت : إنى رجل عالم أو — على الأصح — أنتسب إلى العلم ، ولم أشتغل بالسياسة إلا على هامش حياتى ، وأمور السياسة تحتاج إلى درس طويل ومران كثير ، فقال : لا بأس من وجود العالم بجانب السياسى ، وصمم فقبلت ، واستأذن الجهات المختصة وأنا جالس فقبلَت ، وخرجت مستغربا كيف دخلت وكيف خرجت . واستعددت للسفر ، وأخذت أبحث فى المكاتب عن الكتب التى أُلفت عن

مشكلة العرب واليهود فى فلسطين ، وأقرأ التقارير التى كتبت وأودعت وزارة الخارجية أو الجامعة العربية ، والكتاب الأبيض وغير الأبيض ، ها أنا ذا أركب الطائرة من محطة ألماظة إلى لندن لأول مرة من ركوبى الطائرة فى حياتى ، فما أعجب ما يفعله الزمان ! لقد كنت فى مبدأ حياتى لا أعرف ركوب القطار حتى بلغت السادسة عشرة ، ولما ركبته إلى طنطا حزنت و بكيت ، وها أنا أركب الطائرة من مصر إلى لندن وأنا لا أحزن ولا أبكى .

وأخاف أول الأمر والطائرة ترتفع وتضطرب ، ودليل الطائرة يقول : إننا على ارتفاع ألفى قدم ، ثم يقول أربعة آلاف ثم يقول ستة آلاف إلى ثمانية آلاف ، لكن بعد أن استوت الطائرة وملكت زمامها فى الجو اعتدناها واطمأنت نفوسنا بعض الشىء إليها ، ورأيت من بجوارى فيها من كبار رجال السياسة وممن اعتادوا ركوب الطائرات وضعوا رؤسهم على مقاعدهم وناموا نوماً هادئاً مطمئناً كأنهم فى غرفة نومهم ، فاطمأننت بنومهم ، ولكنى لم أستطع أن أسير سيرتهم ، فلم تذق عينى النوم إلا إغفاءة غفوتها بين مالطة وباريس . ونزلت الطائرة لندن بعد سبع عشرة ساعة ، فما أضعف الإنسان وأقواه ، وما أقدره وما أعجزه !

وأجد نفسى فى جو سياسى لم أعتده ، بين كبار الساسة من

العرب يتناقشون و يتجادلون على غير النمط الذى ألفته فى مجالس الكليات ومجلس الجامعة ، فهم يراعون اعتبارات ونزعات واتجاهات لا يراعيها العالم ، فأسمع أكثر مما أتكلم ، ولا أشترك فى المناقشة إلا بقدر ، ولا أبدى الرأى إلا فى المسائل الهامة .

ثم أنتقل خطوة أجرأ ، فأنا والممثلون العرب على المائدة المستديرة أمام مستر بيفن وزير الخارجية البريطانية وأمام وزير المستعمرات والمختصين بالأمور الشرقية فى إنجلترا ، نتبادل الخطب والآراء ونستمر على ذلك أياما ، ثم تشكل لجنة صغيرة من ممثلى العرب وممثلى الإنجليز ، يضعون مشروع اتفاق ونستشار فى كل خطوة من هذا الاتفاق ، حتى إذا فرغت اللجنة عرض الاتفاق على الهيئة العامة من الإنجليز والعرب ، فإذا بنا نسمع من الإنجليز أنهم عرفوا وجهة نظرنا وعرفنا وجهة نظرهم ، وسيبحثون الأمر فيما بعد ، وسيخبروننا بالنتيجة ، وسيدعوننا إذا دعت الحال ، ومع السلامة .

كانت هذه الرحلة كبيرة الأثر فى نفسى ، فقد استطعت أن أخلو فى لندن إلى أصدقاء لى ممن خبروا إنجلترا خبرة طويلة وأقاموا فيها زمناً طويلا قبل الحرب وأثناء الحرب و بعد الحرب ، فأصغيت إلى حديثهم فى شئون إنجلترا الاجتماعية وتطورها

وما فعلت الحرب فيها ، ورأيت كبار الإنجليز وسمعت أقوالهم وأصغيت إلى تفكيرهم، فإذا هم ناس كسائر الناس وعقليتهم كسائر العقليات ، مزيتهم فى اعتمادهم على الاختصاصيين الذين تخصصوا فى كل موضوع وعرفوا دقائقه ، فإذا جدَّ أمرٌ استعانوا بهؤلاء الخبراء وأصغوا إلى نتيجة خبرتهم وكونوا من ذلك آراءهم ، وأكبر ما يمتازون به علينا توزيع الاختصاص ، والنظام الدقيق ، وثقة الكبير بالصغير والصغير بالكبير ، ومعالجتهم الأمور معالجة علمية منظمة ، فكل شيء مدروس ولا شيء مرتجل ، والغرض محدود وأساليبه مرسومة ، لا ارتجال ولا فوضى ولا تفكير عفو الساعة .

كما أعجبنى فى الشعب ديمقراطيته الحقة ، فكل إنسان يُنظر إليه على أنه إنسان ، كبيراً كان أو صغيراً ، ولا يحق للوزير أن ينال شيئا يمتاز به عن الصانع الصغير ؛ هذا وزير خارجية انجلترا يلبس قميصاً بليت ياقته ، وهذا وزير المستعمرات يقول فى بعض أحاديثه معنا إنه لم يشتر بدلة جديدة منذ نشبت الحرب ، وهذا الوزير الكبير يذهب بطبقه وسكينه وشوكته وفنجانه ليأخذ الشاى و بعض الكعك بيده كما يفعل سائر الناس ، فى المحل المعد لأخذ الشاى ، وهذا وكيل وزارة يشهَّر بزوجته لأنها أخذت قنطاراً من الفحم زائداً عن سائر الناس و إن كانت فى حاجة إليه

لأنها تسكن بيتاً كان مهجوراً مرطوباً يحتاج إلى نار أكثر لتذهب برطوبته. وهذه «الطوابير» المنظمة فى كل شىء لا يحق لأحد فيها أن يتقدم على من قبله، والموظف الكبير يقف وراء العامل الصغير حتى يأتى دوره، وهذه الاشتراكية قد بلغت فى الحياة الاجتماعية مبلغاً كبيراً. فرُفع مستوى العمال وطُبق العدل الاجتماعى تطبيقاً دقيقاً، وعلا مستوى المعيشة للفقراء، وكثرت الضرائب على الأغنياء، حتى لا يستطيع غنى مهما كان أن يربح فى العام أكثر من خمسة آلاف جنيه تقريباً، فاستوى الجميع فى الحقوق والواجبات، وقلت الفروق بين الطبقات. حياة هادئة منظمة مريحة، فإن أنا نظرت إلى الشعب وأخلاقه وسلوكه سررت وأعجبت، وإن أنا نظرت إلى السياسة الخارجية وما يفعل الاستعمار الإنجليزى فى الشرق ألمت وتقززت.

وخطفت رجلى بعد ذلك فذهبت مع بعض أصدقائى إلى سويسرة، نعمنا بمناظرها الطبيعية أياما، ومنها إلى مرسيلية ننتظر الباخرة أياما، ونخرج كل يوم إلى ضاحية من ضواحيها فننعم بشمسها ودفئها ومناظرها، ثم نعود بالباخرة إلى مصر. وقد كسبنا كل شىء إلا ما يتصل بفلسطين.

(٣٣)

وأحلت إلى المعاش بعد أن بلغت سن الستين ، وكم كنت أتمنى أن أخرج من وظائف الحكومة وأنا فى سن الكهولة لأعمل حرًّا ، لا تقيده اللوائح والقوانين ، ولا يطبع بطابع الموظفين ، ولكن لم يكن لى من الشجاعة ما أرفض به الوظيفة و « الولد مَجْبنة مَبْخلة » ، وربما كان السبب أيضاً أن وظيفة الأستاذ فى الجامعة من أبعد الوظائف عن السلطة الحكومية ، وأنها تتفق مع مزاجي إذا خلت من الصبغة الإدارية واقتصرت على الاتصال بالكتب والاتصال بالطلبة .

على كل حال بقيت فى الوظيفة إلى الستين ، وخفت الفراغ الذى سأقابله إن خلصت من الوظيفة ففكرت ماذا أعمل : فكرت أن أكوّن هيئة لنشر الكتب القديمة ، أستقل بالعمل فيها ، ويكون لى ربحه المادى والأدبى أو خسارته ، ولكن حال دون ذلك اتصالى بلجنة التأليف والترجمة وإشرافى عليها أكثر من ثلاثين عاماً ، فعمل اللجنة من جنس ما أنوى أن أعمل ، ولكنه مقيد بمجلس إدارة قد يقيد حريتى فيما أنشر ، ويسألنى عن عملى هل خسر أو ربح ، وأنا أريد عملاً لا يسألنى عنه أحد . وعرضت

على زملائى فى لجنة التأليف أن أستقيل فأبوا ، ولم يكن عندى من الحماسة ما يجعلنى أصمم على الانفصال ، و بقيت فى اللجنة أشرف عليها وهى عزيزة علىّ ، فقد صحبتها منذ أول عهدى بالشباب ، وصارت جزءاً من نفسى ، نمت بنموى و إن لم تشخ شيخوختى — استفدت منها تجارب كثيرة فى التأليف والترجمة والطبع والنشر ومتى تروج الكتب ومتى لا تروج ، وعلاقتنا بالعالم العربى من حيث تصريف الكتب وما إلى ذلك . وحازت اللجنة ثقة الناس بما تخرج ، إذ لا تقدم على طبع كتاب حتى يقرأه الخبيرون ويقرروا صلاحيته ، كما اكتسبت من زملائى فى اللجنة آراءً قيمة ، إذ كانت اللجنة بجانب إنتاجها العلمى والأدبى منتدى يجمع الأصدقاء والزائرين وخاصة فى مساء الخميس من كل أسبوع ، تطرح فيه الموضوعات المختلفة حيثما اتفق ، وتتبادل الآراء من ثائرين ومعتدلين ومحافظين ، و يتحدث المجتمعون عما طالعوا من كتب وما عرض لهم من آراء ، أو تتبادل فيه الشكوى من حالة الشرق وعيوب المجتمعات وما إلى ذلك من أحاديث ممتعة طريفة .

وقد نمت اللجنة نمواً مطرداً من حيث أعضاؤها ، إذ تجاوزوا الثمانين من خيرة رجال مصر ، ومن حيث إنتاجها إذ بلغ ما أخرجته

أكثر من مائتى كتاب ، ومن حيث ماليتها إذ بلغ ما تملكه من كتب فى مخازنها ومال فى مصرفها آلاف الجنيهات . وكانت أول مؤسسة فى الشرق للتأليف والترجمة والنشر ، ثم حذت هيئات كثيرة حذوها ، وأنشئت الدور المختلفة فى الشرق لهذا الغرض ، وفاقها بعضها من الناحية التجارية والمالية وإن لم يفقها من الناحية العلمية .

عدلت إذن عن إنشاء مكتب للنشر — وفى ليلة من ليالى رمضان سنة ١٩٤٦ — وكنت أصيّف فى الاسكندرية — أتتنى دعوة من المرحوم النقراشى باشا لأقابله فى مصيفه فى محطة فكتوريا برمل الاسكندرية ، فذهبت إليه فعرض علىّ أن أكون رئيس تحرير جريدة يريدون إنشاءها لتكون لسان حزب السعديين ، وهى جريدة « الأساس » ، فاعتذرت فى الحال محتجاً بأنى لم أشتغل بالصحافة إلا على هامشها ، وفرق بين صحيفة أدبية كالثقافة وصحيفة سياسية كالأساس ، ثم هذا العمل يتطلب انغماساً فى السياسة إلى الأعماق وقد كرهت العمل فيها من قديم ، ثم هو يتطلب الكتابة فى تأييد الحزب تأييداً مطلقاً ، والخضوع لآراء قادة الحزب وأفكارهم ، ومهاجمة الآراء المعارضة وتوهينها والحطّ من شأنها ، وهذا ما لم أرتضه لنفسى فى حياتى ، فقد تلونت باللون العلمى الذى

يبحث الأمر وهو على الحياد، ثم يرتقب النتيجة كائنة ما كانت، وليس هذا منهج السياسة الحزبية . وأخيراً هذا العمل يتطلب سهراً بالليل ونوما بالنهار، ومقابلة زيد وعمرو وتلقى الأفكار من زيد وعمرو وهو عمل لا أرتضيه ولا تحتمله صحتى. فقال رحمه الله : إنك تسرعت فى الحكم، وخير أن تفكر يومين أو ثلاثة فى الأمر، فقبلت وفكرت ثم قابلته ورفضت. واكتفيت أن أعمل الأعمال التى لا تتطلب جهداً عنيفاً، فأنا أعمل فى لجنة التأليف وفى الجامعة الشعبية وفى دار الكتب وفى المجمع اللغوى وفى اللجان المختلفة التى أنا عضو بها ، و إلى جانب ذلك أستمر فى الكتب التى أؤلفها، والمقالات التى أنشرها، والأحاديث التى أذيعها .

ولم ألبث إلا قليلا حتى عرض علىَّ أن أكون مديراً للإدارة الثقافية فى الجامعة العربية، فقبلت بكل سرور، لأنه عمل ثقافى من جنس عملى ، ومحقق لرغبتى فى السعى للتعاون العلمى بين الأقطار العربية .

فأنا و إخوانى فى الإدارة الثقافية ننشئ معهداً للمخطوطات نريد به أن نصوّر كل المخطوطات القديمة فى العالم على أفلام صغيرة ونشترى الآلات اللازمة لذلك، ونصوّر أهم المخطوطات فى دار

الـكتب وفى الجامعة المصرية وفى بلدية الإسكندرية وفى سوهاج ونبعث بعثة لتصوير المخطوطات فى الشام ولبنان ، وأخيراً نبعث بعثة إلى الآستانة لتصوير جزء كبير من مخطوطاتها القديمة وهكذا ، ونضع خططاً للتعاون الثقافى عن طريق ترجمة الـكتب القيمة ، وعن طريق السينما والإذاعة .. الخ ، ونفتتح عملنا أيضاً بالتحضير لمؤتمر ثقافى يبحث فى مناهج اللغة العربية والجغرافيا والتـاريخ والتربية الوطنية فى الأقطار العربية والقدر المشترك الذى ينبغى أن يوحد بينها والقدر الذى تستقل به كل أمة . وقد تم تحضير هذا المؤتمر وتحضير مؤتمر آخر للآثار الشرقية فى بضعة أشهر ، وعقد المؤتمر الثقافى فى بيت مرى فى لبنان فى صيف سـنة ١٩٤٧ ومؤتمر الآثار فى دمشق عقبه مباشرة ، وقد كنت فى هذين المؤتمرين أغبط نفسى على نشاطى وحركتى واشتراكى الجدّى فى العمل .

وتحاول هذه الإدارة الثقافية أن تنشئ متحفاً للثقافة فتتمه ، وأن تستخدم السينما والإذاعة فى التقريب بين العالم العربى ، كما تحاول أن تنشئ علاقة متينة بينها وبين اليونسكو فى الشئون الثقافية وخاصة ما يتعلق منها بالعرب .

وفى هـذه الآونة انتقلت من مسكنى بمصر الجديدة الذى

سكنته أكثر من عشرين عاما إلى مسكني فى الجيزة ليكون أبنائى قريباً من الجامعة .

(٣٤)

ويوما من الأيام ، وكل شيء يسير على طبيعته والحياة تجرى على سننها ، والآمال مفتحة كعادتها ، والعمل يتبع نهجه المألوف ، فأنا عاكف على القراءة والكتابة والدرس والتحصيل والإنتاج ، وإذا بى فجأة أرى كأن نقطة سوداء على منظارى ، فأظنها أول الأمر نقطة ماء سقطت عليه فأمسحها ، ثم أضعه على عينى فأراها كما كانت ، وإذا العيب فى العين ليس العيب فى المنظار ! واليوم يوم وقفة عيد الأضحى والناس حتى الأطباء فى شغل بأمر العيد ، فأبحث عن طبيب فلا أجده ثم أعثر عليه بعد لأى .

هذا هو الطبيب يكشف على عينى وأنا واجف من النتيجة خائف يترقب ، والطبيب يفحص ويطيل الفحص بأدواته ، ثم تظهر فى وجهه ملامح الكآبة وما يلبث أن يقول :

— خير لى أن أصارحك أن المرض انفصال الشبكية .

— هل لها من دواء يا دكتور ؟

— لا دواء إلا عمل عملية .

— هل هي قاسية ؟

— نعم ، إنها تحتاج إلى شهر ونصف أو شهرين مغمّى العينين ، متخذاً وضعاً واحداً .

اضطربت لهذا النبأ وأحسست خطورة الموقف ، وأكبر ما جال فى نفسى شعورى بحرمانى من القراءة والكتابة مدى طويلاً ، وأنا الذى اعتاد أن تكون قراءته وكتابته مسلاته الوحيدة .

ولكن كثيراً ما يخطئ الطبيب فيشخّص المرض على غير حقيقته ، فلعله واهم ، ولعله أخطأ التشخيص ، وكثيراً ما يحدث ، وكثيراً ما نسمع الأحاديث عن أطباء شخصوا فأخطأوا التشخيص وعالجوا فأساءوا العلاج ، فلأذهب إلى طبيب ثان وثالث من كبار الأطباء حتى أستيقن المرض ، وهكذا فعلت ، ولكن — مع الأسف — كلهم أجمعوا على التشخيص وطريق العلاج .

بدأ الطبيب المعالج يباشر علاجه ، فها أنا فى المستشفى والطبيب يعصب عينىّ قبل العملية بأسبوع ، وها أنا ذا فى ظلام حالك ليل نهار ، دنياى كلها ليل ، بل أكثر من ليل ، فالجلسة محرمة ، والتقلب على الجوانب محرم ، كأنى قد شددت على السرير شداً ، بل أصعب من الشد ، لأن إرادتى هى التى تشدنى ، فاحتملت فى صبر ، وبدأت أفكر فى الدنيا وهوانها وسخافة

الناس الذين يشغلون أنفسهم بالتافه من أمورها ، ويتحاربون ويتشاجرون على الحقير من متعها ، وهى عرضة فى كل وقت للزوال ، ولو عقلوا لما تخاصموا ولا تحاربوا وكانوا إخواناً متحابين متعاونين ، يأخذون الأمور بهوادة وحكمة وحسن تقدير وتفكير فى العواقب .

حاولت أن يكون ظلامى مضيئاً ، فلئن حرمت النور من العينين فليستنر قلبى ، ولئن حرمت نور البصر فلتضئ بصيرتى ، ولكن كنت أنجح فى هذا حيناً وأخفق أحياناً ، فقد اختلف الإلف والعادة ، وكنت أشعر دائماً أن العينين هما الكوتان اللتان تطل منهما نفس الإنسان على الدنيا ، فإذا عدم النظر فقد أغلقت الكوتان ، وحبست نفس الإنسان ؛ وأحياناً كنت أتردد بين الأمل فى عودتى إلى ما كنت عليه وأن تجرى الأمور فى المستقبل القريب كما جرت فى الماضى ، فأشعر بالطمأنينة والراحة ، و بين اليأس والخوف من الظلام الدائم ، فيستولى علىّ الفزع والهلع ؛ وأرهب ما يكون إذا تقدم الليل وانقطع الزوار وانصرف الأهل ، ونام الناس ، واعترانى القلق ، وشعرت بالوحدة ، واستولت علىّ الأفكار المظلمة ، فاجتمع علىّ ظلام الليل وظلام النفس .

أستجدى النوم فلا يجدى ، وأفزع إلى الأفكار المطَمْئنة فلا تسعف ، وأعدّ ساعة الجامعة بالقرب منى ربعاً فربعاً ، وتغفو عينى غفوة فأظن أن الليل انقضى ببؤسه وشقائه ، ثم أتسمع إلى حركة الشارع لعلى أتبين منها قرب النهار ، فأسمع حركة عربات وسيارات ومارة ، فأتساءل : هل الناس عائدون من آخر سهراتهم أو هم مستقبلون لبدء نهارهم ؟ وهل هذه الحركة حركة متأخرة ، أو حركة مبكرة ؟ وأظل فى هذا الشك زمناً بين رجاء أن يكون الصبح وخوفٍ أن يكون الليل ، وإذا بالساعة تدق الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، فأجزع من أنى مقبل على ليل ليس له آخر ، وأنشد مع الشاعر :

يا ليل بل يا أبدُ   أغائب عنك غدُ ؟

وأعزى النفس بأن حولى فى الحجر المجاورة فى المستشفى مرضى يتألمون ولا أتألم ، ويستغيثون ولا أستغيث ، وأن بهم جروحا ولا جروح بى ، ولكن سرعان ما تذهب هذه التعزية لأن الآلام متنوعة ، وقد يكون ألم النفس أشد وقعاً من ألم الجسم .

لم يكن لى من العزاء أحسن من الإيمان ، فهو الركن الذى يستند إليه المرء فى هذا الوقت الرهيب ، وبدونه يشعر كأن الهاوية تحت قدميه .

لوأدرك الناس هذا ما ألحدوا ، فالإلحاد جفاف مؤلم ، وفراغ مفزع ، ومحاربة للطبيعة الإنسانية التى فطرت على الشعور بإله ، والارتكان عليه والأمل فيه ، و إلا كانت الحياة جافة فارغة مفزعة منافية للطبيعة . وكان من المصادفة الحسنة أن حضر إلىّ أحد أبنائى الأوفياء وأحب أن يسلينى بالقراءة لى بعض الوقت ، فكان مما اختاره لى كتاب « اعترافات تولستوى » فوقع فى نفسى موقعاً جميلا ، إذ رأيته يصور حياته وقد ركن أول أمره إلى العقل وحده ، و إلى العقل الواقعى لا غير ، فأسلمه الاعتماد على المقدمات المنطقية المادية وحدها إلى الإلحاد ، وعدّ الدين خرافة من الخرافات ، ولكنه شعر بعد حين بأن الحياة لا قيمة لها وأنها فارغة من المعانى .

إن هذه الحياة المادية التى تركن إلى العقل الجاف وحده لا تستطيع أن تجيب عن الأسئلة الآتية : ما قيمة الحياة ؟ ما الذى يربط بين الحياة المادية المحدودة و بين الأبدية ؟ وما الذى يربط بين حياة الإنسان الجزئية والإنسانية الكلية ؟ إلى مثل هذه الأسئلة ... فكان لا يجد فى قضايا العقل وحدها جواباً ، وساءت نفسه وأظلم تفكيره ، وأدرك أن الحياة على هذا الوضع نكتة سخيفة ، وأنها لا تستحق البقاء ، وحاول الانتحار مراراً ، وفى كل

ذلك كان يهزأ بالدين ، ولا يريد أن يتجه إلى التفكير فيه ؛ وأخيراً بعد الشقاء الطويل والعـذاب الأليم اتجه إلى الدين لينظر كيف يحل هذه الأسئلة ، فرأى أنه وحده الذى يفسر معنى الحياة ، ويربط الحياة الجزئية بالكلية ، والنفس الفردية بالإنسانية ، فاطمأنت نفسه وانقلب متدينا .

فكان فى هذا الكتاب عزاء لنفسى ومجال لبعض تفكيرى ، وقارنت بين موقف تولستوى وموقف الغزالى ، فقد كنت قرأت له كتاب « المنقذ من الضلال » وكان مما حكى عن نفسـه أنه مرَّ بمثل هذا الدور ، شك فى كل التقاليد الدينية ، واستعرض المذاهب المختلفة فى الدين ، وأحب أن يركن إلى الفلسفة وحدها فلم تسعفه ، وإلى تعاليم الباطنية فلم يطمئن إليها ، واستولى عليه الشك حتى غمره ، ووقع فى أزمة نفسية حادة ، واحتقر سخافات الناس فى التخاصم على المال والجاه والمنصب فنفر من كل ذلك .

وأخيراً بعد أن استحكمت أزمته النفسية وأخذت منه كل مأخذ مرض مرضاً شديداً ، ولا أشك أن مرضه الجسمى كان نتيجة لمرضه النفسى ، ثم أفاق قليلا قليلا وإذا هو يخرج من هذه الأزمة كما خرج منها تولستوى متديناً بالقلب لا بالمنطق ، وبالشعور النفسى الغريزى لا بالمقدمات الفلسفية ، وإن كان الفرق بينهما

أن تولستوى آمن بعد إلحاد ، والغزالى آمن إيمان كشفٍ بعد إيمان تقليد بينهما فترة شك .

ويأتى الطبيب بعد خمسة عشر يوماً من العملية فيذكر لى أنه سيكشف عن قاع العين غداً ، فأسأله : ما هى الاحتمالات المنتظرة ؟ فيقول : هناك احتمالان ، إما أن تكون أعصاب العين لم تقو على الالتحام ؛ وإذ ذاك تكون العملية قد أخفقت ، وإما أن تبدأ فى الالتحام فيكون هناك الأمل فى النجاح .

أربع وعشرون ساعة تساوى أربعة وعشرين شهراً أو تزيد . انتظار للخيبة أو الرجاء ، وتردد بين اليأس والأمل ، ثم لا ينفع بعد ذلك أيضا إلا الإيمان .

أحياناً أقول للنفس : ما هذا الجزع ؟ وما أنت والعالم وما عينك فى الدنيا ؟ هلا قلت كما قال الشاعر :

هل أنتِ إلا إصبع دَمِيتِ   وفى سبيل الله ما لَقِيتِ

إن الذى يوقعك فى هذا التفكير المحزن هو انطواؤك على نفسك وتقويمك لها قيمة أكبر مما تستحق ، وهل أنت إلا ذرة صغيرة على هذه الأرض ماضيها وحاضرها ومستقبلها ؟ وهل الأرض كلها إلى هَنَة من هنات العالم ، فلتتسع نفسك وليتسع تفكيرك ولتقدر نفسك قدرها ولتفكر فى خارجك أكثر مما

تفكر فى داخلك ؛ فإذا أنا استغرقت فى مثل هذا التفكير هدأت واطمأننت ، ولكن سرعان ما تذهب هذه الصورة كما يذهب المنظر فى فيلم السينما ، وتحل محلها صورة كئيبة حزينة جزعة ، ولا تزال الصور تتعاقب ، وكل صورة تطرد أختها ، والصور مختلفة الألوان ، مختلفة الأشكال ، بين هادئة وعنيفة ، و باسمة و باكية .

ونمت عندى حاسة السمع لتعوض ما أصاب أختها حاسة البصر ، فكنت أعرف كل إنسان من صوته ومن أول كلمة ينطق بها ، فلا أحتاج إلى تعريف ، حتى لأذكر أن صديقاً قديماً انقطعت بينى و بينه الأسباب منذ نحو خمسة عشر عاما ، لم أره ولم يرنى ، زارنى فما نطق بالسلام حتى عرفت من هو وهتفت باسمه .

وتكاثر الزوار وكانوا موضع الملاحظة والنقد والتقدير : هذا زائر يحدثك الحديث فهو بلسم هموم ، وموضع الماء من ذى الغلة الصادى ، فيؤنسك و يسليك ، و يقول ما يحسن أن يقال ، وهذا زائر قد عدم الذوق ، فهو يرانى فى هذه الحال و يطلب إلىَّ إذا زارنى صديقى فلان أن أرجوه فى أن يمنحه الدرجة الرابعة ، و يشكو إلىَّ تأخره عن زملائه ووقوع الظلم عليه ، ثم هذا زائر كريم قد أنساه ما أنا فيه ما بيننا من خصومات عارضة فداس هذه الخصومات بقدميه ، وكان وفياً كريماً ، قد نسى الحديث التافه

فى الخصومة ، وذكر القديم القويم من الصداقة ، وزائر يحز المنظر فى نفسه فتكاد دموعه تسيل على خديه لولا أنه يجاهدها ، وآخر يتجلد ويتصنع الثبات فإذا خرج سمعت نشيجه ، إلى ما لا يحصى من مسموعات ، وكل هذا يُخْزَن فى النفس طول النهار وتستعيده الذاكرة طول الليل .

وأستعرض أحيانا أحوال من فقد بصره فأتأسى بها ، وأقول إن المسألة ليست مسألة بصر ، بمقدار ما هى مسألة نفس تتلقى الحادث . هذان مثلان بارزان : بشار بن برد وأبو العلاء المعرى ؛ فأما بشار فقد واجه فقد بصره فى ثبات ، وعاش كما يعيش ذوو الأبصار ، يمزح ويضحك ويقول إنه إذا عدم العشق بالنظر فليعشق بالأذن ، ويستمتع بالحياة المادية ويستغرق فى الشهوات كأقصى ما يفعله بصير ، وهو قوى جبار لا يمسه أحد بسوء إلا نكل به وانتقم منه ، وهو عنيد فاجر ، لا يأنف أن يصف فى شعره كل الصور التى لا يستطيع وصفها إلا البصير ، من غبار النقع وجمال العين ولطف القوام ، فلا تكاد ترى فى شعره أثراً من حزن على عين ، أو بكاء على حرمان منظر .

وأما أبو العلاء فأصابته نفس الكارثة فحزن واسترسل فى الحزن ، فأعرض عن لذات الحياة الدنيا ، وبكى نفسه وبكى

الناس وبكى كلَّ ما حوله ، وتحوَّلَ هذا الحزن إلى سخط على الناس من جميع الأصناف والألوان ، من أمراء وقادة ورجال دين ونساء ووعاظ ومنجمين ، فلم يسره شيء فى الدنيا لأنه فقد السرور بالعين ، وحبس نفسه فى البيت إذ لم ير نفسه صالحاً لأن يظهر أمام الناس وهو فاقد العينين ، بل أضاف إليه محبساً آخر وسمى نفسه رهين المحبَسَيْن : محبسه بفقد نظره ومحبسه فى بيته ؛ ومع ذلك كله ملأ الدنيا بأثره ، فقد انطوى على نفسه يستخرج منها كنوزاً من معارفه وتأملاته وتفكيراته ، فاستضاءت بصيرته بأكثر مما كان يضيء نظره ، وتألم هو فلذّ الناس ، وفقد البصر فبصّر الناس ، وكانت حياته نفعاً جماً فى الإملاء والتأليف والتعليم والتفكير الحر الطليق مما لم يستطعه بصير .

وأنا لو أصبت فى عينى — لا قدر الله — لكانت طبيعتى أشبه بطبيعة أبى العلاء لا بطبيعة بشار ، على بعد الفرق بينى و بينه فى أنه خصب النفس غزير التفكير متعدد النواحى قوى النقد ؛ ولعل فقد البصر فى الصبا أخف وقعاً من فقده فى الكبر ، فالصبىّ مَرِن ، نفسه كأعضائه ، سرعان ما تتشكل حسب الوظيفة وحسب الظروف ، والكبير نفسه كعظام الهرم إذا صدعت صعب أن يجبر صدعها ، وما أبعد الفرق بين فقير عاش فقيراً طول حياته

وفقير أصابه الفقر بعد أن عاش عيشة طويلة فى الغنى .

وأحاطونى بأنواع من المتع : فهذا الراديو بجانبى ولكنى لا أستسيغ الغناء كما كنت أستسيغه قبلاً ، ولا تهتم نفسى بالمحاضرات كما كانت تهتم بها ، إنما هو شىء واحد كنت أستمتع به فى الراديو وهو دلالته على الصباح فى أول إذاعته وسماع القرآن يهدئ الأعصاب فيبعث الطمأنينة .

هذا هو الطبيب بعد طول انتظار يفحص عينى ليرى نتيجة العملية وما يخبئه الغد وليقول كلمته الحاسمة ، ثم يقول بعد طول الفحص إن العين قد بدأ التحامها والحمد لله ، ولكن الأيام الآتية أيام دقيقة تحتاج إلى شدة عناية وقلة حركة والتزام للنوم على جانب واحد ، إذ أقل مخالفة تفسد ما تمَّ . فأهوى على الطبيب أقبّله ، ثم لا ألبث أن أستصعب الأوامر الجديدة وافتتاح درس فى الصبر جديد بعد طول الصبر القديم ، فإلى الله أشكو وأضرع .

هذه هى الأيام تمر ، وتبدأ النفس تفقد كثيراً من قوتها ، فهى تتأثر بما لم تكن تتأثر به ، وتجزع مما لم تكن تجزع منه : هذا ابن يصاب بالزكام فلم أصيب ؟ وهذا ابن دخل الدور الثانى فى الامتحان فماذا تكون النتيجة ؟ وهذا ابن تخرج من مدرسته ولا يجد عملا فلم لم يوظف ؟ وهذا ابن تأخر عن موعد حضوره

فلم تأخر ؟ وأصبحت الدنيا دنيا أوهام وتأثرات مفتعلة ، و إذا دنيا الإنسان ليست إلا مجموعة أعصاب ، إن سلمت وقويت ابتهج بالحياة ولم يتأثر كثيراً بأحداثها ، و إن تلفت تهدم كيانه وخار بنيانه .

ها هو الطبيب يرفع الرباط عن العين السليمة بعد نحو أربعين يوماً وهى فى ظلام حالك ، ويبقى الرباط على العين المريضة ، فحتى هذه العين السليمة لا تكاد ترى إلا بصيصاً ، من طول ما حرمت من أداء وظيفتها فلا تميز الباب من الشباك ، فما بال العين المريضة حين يرفع عنها الرباط ؟ وأشكو ذلك إلى الطبيب فيقول إن هذا طبيعى فالعين تسترد وظيفتها شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً .

وأضيق ذرعاً بالمستشفى وحياته الرتيبة فما يجرى فى يوم يجرى كل يوم ، والأصوات هى الأصوات والطعام هو الطعام ، والأنين حولى من كل جانب ، والأجراس تضرب من حين إلى حين ، والحركات لا تنقطع ليلا ولا نهاراً .

وفى المستشفيات نقص لا يُلتفت إليه . فالأطباء يعنون بمقياس حرارة الجسم وتحليل ما يريدون منه ، كما يعنون بنوع الغذاء الذى يلائم المريض أو لا يلائمه ؛ ولكن يفوتهم شىء هام جدا ربما كان أهمَّ من ذلك كله ، وهو معالجة النفس . فلماذا لا يكون فى المستشفى ممرضات للنفس كممرضات الجسم ، يؤنسن المريض

بأحاديثهن أو يقرأن له ويكون لهن من الثقافة ومن حسن الحديث ما يكون بلسماً للنفوس وشفاء لما ينتابها من ضيق وكآبة ، وذكرت ذلك لمدير المستشفى فأقرنى على ملاحظتى واستصعب تنفيذها لأسباب ذكرها .

لذلك سألت الطبيب أن ينقذنى من المستشفى فى أقرب وقت ممكن ، مع كل ما كان يحمد فيه من نظافة ورعاية ودقة وإتقان . وصرّح لى الطبيب أن أخرج على شرط أن يحاط الخروج بكل عناية ، فلا حركة عنيفة ، ولا اهتزازا يرج الجسم ، حتى إذا وصلت إلى البيت حملت فى محفة إلى أن وضعت على السرير وضعاً ، وكنت إذا تحركت فحركة خفيفة فى أناة وهوادة ، ثم بدأت أتعلم المشى كما يتعلمه الطفل ، فلا أكاد أخطو حتى يعترينى الدوار فأعود إلى السرير ثم أعاود المشى . وفى يومين أو ثلاثة استطعت أن أمشى مترين أو ثلاثة ، ولا يسمح لى بالخروج من الغرفة .

ثم يسمح لى بالانتقال إلى غرفة مجاورة ، ثم يسمح لى أن أمشى فى مستوى واحد ، فلا أنزل سلما ولا أطلع سلما ، وأنتهى من هـذا الدور كله وتضىء العين تدريجاً ويشفى الجسم تدريجاً ، ولـكنى أجد نفسى مستعصية على الشفاء ؛ فهى متبرمة من كل شىء منقبضة أشد الانقباض ، فأستدعى طبيب الجسم مرة ومرتين

وثلاثاً فيفحص و يطيل الفحص ثم يقول إن الجسم سليم ، فضغط الدم جيد والصدر جيد والأعضاء كلها على أحسن حال ، ولكن المسألة مسألة نفسك أنت ، وأنت القادر على مداواتها ! غير أنى لا أجد لها دواء ، وأحلل أسباب ذلك فأرجعها إلى أمرين : أولهما أن طول الرقدة مع الظلام قد هدَّ أعصابى ، وثانيهما أن طبيب العيون لا يزال يمنعنى من القراءة والكتابة وكانت حياتى كلها قراءة وكتابة ، فلما حرمتهما أحاطنى فراغ رهيب مخيف ، والفراغ أدهى ما يمنى به الإنسان . فليس فى الحياة سعادة إلا إذا ملئت بأى نوع من أنواع الامتلاء ، جد أو هزل ، وعمل أيا كان نوعه ، فإذا طال الفراغ فالوبال كل الوبال . إن فارغى العقل معذورون فى أن يملأوا فراغهم بنرد أو شطرنج أو أى حديث ولو كان تافهاً لأنهم يشعرون بثقل الفراغ ، والحياة لا تلذ إلا بنسيانها ، وخير لذة ما نسى الإنسان فيها نفسه واستغرق فيها حتى نسى التلذذ بها ، فلو فكر لاعب النرد والشطرنج فى أنه يتلذذ بهما لفقد لذته ، وخير أنواع اللذائذ العقلية ما استغرق فيها الإنسان بتأمله وتفكيره حتى مر عليه الوقت الطويل دون أن يشعر ، ففراغى هو أهم أسباب ضيقى ، وأهم أسباب أزمتى النفسية .

ولقد اعتدت أن أعتمد على الكتب أتخير مؤلفيها ، وأصغى إلى حديثهم ، وأستلهم مايقولون ، وأفكر فيما يعرضون ، فلما عدمت هذا عدمت الركن الذى أرتكن عليه واحتجت إلى دعامة أخرى أستند عليها . وتلمستها فيمن يقرأ لى و يكتب لى ، ولكن لا بد من زمن حتى آنس بهذا الاعتياد الجديد ، ثم هذا كله لا يغنى غناء الاعتماد على النفس ، فقد أحتاج إلى قارىء فى وقت فألتمسه فلا أجده ، وقد يكون القارىء الكاتب ولا رغبة لى فى قراءة ولا كتابة ، وقد أحتاج إلى قارىء من نوع معين ولا أجده ؛ على كل حال ارتبكت النفس وطال اضطرابها .

وأدخل المكتبة لذكرى الماضى فيزيد ألمى . غذاء شهى وجوع مفرط ، وقد حيل بين الجائع وغذائه . وأتساءل : هل يعود نظرى كما كان فأستفيد منها كما كنت أستفيد ؟ وهذه الآلاف من الكتب آلاف من الأصدقاء ، لكل صديق طعمه ولونه وطرافة حديثه ، وقد كان كل يمدنى بالحديث الذى يحسن حين أشير إليه ، فاليوم أراهم ولا أسمع حديثهم و يمدون إلىَّ أيديهم ولا أستطيع أن أمد إليهم يدى .

ثم إنى أشعر شعوراً غريباً بحب الضوء وكراهية الظلام ، فأحب النهار وأكره الليل ، وأحب من الألفاظ كل مايدل على

الضوء ، وأكره منها كل ما يدل على الظلام ، وأحب النهار تطلع شمسه ، وأكره السحاب يغشى الشمس ، ومن أجل ذلك وضعت بجانب سريرى زراً كلما شعرت بالظلام ضغطت عليه فأضاءت الحجرة .

وأهم ما لاحظته اختلال ما كان عندى من قيم لشئون الحياة ، فأستعرض كثيراً مما كنت أقومه فلا أجد له قيمة ، وتعرض علىّ متع الحياة المختلفة فلا أجد لها وزنا ، وتعرض علىّ أخبار الناس يسلكون فى الحياة سبلاً مختلفة ، فأهزأ بكل ذلك .

ثم لما فقدت قيم الأشياء التى اعتدتها لا أزال حائراً فى وضع أسس جديدة لقيم جديدة ولما أستقر بعدُ على رأى .

لقد أفادتنى هذه التجربة المرة أن خير هبة يهبها الله للإنسان مزاج هادىء مطمئن ، لا يعبأ كثيراً بالكوارث ، ويتقبلها فى ثبات ويخلد إلى أن الدنيا ألم وسرور ، ووجدان وفقدان ، وموت وحياة ، فهو يتناولها كما هى على حقيقتها من غير جزع . ثم صبر جميل على الشدائد يستقبل به الأحداث فى جأش ثابت ، فمن وهب هاتين الهبتين فقد منح أكبر أسباب السعادة .

وأخيراً لم أستفق مما أصابنى من تدهور حالتى النفسية إلا بعد سنة تقريباً . أما عيناى فاليمنى منهما قد استردت قدرتها كما كانت

وهى السليمة التى لم تجر فيها عملية ، وأما اليسرى وهى التى أجريت فيها عملية الشبكية فقد قال الطبيب إن عملية الشبكية قد نجحت ، ولكن يمنعها من الإبصار أن بها مرضاً آخر وهو الماء الأبيض أو ما يسمونه « الكاتاراكت » وأنه لا يصح عمل عملية فيها إلا بعد أن يتجمد هذا الماء ، وتجمده ليس له زمان محدود ، وهو يختلف باختلاف الأشخاص ، وأن العين ستزيد ظلاماً كلما تحرك الماء نحو إنسان العين ، وفعلا قد مضى الآن على العملية نحو سنتين وزادت العين ظلاماً حتى كادت لا ترى ، والطبيب يخبرنى أنها قاربت التجمد و بعدها يجرى العملية .

من أجل ذلك ضعفت قدرتى على القراءة والكتابة مع الرغبة الشديدة فيهما ، واضطررت أن أستعين بعض الوقت بمن يقرأ لى و يكتب ، وقد اعتدت الإملاء بعض الشىء ولم أكن أحسنه أول الأمر ، لأنى طول حياتى العلمية كنت لا أعتمد إلا على نفسى فيهما ، وذهنى يدرك بالعين ما لا يدرك بالسمع ، وأفكارى ترد على قلمى أكثر مما ترد على قلم غيرى ، وذهنى كثير الشرود عندما أسمع وقراءة العين تحصره ، وفكرى بطىء إذا أملى ، وكنت إذا أمسكت القلم تواردت علىّ المعانى وأسرع قلمى فى تقييدها .

(٣٥)

فى سنة ١٩٤٨ قرر مجلس كلية الآداب ومجلس جامعة فؤاد الأول منحى الدكتوراه الفخرية فلقبت : الدكتور أحمد أمين ، ومنحت جائزة فؤاد الأول ، وهى إحدى الجوائز التى (اقتضت إرادة جلالة الملك فاروق فى سنة ١٩٤٦ — تشجيعاً للعلم وحثاً للعلماء على الإنتاج المثمر المبتكر ، وبراً بذكرى والده المجيد المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول — أن ينشىء ثلاث جوائز مالية سنوية كل جائزة منها ألف جنيه مصرى يطلق عليها اسم جائزة فؤاد الأول وتمنح لمن ينتج أحسن عمل أو إنتاج فى الآداب والعلوم والقانون) ؛ وقد أقيم حفل كالمعتاد فى يوم ٢٨ فبراير ١٩٤٨ فى قاعة الاحتفالات الكبرى للجامعة سلمت فيه الجائزة ، وكان نص البراءة الملكية ما يأتى « من فاروق ملك مصر بعناية الله تعالى إلى حضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين ابراهيم بك العضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية : بناءً على ما أقرته اللجنة الدائمة لجوائز فؤاد الأول وفاروق الأول من استحقاقكم جائزة فؤاد الأول للآداب عن سنة ١٩٤٨ لما امتاز به مؤلفكم « ظهر الإسلام » من دقة البحث ، قد أمرنا بإصدار براءتنا الملكية هذه

من ديواننا بمنحكم تلك الجائزة . وفقكم الله لخدمة العلم والوطن ؛ تحريراً بقصر القبة الملكى بالقاهرة فى اليوم التاسع عشر من شهر جمادى الثانية لسنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين من هجرة خاتم المرسلين وفى السنة الثانية عشرة من حكمنا » . كما سلمت فى اليوم نفسه براءة الدكتوراه الفخرية .

وكان الطبيعى أن أبتهج بهاتين المنحتين العظيمتين اللتين منحتا لى فى يوم واحد تتويجاً لجهودى فى الجامعة وجهودى فى الإنتاج الأدبى ، ولكن جاءتا عقب العملية الجراحية فى عينى وما أصابنى من ذلك فى نفسى ، فلم يهتز لهما قلبى كما ينبغى ولا ابتهجت لهما نفسى كما يجب ؛ يضاف إلى ذلك حالتى النفسية وهى أن تستجيب لداعى الحزن ، ولو صغيراً ، ولا تستجيب لداعى السرور ولو كبيراً إلا بقدر .

وفى هذه السنة أيضاً أنشئ فى الجامعة نظام « الأستاذ غير المتفرغ » وهو نظام رأى واضعوه أن كثيراً من الممتازين فى القانون والآداب والعلوم يشغلون مناصب كبيرة فى الدولة ، وليس من السهل إخراجهم من مناصبهم وتخصيصهم بأستاذية الجامعة ، فمن الممكن تعيينهم أساتذة غير متفرغين مع بقائهم فى مناصبهم الأخرى ، فلما ووفق على هذا المشروع عينت أستاذاً

غير متفرغ مع من عين فى كلية الآداب ، ولم تحل إحالتى على المعاش دون ذلك ، فعدت أستاذاً كما كنت أحضّر محاضراتى وألقيها ، وأنا فى هذا العام عام ١٩٤٩ ألقى محاضرتين : إحداهما فى النقد الأدبى وموضوعها كيف ينبغى أن يدرس الأدب ، والثانية دراسة لـكتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه .

(٣٦)

هذه أهم الأحداث التى مرت علىَّ من صباى إلى شيخوختى فأثرت فىَّ تأثيراً دائباً متواصلا حتى صيرتنى كما أنا اليوم ، وكان يمكن أن تـكون غير ذلك فأكون غير ذلك ، ولـكن شاء الله أن تجرى علىَّ كما جرت فتصوغ منى ما صاغت .

لقد كتبت مرة مقالا فى وصف صديق وكنت أستملى وصف هذا الصديق من نفسى ، إذ عَنيَت به شخصى ، وقد جاء فيـه : « لى صديق اصطلحت عليه الأضداد ، وائتلفت فيه المتناقضات سواء فى ذلك خلقه وعلمه .

حيىٌّ خجول يغشى المجلس فيتعثر فى مشيته ، و يضطرب فى حركته ، و يصادف أول مقعد فيرمى بنفسه فيه ، و يجلس وقد لفَّ الحياء رأسه ، وغض الخجل طرفه ، وتقدم له القهوة فترتعش يده ،

وترتجف أعصابه ، وقد يدارى ذلك فيتظاهر أن ليس له فيها رغبة ولا به إليها حاجة ، وقد يشعل لفافته فيحمله خجله أن ينفضها كل حين ، وهى لا تحترق بهذا القدر كل حين ، وقد يهرب من هذا كله فيتحدث إلى جليسه لينسى نفسه وخجله ، ولكن سرعان ما تعاوده الفكرة فيعاوده الهرب ، حتى يحين موعد الانصراف فيخرج كما دخل ، ويتنفس الصعداء بعد أن أدركه الإعياء .

من أجل هذا أكره شىء عنده أن يشترك فى عزاء أو هناء أو يُدعى إلى وليمة أو يدعو إليها إلا أن يكون مع الخاصة من أصدقائه ... يحب العزلة لا كرهاً للناس ولكن هروباً بنفسه .

ثم هو مع هذا جرىء إلى الوقاحة ، يخطب فلا يهاب ، ويتكلم فى مسألة علمية فلا ينضب ماؤه ولا يندى جبينه ، ويعرض عليه الأمر فى جمع حافل فيدلى برأيه فى غير هيبة ولا وجل ، وقد تبلغ به الجرأة أن يجرح حسهم ، وينال من شعورهم ، ويرسل نفسه على سجيتها فلا يتحفظ ولا يتحرز .

يحكم من يراه فى حالته الأولى أنه أشد حياءً من مخدرة ، ومن يراه فى الثانية أنه أجرأ من أسد وأصلب من صخر ، ومن يراه فيهما أنه شجاع القلب جبان الوجه .

وهو طموح قنوع ، نابه خامل ، تنزع نفسه إلى أسنى المراتب

فيوفر على ذلك همه ، ويجمع له نفسه ، و يتحمل فيه أشق العناء وأكبر البلاء ؛ و بينا هو فى جده وكده ، وحزمه وعزمه ، إذ طاف به طائف من التصوف ، فاحتقر الدنيا وشئونها ، والنعيم والبؤس ، والشقاء والهناء ، فهزئ به وسخر منه واستوطأ مهاد الخمول ورضى من زمانه بما قسم له ؛ و بينا يأمل أن يكون أشهر من قمر ، ومن نار على علم ، إذا به يخجل يوم ينشر اسمه فى صحيفة ، و يذوب حين يشار إليه فى حفل ، و يردد مع الصوفية قولهم « ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه » ، يعجب من يعرفه إذ يراه معرفة نكرة ، محبا للشهرة والخمول معا .

وأغرب ما فيه أنه متكبر يتجاوز قدره و يعدو طوره ، ومتواضع ينخفض جناحه وتتضاءل نفسه ، يتكبر حيث يصغر الكبراء ، و يتصاغر حيث يكبر الصغراء ، يتيه على العظماء و يجلس إلى الفقراء يؤاكلهم و يستذل لهم ، لا تلين قناته لكبير ، و يخزم أنفه الصغيرُ .

يحب الناس جملة و يكرههم جملة ، يدعوه الحب أن يندمج فيهم و يدعوه الكره أن يفر منهم ، حار فى أمره ، وامتزج حبه بكرهه ، فاستهان بهم فى غير احتقار .

صحيح الجسم مريضه ، ليس فيه موضع ضعف ، ولكن كذلك ليس فيه موضع قوة . . . . .

ورأسه كأنه مخزن مهوّش أو دكان مبعثر ، وضع فيه الثوب الخلَق بجانب الحجر الكريم . يتلاقى فيه مذهب أهل السنة بمذهب أهل النشوء والارتقاء ، ومذهب الجبر بمذهب الاختيار ، وتجتمع فى مكتبته كتب خطية قديمة فى موضوعات قديمة ، قد أكلتها الأرَضَة ونسج الزمان عليها خيوطاً ، وأحدث الكتب الأوربية فكراً وطبعاً وتجليداً . ولكل من هذين ظل فى عقله وأثر فى رأسه .

إن طاف طائف الإلحاد بفكره لم تطاوعه طبيعته ، وإن شك حيناً عقله آمن دائماً قلبه ، ومن أصدقائه السكير والزاهد ، والفاجر والعابد ، وكلهم على اختلاف مذاهبهم ، يصفه بأنه يجيد الإصغاء كما يجيد البليغ الكلام » .

وأزيد على ذلك أنى غضوب حليم ، وكل من يرانى يصفنى بالهدوء والاتزان والحلم والسكينة ، ولكنى إذا غضبت تعديت طورى وخرجت عن حدى فى قولى وتصرفى ، فيظهر أن التربية هى التى خففت من حدتى ، وضبطت من نفسى ، أما مزاجى الطبيعى فعصبى غير هادئ ، ولذلك أنفعل للحوادث أكثر

مما ينفعل لها صحبى ، فقد أكون جليساً لبعض الأصدقاء ، فيأتينا خبر موت صديق أو كارثة نزلت بمن نعرف فألاحظ أنى أكثرهم انفعالا وأشدهم تأثراً .

ثم قد ورثت من أبى «حملَ الهمّ» والخوف من العواقب ، والحياة قلّما تخلو من همّ — همِّ الأولاد ودراستهم ، والمعيشة وتكاليفها ، والوظائف ومتاعبها ونحو ذلك . والناس حولى تعتريهم هذه الهموم وأكثر منها فلا يأبهون بها كما آبه ، ولا يفزعون منها كما أفزع ، ويضحكون وسط همومهم ملء أفواههم ، ولا أستطيع أن أسير سيرهم ، حتى لو عرض علىّ عشر حوادث تسع منها تستوجب السرور ، وواحدة تستوجب الهم لغلبت الواحدة التسع .

شديد الحساسية للكلمة تمسنى أو الفعل يجرحنى ، وقد لا أنام الليل لكلمة نابية سمعتها أو صدرت عنى فى حق صديق لى ، ولكن كما أنى شديد التأثر شديد التسامح ، أغضب ممن يسىء إلىَّ ، ثم سرعان ما يصفو له قلبى ويتسع له صدرى .

شديد الخوف على سمعتى الخلقية ، فأتألم أشد الألم من كلمة تنشر إذا مست خلقى ، ولكنى واسع الصدر جداً فيما يمس آرائى وأفكارى . فليس يحزننى نقد كتبى ولا نقد آرائى ، بل أرتاح له وأغتبط به إذا اقتصر على حدود الرأى والفكر ، ولم يتعده إلى حدود الخلق .

نعم يسرنى كل السرور أن يقدر الناس كتبى وأفكارى ، ولكن إذا نقدوها فى أدب عددت ذلك ضرباً من ضروب تقديرها والاهتمام بها .

لدىّ الشجاعة فى قول الحق والتزام الصدق واحتمال الحرمان من مال أو جاه ، ولكن ليس لدىّ الشجاعة فى احتمال شوكة تصيب أولادى أو شىء يمس شرفى .

لست كثير الثقة بنفسى ، ولا بما يصدر عنى ، فالكتاب أؤلفه أو المقال أكتبه لا أثق بحكمى عليه بأنه جيد أو ردىء حتى يقرأه الناس فيحكموا بجودته أو تفاهته ، قد ألمح فيه الجودة أو التفاهة ، ولكنى لا أثق بحكم نفسى على نفسى حتى يؤيد الناس ظنى أو يكذبوه ، وأذكر مرة أنى أعددت يوما — وأنا مدرس بمدرسة القضاء — محاضرة موضوعها « دقة الملاحظة » وكان من عادتنا أن نعرض ما نكتب على عاطف بك بركات ناظر المدرسة فيجيزه أو لا يجيزه ، وقلّ أن تخلو محاضرة يقرؤها من ملاحظات عليها يقيدها بالقلم الأحمر ، فبعد يوم ردّ إلىّ المحاضرة ، وليست عليها أية إشارة ، فأيقنت أنها لم تعجبه جملة ، ولم يرض عن شىء فيها ، وأسفت لذلك أسفاً شديداً ، وجعلت أبرر حكمه عليها ، وأقول ماذا تحتوى هذه المحاضرة من أفكار !

فكرة كذا تافهة ، وفكرة كذامسبوقة ، وفكرة كذا ليست بذاك ، وهكذا حتى استسخفت كل ما فيها ، ويوم الثلاثاء وهو موعد المحاضرة استدعانى صباحا وسألنى : لِمَ لم أعلن عن محاضرتى ؟ فقلت: إنك استسخفتها . فقال : من قال لك ذلك ؟ قلت كل الدلائل ، فلم تحدثنى بشأنها ، ولم تؤشر عليها وأرسلتها إلىّ مع الساعى ، ونحو ذلك . فقال : إنى وجدتها كاملة ليس لى انتقاد عليها فلم أؤشر على أى شىء فيها ، وسألت عنك فقيل لى إنك فى الدرس فأرسلتها مع الساعى ، والمحاضرة قيمة جدا . فأخذت أستعيد فى ذهنى نقطها وأقول إن فيها فكرة كذا وهى جيدة ، وفكرة كذا وهى جديدة ، وفكرة كذا وهى قيمة ؛ وألقيتها فاستحسنت فعددتها حسنة .

وهذا عيب فىّ لم أدر كيف نشأ ، فخير للإنسان أن يثق بنفسه من غير غلوّ ، ويقدر إنتاجه على حقيقته من غير إفراط أو تفريط .

أحب النظام حبا شديداً ، فكل شىء فى موضعه ، وكل عمل فى وقتـه ، كما أحب البت السريع فى الأمور من غير تردد طويل ، وأفضّل سرعة البت ولو أنتج الخطأ على طول التردد ولو تبعه الصواب .

أما حياتى اليومية فإنها تكاد تكون حياة رتيبة كأنى قطار لا ينحرف عن السير على قضبانه ، فلا مغامرات ولا مفاجآت —

أصحو قبل الشمس دائماً مهما تأخرت فى النوم ، وتلك عادة اعتدتها مذ كان أبى يوقظنى فى طفولتى لأصلى معه الفجر — فإذا طلعت الشمس أفطرت فطوراً خفيفاً غالباً عماده اللبن ، و إذا كان لدىّ عمل خرجت إليه ، و إلا ذهبت إلى مكتبتى أو حديقتى أقرأ وأ كتب إلى ما بعد الظهر ، وهذا خير الأوقات عندى فائدة وأ كثرها إنتاجا ، فإذا تغديت نمت بعد الغداء ، وهى نومة تـكاد تـكون مقدسة ، إذا لم أنمها تعكر علىّ سائر يومى ، وكثيراً ما كانت هـذه النومة سبباً لمتاعب كثيرة ، فأنا لا أنام إلا فى هدوء تام ، وأى صوت ينبهنى ، وأى حركة تقلقنى ، فإذا بكى طفل أو حدثت حركة فى البيت ذهب عنى النوم ، وغضبت وأغضبت وكثيراً ما ثرت فآلمت ، ويكفينى فى هـذا النوم نصف ساعة أو ما دونه ، فإذا صحوت شربت قهوتى ، و إذا لم يكن ثمة داع إلى الخروج عدت إلى مكتبتى لأقرأ لا لأ كتب ، فقلما ألّفت فى المساء لأنى إذا كتبت هاج مخى ، فإذا ما نمت بعد الـكتابة لم أنم نوما هادئا ، وظل عقلى يحلم و يحلم ، و يبدى و يعيد فيما كنت أ كتب ، وليس الحال كذلك إذا اقتصرت على القراءة ، ولذلك اعتدت أن أفـكر وأقرأ مساء ثم أ كتب صباحا غالباً .

ولا أستطيع الـكتابة إلا فى هدوء تام ، فأى صوت يزعجنى ،

وكم تمنيت أن يكون للأذن غطاء خاضع لإرادة الإنسان كما هو الشأن فى العين .

وقد أستريح يوم الجمعة فأخرج إلى حلوان أو الأهرام أو القناطر الخيرية أو نحو ذلك لأنسى القراءة والكتابة ، وأصيف فى الإسكندرية أو رأس البر ، فأحمل أهم كتبى معى وأشتغل بها كما أشتغل فى أيام عملى ، فلا أستمتع إلا بحسن الجو والسير أحيانا على شاطئ البحر ، ولم أعتد — ولله الحمد — كيفاً من الكيوف إلا الدخان أدخنه ولا أبتلعه ، كما لم أعتد أن أضيع وقتى فى الجلوس إلى مقهى إلا لمقابلة فى عمل ، فإن ملت إلى اجتماع بالناس فمع أصدقائى فى لجنة التأليف ، كما لم أعتد ضياع وقت فى لعب نرد أو شطرنج .

وكنت فى بدء حياتى العلمية كثير الفراغ ، أصرفه فى القراءة والكتابة ، فألّفت فجر الإسلام وضحاه ، ثم قلّ فراغى باشتغالى بكثرة المجالس واللجان ، فأنا عضو فى المجمع اللغوى وفى مجلس دار الكتب ومجلس كلية الآداب ودار العلوم ، ورئيس لجنة التأليف والجامعة الشعبية الخ . الخ ، ومذيع فى الراديو ، وكل هذه أكلت من وقتى ، و بعثرت زمنى ، ووزعت جهدى ، مع قلة فائدتها فيما أعتقد ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت لرفضت

كل هذه الأمور ونحوها وفرغت لإتمام سلسلة فجر الإسلام وضحاه وظهره وعصره ، فقد كان ذلك أجدى وأنفع وأخلد ، ولكن للظروف أحكام .

ولست أميل إلى الاجتماع كثيراً ، ولا أحب يوما يمر دون أن أخلو فيه إلى نفسى ، بعيداً حتى عن أهلى وولدى .

وأستمر فى القراءة إلى نحو الحادية عشرة فأنام ، وقد وضعت مصباحا كهربائياً بجانب سريرى أقرأ عليه حتى يغشانى النوم ، ولما أصبت فى عينى منعنى الأطباء من القراءة ليلا فاستعنت على ملء وقتى بمن يقرأ لى .

و إذا علقت فكرة بذهنى كانت شغلى الشاغل — أقرأ الكثير عنها وأفكر فيها وأحلم بها ، وقد يخطر لى فيها خاطر إذا صحوت أثناء الليل ، فأذهب إلى مكتبتى وأضيئها وأستحضر الكتاب الذى أظنه يعالجها ، وأقرؤه لتحقيق الفكرة والوصول فيها إلى نفى أو إثبات ثم أعود إلى فراشى .

و إذا حدث حادث سياسى أو اجتماعى — قومى أو إنسانى — تأثرتُ به تأثراً يغطى على تفكيرى العلمى . وها أنا ذا فى هذه الأيام مرتاع لما أصاب البلاد العربية من أحداث فلسطين ، يقلقنى جِد الصهيونيين وهزل العرب ، واجتماع كلمة الأولين وتفرق الآخرين ،

ووقوف الأولين على أساليب السياسة الأوربية والأمريكية والروسية ، وفهمهم الدقيق للأوضاع ، واستغلالهم الفرص السانحة ، وجرى الآخرين على سياسة الارتجال ، وجهلهم بما يجرى خلف الستار ، وتقصيرهم فى جمع كلمتهم وتوحيد خططهم ، ويفزعنى ما أحرزه الصهيونيون من نجاح لم يكن يتوقعه حتى أكثرهم تفاؤلا وأوسعهم أملا ، وأكرر السؤال على نفسى : ماذا سيكون المصير لو استمر الصهيونيون فى جدهم واستعدادهم وتكاتفهم ، واستمر العرب فى هزلهم وتخاذلهم ؟ وكثيرا ما أحاول الكتابة فى موضوع علمى أو أدبى ثم أُصرف عنه بهذا الحزن وهذا الجزع ، وأقول إنى كنت أعجب من ضياع الأندلس من يد المسلمين وسائرُ الأقطار الإسلامية لا تحرك ساكنا للإغاثة ولا تمد يداً للمعونة ، واليوم بعد قرون طويلة تتجدد المأساة فتضيع فلسطين من يد المسلمين ولا عبرة من الأحداث ولا استفادة من التاريخ ، ويغيث المسلمون شكل إغاثة لا حقيقة إغاثة ، ويعاونون معاونة كان خيراً منها عدمها ، فيا لله للمسلمين !

ثم لى نزعة صوفية غامضة ، فأشعر فى بعض اللحظات بعاطفة دينية تملأ نفسى ويهتز لها قلبى ، وأكثر ما يتجلى هذا عند شهود المناظر الطبيعية الرائعة ، كالمزارع الواسعة ، والأشجار اليانعة ،

والنجوم اللامعة ، وطلوع الشمس وغروبها ، والبحار وأمواجها ، والطيور وتغريدها ، فأشعر — إذ ذاك — بميل إلى احتضانها ، وأود لو ركزت فى كأس فأشربها ، وأحس بنشوة إذ أراها وأرى الله فيها ، ولكنى — مع ذلك — أشعر بأسف على أنى لم أُنَمِّ هـذه النزعة كما يجب ، ولم أتعهدها وأرْعها كما كان ينبغى .

ومزاجي فلسفي أكثر منه أدبياً ، حتى فى الأدب ، أكثر ما يعجبنى منـه ما غزر معناه ودق مرماه ، فيعجبنى الجاحظ وأبو حيان التوحيدى وابن خلدون أكثر مما يعجبنى الحريرى والقاضى الفاضل والصاحب بن عباد وطريقته ، والعماد الأصفهانى ومدرسته ، ويعجبنى المتنبى لولا إغرابه أحيانا وتكلفه ، والمعرى لولا تعالمه ، وأفضلهما على أبى تمام وتقعره ، ولا يعجبنى من البحترى إلا قصائد معدودة ، ولا يهتز قلبى لأكثر شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، لبنائه على الاستعارة والتشبيه لا على حرارة العاطفة ؛ ولهـذا كان لى ذوق خاص فى تقدير الأدب ، فضلت اتباعه مجتهدا — ولو كنت مخطئاً — على تقليد غيرى فى تقديره ولو كان مصيباً .

***

لو استعرضت حياتى من أولها إلى آخرها لكانت «شريطاً» فيه شىء من الغرابة وفيه كثير من خطوط متعرجة ، فما أبعد أوله عن آخره ، وما أكثر ما فيه من مفارقات ، وتغير فى الاتجاهات ، ومخالفة للاحتمالات ؛ فمن كان يرانى وأنا فى مدرسة أم عباس الابتدائية يظن أننى سأكمل دراستى الابتدائية والثانوية ، وقد أكمل الدراسة العالية وأشغل الوظيفة التى تتفق ونوع الشهادة : معلماً أو قاضياً أو مهندساً أو نحو ذلك . ثم تغير هذا الاتجاه فجأة إلى الأزهر ، فمن كان يرانى فى الأزهر يظن أنى إما أن أنقطع عن الدراسة فأكون إماماً فى مسجد ، أو مدرساً فى مدرسة أهلية أو نحو ذلك ، أو أتممها فأكون عالماً فى الأزهر ، له كرسى بجانب عمود من عمده يجلس عليه بعمته الكبيرة وجبته الواسعة ، يشرح المتن والشرح والحاشية . ثم تغير هذا الاتجاه أيضاً فجأة إلى مدرسة القضاء ، فكان أكبر الظن أن أكون كزملائى قاضياً شرعياً يتنقل فى مناصب القضاء حتى يكون رئيس المحكمة الشرعية العليا أو قريباً منه ، ولكن تغير أيضاً هذا الاتجاه فاتصلت بالجامعة ، وكنت أستاذاً بكلية الآداب وعميداً لها .

وتغيرت عقليتى تبعاً لهذا التغير ، فلم تعد عقليتى تنسجم مع العقلية الأزهرية ، بل ولا مع زملائى من مدرسة القضاء . ومنذ

قليل قابلت صديقاً كان من أحب الأصدقاء إلىّ فى مدرسة القضاء وأقربهم إلى عقلى ، فحادثته وأطلت الحـديث معه ، فإذا أنا فى واد وهو فى واد .

وكم من الفروق بين معيشتى الأولى ومعيشتى الأخيرة ! وإن الفرق بينهما — كما قال الجاحظ — كالفرق بين امرىء القيس إذ يقول :

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً
عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

وقول على بن الجهم :

فبتنـا جميعاً لو تراق زجاجة
من الخمر فيما بيننا لم تَسَرَّبِ

كنت فى بيت كالذى وصفته — أولا — فى منتهى السذاجة والبساطة ، لا ماء فى المواسير ، ولا آلة من آلات المدنية الحديثة ، فأصبحت أسكن فى بيت فيه الحديقة ، وفيه أثاث المدنية الحديثة ، وفيه الراديو والتليفون وما إلى ذلك .

ولم أركب القطار فى حياتى الأولى إلا وأنا فى السادسة عشرة من عمرى ، ركبته إلى طنطا فحزنت و بكيت ، وفى آخر حياتى ركبت الطيارة من القاهرة إلى لندن وأنا مسرور مبتهج .

وكنت أمشى على رجلىّ من بيتى فى المنشـية إلى الأزهر ، وأعود من الأزهر ومعى منديل كبير فيه (الجراية) أنقله بين يدى اليمنى ويدى اليسرى ، ومن كتفى اليمنى إلى كتفى اليسرى . فأصبحت أنتقل حتى المسافات القصيرة فى سيارة . وكان أبى يعلمنى فى كُتَّاب كالذى ذكرت ، فأصبحت أعلّم أولادى فى رياض الأطفال وما إليها ، ولا يعجبهم أن ينتقلوا فى الدرجة الأولى فى الترام والأمنوبيس ، ويتطلبون سيارة يتنقلون بها ، وكنت أُضرَب على الشىء التافه الصغير فأحتمل ، ولا أثور ولا أغضب ، فصار أبنائى يغضبون من الكلمة الخفيفة والعتاب المؤدب . وكنت لا أؤاخذ أبى على حرمانى من الضروريات ، فصار أبنائى يؤاخذوننى على حرمانهم من الإسراف فى الكماليات . وكنت وصرت ، وكنت وصرت مما يطول شرحه ، فما أكثر ما يفعل الزمان .

لقد بدأت فى شبابى أرسم حياتى المستقبلة من خيالى ، وأرسم المثل العليا لى فى خلقى ومسلكى وإصلاحى ، ثم اصطدمت هذه المثل بالواقع ، وبالبيئة التى حولى ، وبالعقبات التى صادفتنى ، وبكثير من الناس أخلفوا ظنى ، كل هـذا وأمثاله كان يأكل من البنيـان بنيته ، للمثل الأعلى الذى وضعته لقد حاولت أن أقف أمام هذه التيارات ولكنى لم أستطع أن أثبت فى مركزى ،

فجرفنى معه قليلا أو كثيراً ، ومن أجل هذا كنت فى شبابى خيراً منى فى شيخوختى ، وفى أول عهدى أكثر تفاؤلا منى فى آخر عهدى . لكم تمسكت فى شبابى بالمبدأ و إن ضرنى ، واستقلت من عمل يدر علىّ الربح لأنى رأيته يمس كرامتى ، و بنيت آمالا واسعة على ما أستطيعه من إصلاح وما أحقق من أعمال ، ثم رأيت كثيرا من هذه الآمال يتبخر ، وما أنوى من أعمال يتعثر ، وها أنذا فى شيخوختى قد أقبل ما كنت أرفض ، وقد أتنازل عن بعض المبادئ التى كنت ألتزم ؛ فالوسط وأحاديث الناس وكثرة الأولاد وتوالى العقبات وضعف الإرادة بطول الزمان قد تضطر الإنسان إلى التنازل عن بعض مثله العليا . و يعجبنى قول من قال :

عصيت هوى نفسى صغيراً وعندما
رمانى زمانى بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى ، عكس القضية ، ليتنى
ولدت كبيراً ثم عدت إلى الصغر

ومع هذا فإنى أحمد الله إذ منّ علىّ بالتوفيق فى أكثر ما زاولت من أعمال : فيما ألفت من كتب — فى عملى بلجنة التأليف — فى الجامعة الشعبية — فى الجامعة المصرية —

فى الجامعة العربية — فى عمادة كلية الآداب ؛ كذلك كان الشأن فى حياتى العلمية والأدبية والمالية والعائلية : نعمٌ من الله لا أستطيع أن أقوم بالشكر عليها .

وهى ظاهرة يصعب تعليلها العقلى ، أو تفسيرها بالتحليل الاجتماعى والنفسى . فكم رأيت من أناس كانوا أكثر منى ذكاءً وأمتن خلقاً وأقوى عزيمة ، وكانت كل الدلائل تدل على أنهم سينجحون فى أعمالهم إذا مارسوها ، ثم باءوا بالخيبة ومنوا بالإخفاق ، ولا تعليل لها إلا أن « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

A 29

DATE DUE

[illegible] 3 0 2005

JUL 15 2005

GAYLORD PRINTED IN U.S.A.

893.7Am54
R4

08992320

BOUND
FEB 6 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58866310
893.7Am54 R4 Hayati /

AP